أنيس منصور

جسمك لا يكذب!

دار الشروق

جسمك لا يكذب!

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م
الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الثالثة
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م
الطبعة الرابعة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
الطبعة الخامسة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الذي هو ملليمتر فوق بشرتك!

ولكنك أنت تكذب.

يسألك الطبيب عن حالك. فتقول: أحسن حال.

ولكن النبض المرتفع وصفار عينيك، وشحوب أظافرك، وشفتيك، وعرق يديك، كلها تقول أشياء أخرى في مظاهرة تهتف بسقوطك نفسيا وانهيارك جسميا.. إذن أنت تكذب. أما جسمك فلا.. وجسمك هو جسدك. وجسدك هو جسمانك. وجسمانك هو ذلك الشوال الذي يلم لحمك وشحمك و ٢٠٦ عظمات و ٦٤٩ عضلة. وفي أحشائك معدة هي بيت الداء. وقلب هو مصدر الرحمة مع أنه غارق في الدم. وعلى كتفيك كرة مظلمة هي مصدر النور والحضارة وفيها مخ رمادي يزن ١٤٢٤ جراماً ـ هو أعظم ما خلق الله..

ونحن جميعاً تحت الجلد: سواء.. كلنا واحد.. ولكن لون الجلد هو الذي يفرق بيننا.. هذا أسود وذاك أصفر والثالث أبيض.. هذا شاب وهذا شيخ.. هذا رجل وهذه امرأة..

ومكتوب على الجبين ما تقرؤه عيون الآخرين.. ومكتوب في باطن الكف وباطن القدم أيضاً.. أما الأذن فهي «فهرس» الجسم الإنساني ـ هكذا يقول علماء الوخز بالإبر الصينية. ففي شحمة الأذن

مراكز الجسم كلها . . وشحمة الأذن تشبه «تابلوه» النور في كل بيت وكل مصنع . . وتشبه تابلوه السيارة والطيارة فيها مفاتيح الغدد والعضلات . . وعندما تعلم الإنسان الكتابة بدأ ينقش جسمه : فالألوان لغة. وكل لون له معنى. سواء الألوان على الوجه أو على الصدر والذراعين والساقين.

وكذلك الأزياء التي ابتدعها الإنسان : كانت ألواناً وخطوطاً. فالفستان للمرأة: بشرة ثانية. واللون والخطوط: مفردات للغة الوقاية من البرد. والحر والأناقة والجمال دليل الطبقة الاجتماعية والحالة النفسية أيضاً. والأزياء لها قصة نفسية واجتماعية طويلة، سوف أحكيها فيما بعد . .

وسوف أحدثك الآن لا عن حلة الإنسان ولا عن جسمه وإنما عن ملليمتر من اللون أو القماش يعلو جسم الإنسان . . ونحن لا نعرف بالضبط متى بدأ الإنسان تلوين جسمه. ولكن رأينا الحيوانات والطيور التي تركها وراءه في الكهوف من عشرات ألوف السنين، وعلى التوابيت وفي المعابد . .

فبين ليبيا والجزائر توجد كهوف «تسيلي» وعلى جدرانها حيوانات وطيور وكائنات بشرية غريبة. والألوان المستخدمة هي الأحمر والبني والأسود والأبيض. وهذه الألوان لها معنى. لأن الفنان الذي رسمها أراد أن يبعث إلينا برسالة. والرسالة وصلت. والمعنى هو أن اللون الأبيض رمز السمو والأحمر رمز الحياة والأسود رمز البقاء. ولم نجد في داخل هذه الكهوف أحداً من الذين حفروها ثم بعثوا إلينا بهذه البرقيات المنقوشة على الجدران . .

وأنت تولد في جسمك، وعندما تموت تتركه وراءك. لأنك تموت في جلدك وتلمس الدنيا من خلال نوافذ العين والأذن والأنف والفم. . وتتحسس الدنيا بأصابعك. . وتطورها بعد ذلك. . فالفرق بين الحيوان والإنسان هو أن للإنسان أصابع قادرة على صنع السكين والقلم والسيف. فالإنسان هو الحيوان الذي يصنع أدوات حياته وأسلحة موته. . وهو يفعل ذلك لأن له أصابع قادرة على أن تقبض على المادة وتشكلها وتطورها، أما القرد ـ مثلاً ـ فله أصابع ممدودة مفرودة مشدودة تقع منها الأشياء. .

* * *

وحكاية بلقيس ملكة سبأ نموذج من التاريخ على إرغام الجسم على أن يكذب. . فعندما شكت بلقيس ملكة سبأ من أن بشرتها جافة خشنة، فقد كانت مصابة بمرض في الكبد، أشار عليها الأطباء بعلاج للبشرة، ولا شيء يدل على صحتك مثل بشرتك. . ولتكون هذه البشرة ناعمة لينة، نصحوها بأن تستحم يومياً في لبن «حمارة». . ثم في لبن الماعز وأن تضيف إلى هذا اللبن عطراً. ولما ذهبت بلقيس إلى مدينة القدس للقاء الملك سليمان أقفلت قصرها عليها أياماً. ولم يفهم الملك ذلك. ولا أحد. . ثم عرف فيما بعد أنها حشدت أطباءها وعواجيزها يسهرون ليلاً ونهاراً على جمالها. ولم يفعلوا إلا شيئاً واحداً. راحوا يدلكون بشرتها بكل أنواع اللبن والدهون والعنبر. . وهي محاولات طويلة مرهقة للكذب، فتبدو بلقيس ناعمة لامعة شابة، مع أنها مريضة تنتفض تحت جلدها خوفاً من جبروت الملك سليمان!.

فكان أول حادث كذب في التاريخ ـ كذب في شهادة رسمية. . أما

الشهاده فهي لونها البني الأسمر الأصفر الشاحب. وشفتاها الجافتان، وبشرتها المشققة!

ولا تزال كل أخوات وبنات بلقيس يكذبن حتى اليوم. . ونحب هذا الكذب!.

أما الأكذوبة الثانية فيوم قررت «كليوبطرة» ملكة مصر أن تنتحر. . وضعت كل زينتها: الأبيض والأسود والأحمر والذهبي. . وفستانها العاري ومجوهراتها. . ثم أتت بثعبان يلتف حول عنقها ويلدغها وتموت. كأنما أرادت أن تقول: إن الموت فاجأها في نصف زينتها. كأنها لم تكن تخاف الموت. . أي إنها لم تأت بالموت. وإنما هو الذي تسلل إليها. . فليس الموت ذلك الشبح المخيف، وإنما هو ذلك اللص الخائف فتسلل يسرق حياتها!.

أو كأنها أرادت. . بجمالها أن تغزو الموت. . فمات فيها الموت!

ولا شيء يدل على سذاجة «مارلين مونرو» أجمل إمرأة خلقها الله، إلا أنها كانت تتبع في حياتها أسلوباً غريباً. . فقد كانت قبل النوم تأخذ حماماً ساخناً جداً. ثم تبتلع عدداً من الأقراص المنومة، مع الويسكي لكي تنام نوماً عميقاً ـ هذا ما كانت تقوله أول الأمر. ولكنها اعترفت بعد ذلك بأن خادمتها ـ نعم خادمتها ـ قد قرأت كثيراً عن أثر المنومات والمسكرات في نعومة البشرة!.

وقرر الطبيب النفسي الذي كان يعالجها بأنها قرأت سطراً واحداً في مقال لأحد النقاد هز كيانها حتى الموت. قال الناقد: إن شحوبها المثير يزلزل الجبال!

ومنذ ذلك الحين ومارلين مونرو حريصة على أن تبدو شاحبة متهالكة، لأن هذا يثير الرجال أكثر!!

* * *

وعندما جاء المؤرخ الإغريقي هيردوت إلى مصر اندهش للألوان التي يستخدمها الفراعنة.. فقد أعجبته نقوش المقابر. أما أزياء الرجال والنساء فهي التي شغلته. فالفراعنة كانوا يرتدون الملابس النظيفة «اللامعة»..

وكانت المرأة تضع الألوان في الوجه. وكذلك الرجل. وألوان المرأة كانت بسيطة خفيفة حول العين والحاجب وفي أصابعها..

وعندما ذهب المكتشف كوك إلى استراليا سنة ١٧٧٠ بهره شيئان حيوان الكانجرو والألوان الصفراء التي استخدمها البدائيون فقد كان الأصفر درجات: أصفر فاتحاً وأصفر ميالاً للاحمرار. وأكثر الألوان من نصيب المرأة..

وأول ما شهده خريستوف كولمبوس في «كوبا» سنة ١٤٩٢ أن الهنود الحمر يسرفون في استعمال اللون الأحمر. يضعه الرجل على شفتيه قبل أية معركة أو الخروج لصيد الحيوانات أو الأسماك.

ومنذ عشر سنوات اكتشفوا في مدينة «تاتا» بالمجر صورة لحيوان الماموث، وكان لونها أبيض..

بينما الحيوانات التي ظهرت في الشرق الأوسط وعلى الجدران والكهوف والمقابر فقد اتخذت اللون الأحمر والأسود والأبيض. وكان ذلك لون الأجساد. ولون الملابس التي فوقها..

وقد درس العلماء الأمريكان والألمان قبائل «ندمبو» في شمال زامبيا. فوجدوا أن الألوان ذات قوة سحرية. أي أن ساحر القبيلة يستخدم الألوان ليحدث أثراً في جسم الانسان. فاللون ليس كلاماً يقال، ولكنه فعل السحر.. دواء.. سم.. بركة.. لعنة.. فاللون معناه تصريح بمرور الخير والشر في الجسم الإنساني.. تماماً كعلامات المرور: أحمر للوقوف وأخضر للمرور وأصفر للاحتراس..

وقد اهتدى العلماء إلى معانى الألوان عند هذه القبائل البدائية.. فاللون الأبيض: هو لون اللبن والحيوانات المنوية والصحة والقوة.. واللون الأحمر: الدم والحياة والروابط العائلية.. واللون الأسود: الليل والسحاب والموت والمرض والسحر والشر.

وعندما تكشفت لنا الحضارة الفرعونية. أروع الحضارات وأعمقها وأكملها، عرفنا معاني الألوان على جسم الانسان والمومياء والتابوت وجدران المقابر والمعابد.. فالمومياء كانوا يصبغونها بالأسود: رمز البعث والحياة الأبدية.. وكان أزوريس يتخذ لوناً أسود.. وكذلك توت عنخ آمون..

أما اللون الأخضر فلون الحياة الحيوانية والنباتية والشباب وكان جسم آمون إله السماء أزرق اللون..

أما الأصفر فهو لون الذهب ولون جسم الآلهة أيضاً. وكان لوناً محبوباً عند الفراعنة.. وبعض المؤرخين اتهم الفراعنة بالإسراف وتبديد الذهب على جثث الموتى وتوابيتهم. ولكن عرفنا أخيراً جدا، أيام رفع معبد أبي سمبل من أسفل إلى أعلى، هرباً من مياه السد العالي، أن

أجدادنا لم يكونوا يستخدمون الذهب. . وإنما كانوا قد اهتدوا إلى أن الحلبة إذا غليت مع قشر البصلَ، وظل الماء يتبخر شيئاً فشيئاً، فسوف نجد أمامنا عجينة ذهبية اللون. هذه العجينة هي التي كان يستخدمها الفراعنة ـ وليس سائل الذهب!

أما اللون الأبيض فهو لون السعادة والمرح ،ولون تاج الجنوب أيضاً.

واللون الأحمر يستخدمه الملوك، والصعاليك. إذا استخدمه الملك فهو دليل على الحياة والقوة والبطش. وإذا استخدمه الشعب فدليل على التبذل والفجور.

وكان الكاتب المصري يكتب بالحبر الأسود. . أما الحبر الأحمر فقد خصصه للألفاظ النابية والشتائم وأسماء الحيوانات مثل الكلاب والحمير. . وأسماء الأعضاء الجنسية عند الرجل والمرأة. .

وكانت الأسرة المالكة في مصر الحديثة تستخدم السيارات الحمراء، ولم يكن مسموحاً لأحد أن يركب سيارة لها مثل هذا اللون. ولكن بعد الثورة ظهرت سيارات حمراء اللون. فالشعب قد استباح اللون الأحمر. واستباح القصور الملكية، ولم يجعلها متاحف كما تفعل الدول الاشتراكية والرأسمالية ـ لقد بهدلوا اللون وداسوا التاريخ.

* * *

ومن أجمل الدراسات الحديثة عن المعنى العميق للون. لون الصبغة التي توضع على البشرة ولون الأزياء ما كتبته السيدة «كارلا ريتر» عن قبائل «تشكرين» في حوض نهر الأمازون. فقد تفرغت لدراسة قبيلة انعزلت ألوف السنين في الغابات. القبيلة تسكن قرية من الأكواخ.

يتوسطهـا بيت كبـير. هذا البيت للمتزوجـين. أمـا الشبـان الـذي لم يتزوجوا بعد. فهم يقيمون في أكواخ عند أطـراف القـرية مع الفتيات المرشحات للزواج، وهم جميعاً ينتظرون الأمر من ساحر القبيلة. فهـو الذي يختار الوقت المناسب لطلوع القمر أو غروب الشمس. فإذا تزوج الشبان تغيرت ألوان البشرة. وإذا حملت الفتاة تغير لون الشفتين. وإذا أنجبت طفلها الأول والثانى والثالث تغير لون الذراعين .. وإذا مات أحد الأطفال وإذا مات زوجها مريضاً أو قتيلاً .. لكل ذلك علامات لونية على الوجه واليدين والساقين ..

ولم تترك هذه القبائل أي أثر. . لا تماثيل ولا معابد ولا قبور وإنما القبيلة كأنها كتب متحركة أو معرضٍ للفنون الشعبية. . فمـن يريد أن يعرفها فليقترب منها أكثر ليقرأ ماذا تقول أجسامها. .

وفي القرن السابع عشر كان المقاتل الياباني يضع الأبيض والأسود والأحمر على وجهه.

وفي القـرن الثامـن عشر كان النبـلاء الفـرنسيون يضعـون كل ما تستخدمه المرأة الآن . . إبتداء من البودرة فالمسـاكراه فألـوان الأسـاس وأحمر وأصفر الشفاه. . وكذلك الكحل في العينين والشارب ـ وهـو ما يفعله الممثلون الآن!.

وفي آسيا انفرد الرهبان باللون الأصفر ـ في الملابس وفي كل أدوات حياتهـم. وكل رجـال الـدين يستخدمـون اللـون الأسـود في ملابسهم ـ رمزاً للوقار والزهد في الدنيا. .

والشعوب التي تضع موتاها في الكفن الأبيض ترتدي السواد حداداً

عليهم. . والذين يضعون الموتى في القماش الأسود، يلبسون الأبيض حداداً على أعزائهم. . والذين يحرقون موتاهم، لا يغيرون ملابسهم!

* * *

ونحن نتشابه في كل شيء: أفكارنا وعاداتنا ولغتنا. . وطعامنا وشرابنا. . وملابسنا الجاهزة وملابسنا التفصيل. . فالأفكار مصدرها: نفس الصحف ووسائل الإعلام. . ولغتنا المصرية ذات اللهجة المصرية. . لهجة أبناء القاهرة ولهجة أبناء الأقاليم. . والقماش الذي تنتجه مصانعنا. . والقماش الذي تبيعه شوارع سليمان وقصر النيل والشواربي. . ونأكل الفول صباحاً، أو نحب ذلك. . ونأكله في رمضان أو نضعه أمامنا وننصرف إلى غيره. . ونذهب إلى مسجد سيدنا الحسين، لنكمل أبهة شهر رمضان. . الخ.

ولكننا نختلف في أجسامنا. . فأجسامنا هي الشيء الشخصي الوحيد. . فكل واحد له جسم مختلف عن الآخر. . وللجسد معالم متميزة. وجسمي هو وسيلتي الوحيدة إلى معرفة العالم والتأثير فيه. . هو المرض. . هو المعمل. . هو الأرشيف وهو الملعب وهو المقبرة أيضاً. .

وأذكر عندما كنت رئيساً لتحرير مجلة «الجيل» سنة ١٩٦٠ أن جاءني أستاذنا د. لويس عوض ثائراً يقول: يجب أن توقف هؤلاء الشبان عند حد. . لقد تجاوزوا أصول الأدب والأمانة الصحفية. يجب!

فقد نشرت مجلة «الجيل» حديثاً بين المحررة «أحلام شريف» وبين صوفيا لورين. . ولم يكن حديثاً عن شخص صوفيا لورين وإنما عن جسمها ومكانتها وإثارتها الجنسية للآخرين.

أما سبب غضب د. لويس عوض فهو أن هذا الحديث قد أجراه أديب إيطاليا العظيم البرتو مورافيا مع صوفيا لورين، بطلة معظم قصصه. وقد كان حديثاً غير تقليدي. فبدلاً من أن يكون عن أسرتها وعن أعمالها، كان عن الجانب الشخصي المتميز. . كان عن جسمها. . عينيها وشفتيها ونهديها وردفيها وساقيها. .

أي أن هذه المحررة الناشئة قد نسبت هذا الحديث إلى نفسها!

ووعدته بأن أعاقب المحررة حتى لا يتكرر منها أو من غيرها شيء من ذلك. ولم يكن د. لويس عوض يعرف أن «أحلام شريف» هذه ليست إلا واحدة من الأسماء الكثيرة التي أختفي أنا وراءها: ففي ذلك الوقت كنت أكتب بأقلام مستعارة: شريف شريف ومنى جعفر وهالة أحمد!!

أما الحديث الذي أجراه البرتو مورافيا مع صوفيا لورين فكان تقريباً هكذا:

هو: وشفتاك هل هما لأبيك أو لأمك؟

هي: لأمي.

هو: وأنفك؟

هي: لأبي.

هو: وعيناك؟

هي: اليسرى لأمي واليمنى لأبي. . ولذلك فهما غير متساويتين في الاستدارة.

هو: دعيني أنا أحدثك عن الباقي. . أما وجهك فجميل. . ولكن.

لو أخذنا كلاً من ملامحه على حدة لم يكن جميلاً. . ففمك واسع. . وأنفك دقيق. وعيناك منحرفتان كأن أمك إغريقية وكأن أباك ياباني. . وعنقك طويل اسطواني رقيق: أسباني. . وصدرك إيطالي. . وساقك فرنسية. . أما هذه الرعشة في شفتك السفلى فتدل على عصبية في تكوينك. . وهي تدل على قرفك إذا تذكرت ما كان بين أبيك وأمك. . فالرجل كان يبتز مالها، وهي تبتز جسده. . وأنت كأمك تمشين على مرحلتين. . نصفك العلوي يسبقك ويجرجر وراءه نصفك السفلي. . كأنك تقدمين نهداً، وتؤخرين ردفاً. . ولا شيء يدل على التردد والجرأة، والخجل والإصرار، أكثر من ذلك. . وكل ملامحك ليست جميلة إذا نظرنا إليها واحدة واحدة. . ولكنها معاً: رائعة. . وهذا يؤكد أن الجمال مجموعة أشياء مختلفة ولكنها في النهاية مؤتلفة. . فالجمال ليس نغمة ولكنه لحن. . الجمال ليس خطا ولكنه خط وظلال. . ماذا قلت لي عن أنفك؟

هي: إنه لأمي!

هو: بل قلت إنه لأبيك. . وهذا يدل على أنه لا يعجبك. . فأنت حائرة في نسبته لأحد. . مع أن أنفك شامخ وهو مختلف عن أنف أمك وأنف أبيك. . وكأنك لا تصدقين ذلك عندما وضعت يدك سعيدة على أنفك الآن. .

دعيني ألمسها. . دعيني. .

هي: ماذا؟

هو: ألمسها. .

هي: شفتي. . عيني. . صدري؟

هو: لا. .

هي لم يبق شيء!

هو: بل بقيت أذنك التي أخفيتها تحت شعرك. . لأنك تشعرين بأنها كبيرة قليلاً. . وإنها إلى الوراء كثيراً. .

هي: هل تعرف أنك ضايقتني جداً؟

هو: أعرف لأنني أتحدث عن أخص خصوصياتـك. . عن الأشياء التي هي شخصية جدا. . والتي تختلفين بها عن كل خلق الله!

مط الشفتين
وشد الأذنين
وتصغير القدمين

أنت تبحث عن عروس. ولك صديق طيار يلف الكرة الأرضية كل يوم، والمطلوب منك أن تدله على «مواصفات» بنت الحلال. وأنت لم تجد ما تقوله. ولذلك اخترت بعض الكلمات من قصص «ألف ليلة وليلة». وكتبتها على ورقة. وتركت له حرية الاختيار فكان قبل أن يهبط أية مدينة يخرج الورقة ليقرأ. وبعد أيام عاد إليك دون أن يعثر على فتاة أحلامك. لماذا؟ لأن الصفات التي جاءت في الورقة من الصعب العثور على صاحبتها في أي مكان. أما الورقة فتقول:

«رشيقة القد، قاعدة الهند، لها عيون الغزلان، وحواجب كهلال شهر رمضان، وخدود مثل شقائق النعمان، وفم كخاتم سليمان، ووجه كالقمر مدور، وبطن كالعجين مخمر، وسيقان سبحان من صور. .الخ» أما لماذا لم يجد هذه العروس، فلأن الجمال نسبي. فالذي نراه فاتناً، لا تراه شعوب أخرى. فالمرأة في الهند تعري بطنها وتغطي كتفها. وفي هونغ كونغ تشق فستانها لتظهر ساقها، وتداري صدرها الصغير. .

وقد حاول الرحالة ابن بطوطة أن يقنع إحدى زوجاته من جزر المالديف بأن تستر بطنها وصدرها فلم يفلح. ويصفها بأنها «تتعرى من سرتها حتى غرتها»!

وكما أن الإنسان حاول أن يقول كلاماً كثيراً عندما راح يصبغ جسمه، فإنه مرة أخرى قال كلاماً أوضح وأعمق عندما لجأ إلى «الوشم» - أي صبغ الجسم صباغة أعمق وأثبت، مستخدماً الإبر والمسامير.

أما صورة الإنسان، أو الإنسان كما يبدو لنفسه ولغيره فقد طورها وصورها كثيراً ولا يزال. وكان هذا التغيير من علامات قوته وحريته. فالإنسان يرفض أن يستسلم لهذا الجسم الذي يعيش به وفيه، دون أن يدخل عليه التعديلات التي تحتمها الرغبة في الامتياز عن الآخرين، فيبدو أجمل وأقوى..

(ونحن في العصر الحديث نفعل ذلك بأجسامنا، وبكل ما نملكه من الأشياء المتشابهة: المساكن الشعبية والسيارات.. فالسيارات من ماركات متشابهة. ولذلك فصاحب كل سيارة يفعل بها ما يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى. كأن يضع عليها علامات من الخارج والداخل. ويعلق في سقفها عرايس وحيوانات ومسابح بما يدل على أنه ليس كالآخرين. ويكتب عليها أسماء الأغاني وأسماء أولاده ورأيه في عيون الناس.. ثم إنه أيضاً يختار لها رقماً جذاباً.. والمعنى: إنه ليس سلبياً.. وإنما له رأي.. له إرادة.. مختلف عن الناس.. وكذلك حرصه على اختيار أرقام للتليفونات جذابة.. أو موسيقية..).

ومنذ أكثر من ٢٥ ألف سنة دلت الآثار على أن الإنسان استخدم «الوشم».. فظهرت علامات هندسية على جوانب من الوجه والذقن.. وهذه العلامات على الذقن تشبه التي تستخدمها نساء البربر في المغرب والجزائر وبدو الصحراء الغربية. فالمرأة تضع خطوطاً زرقاء على الذقن.

كما أن المرأة البربرية تستخدم الكحل. وتضع نقطة سوداء عند جانب من العين. . وظهر الوشم الأحمر أيضاً، استخدمته المرأة على خديها. وقد حرصت المرأة على ذلك ألوف السنين. ولكنها اختفت دون أن تترك لنا تفسيراً لذلك!

وفي قبائل «الماوري» في جزيرة نيوزيلند، نجد المرأة قد استخدمت الوشم في أماكن كثيرة من جسمها. على شفتيها ونهديها وفي أماكن عميقة من ساقيها. . أما الرجال فكان الوشم عندهم على الكتفين. مثل الشرائط والنجوم والنسور التي يضعها الجنود والضباط ـ دليلاً على المكانة الاجتماعية وعلى سلطة القبيلة. .

وفي اليابان وحتى القرن السابع عشر، كانت المرأة تضع الوشم على جانبي العين والشفتين. والمعنى: إنها لا ترى إلا زوجها ولا تكلم سواه. وأحياناً يكون الوشم على شفتها العليا كما لو كان شارباً. وفي ذلك دلالة على استقامتها وصلابتها. .

وكانت بنات «الجيشا» يكتبن أسماء العشاق على الساقين. دليلاً على أن كلا منهن اختارت رجلاً واحداً مدى الحياة. وفي قصص «الف ليلة وليلة» كانت الغانيات يكتبن ما يردن أن يقلنه للرجال على ملابسهن. ولذلك نجد مثل هذه العبارة: «ولما كشف عن سروالها وجد بيتاً من الشعر مكتوباً على «تكتها» هذا نصه: «الخ».

وفي الحرب العالمية الثانية كنا نرى القوات البريطانية في مصر وقد ظهر الوشم على الذراع والصدر لجنود استراليا ونيوزيلند. . وبعض القبائل الأفريقية وبسبب سواد البشرة. لا يستخدمون الوشم. وإنما

يلجأون إلى «تشريط» الوجه بعلامات طولية أو عرضية . . وكل علامة لها دلالة خاصة على القبيلة وعلى المكانة الاجتماعية . .

وفي العصور الوسطى كان الألمان يتباهون بالجروح الظاهرة في الوجه دليلاً على أنهم اشتركوا في مبارزة بالسيف، ثم انتصروا فيها! ومن مظاهر التغيير ما يطرأ على: الأذن . . ففي أواسط أفريقيا نجد أن الأذن الكبيرة من معالم الجمال والدلال. ولذلك فالطفل وهو صغير يعلقون في أذنه حجراً أو قرصاً من الحديد. فتتدلى الأذن على الكتف . . ثم ثقبت المرأة أذنيها لتضع الأقراط المعدنية والذهبية والماسية . .

وقد عادت المرأة الغربية إلى ثقب أذنها مرة أخرى ابتداء من سنة ١٩٦٥ ، وكانت قد عدلت عن ذلك زمناً طويلاً.

ثم وجدنا الرجال يثقبون أذناً واحدة للدلالة على أنه قرصان أو قاطع طريق . . أو أنه شاذ جنسياً. وإنه يريد أن يعترف، وأن يعلن للناس ذلك. ولا يهمه ما يقال عنه.

وكذلك: الأنف . . في الدراسات الممتازة التي خلفتها لنا العالمة الأمريكية «مرجريت ميد» نجد أن بعض قبائل جزر المحيط الهادي ترى القوة الجنسية لصاحب الأنف الطويل . أو أن إطالة الأنف تقوي جنسياً. ولذلك كانوا يشدون الأنف إلى الأمام، حتى يصبح منقاراً.

والشاب عندما يخطب عروسه. يجلس إلى جوارها، وعلى إيقاع الموسيقى ودق الطبول ونشوة الخمر، يقترب أنفه من أنفها . . ويتلامسان ساعات طويلة حتى لا يكون أمامهما إلا حل واحد هو الزواج فوراً.

ولابد أن يشعر بالعار كل من يجد أنفه صغيرا ـ فذلك هو غضب السماء ـ والمعنى الحزين أنت تعرفه.

والشفتان . .

وابن بطوطة يقول لنا إنه رأى في جزيرة سيلان رجالاً كالكلاب. الشفاه مطوطة إلى الأمام. فعند بعض القبائل الأسيوية والأفريقية لابد من شد الشفتين إلى الأمام مدى الحياة. حتى تصبح الشفتان مثل منقار البطة. ويصبح من الصعب عليه أن يأكل أو يشرب واقفاً أو جالساً. وإنما نائم . . ولذلك كان الزواج ضرورياً. وقبل أن يزف العريس إلى عروسه، لابد من شد الشفتين والأذنين والأنف ووضع الشطة في فمه لتتورم شفتاه ولسانه. ويرون ذلك ضرورياً لليلة سعيدة ـ وهي لا تنتهي عادة كذلك!

وفي القرن التاسع عشر في أوروبا ظهرت موضة الشفاه الممتلئة، دليلاً على الحيوية والإثارة الجنسية . . وتغنى الشعراء بالشفاه الدافئة . . وفي القرن العشرين مع ظهور مارلين مونرو، كانت الشفاه الغليظة هي هدف العيون والشفاه . . وفي مصر كانت الممثلة «كاميليا» نموذجاً لذلك. وقد حرصت كل نجوم السينما على تغليظ الشفاه بمطها إلى الأمام أو برسمها بالروج لتبدو كذلك!

والأسنان . .

وقد رأيت في أندونيسيا والفلبين الرجال وقد خلت أفواههم من الأسنان. فهم يعتقدون أن الشياطين تسكن بين الأسنان. ولذلك وسعوا المسافة بين الأسنان حتى تتساقط الشياطين. وعندما وسعوا بين

الأسنان أزالوا طبقة «المينا» التي تحمي الأسنان من التسوس. وقبل ذلك أزالوا الأسنان التي في مقدمة الفك. لأن الفم الكامل الأسنان يبدو كفم الحمار! أما الأسنان البيضاء فيرونها تشبه أسنان الكلاب. . ولذلك كان لابد من صبغها باللون الأحمر في الهند وباكستان أو اللون الأسود في أندونيسيا واليابان. أو باللون الأبيض للمرأة بصفة خاصة تكريماً لها. أما الحقيقة العلمية فهي أن سوء التغذية ونقص الكلسيوم أدى أيضاً إلى اصفرار الأسنان وسقوطها. .

ففي اليابان كانوا يصبغون أسنان الموتى والشهداء احتراماً لهم. وفي كينيا لا تهتم قبائل المأساي بالأسنان لأنها لا تحتاج إليها. فهم يعيشون على شرب اللبن والدم. فالأبقار تظل في المرعى وهم يرضعون أثداءها. ثم يجعلونها تنزف دماً ويشربون الاثنين معاً. ويغطون مكان النزيف بالعجائن النباتية.

وبعض النبلاء في اليابان والصين كانوا يضعون الأحجار الكريمة بين الأسنان. . تماماً كما يلجأ بعض الرجال والنساء الآن. إلى أن تكون لهم أسنان من ذهب أو من بلاتين، تلمع في أفواههم عند الكلام ـ كأنه نوع من الابتسام الدائم! ومنذ عشرين عاماً رأيت في مدينة كيوتو إحدى فتيات الجيشا ولها أسنان واحدة من فضة وواحدة من ذهب ـ وكان ذلك أقبح ما في وجهها إذا تجاوزنا عن الأبيض والأحمر والأسود على خديها وكذلك رائحة البصل التي تفوح من اللحم البارد الذي تقدمه مع عميق الانحناء. وعظيم الاحترام، وبالغ الأدب!

والقدماء. .

وقد انفردت الصين بهذه البدعة «الجمالية» فالفتاة يجب أن تكون صغيرة القدم. والقدم الجميلة هي التي تملأ كف الرجل، فكان العريس إذا ذهب يخطب فتاة، أجلسوها وراء ستار. وأخرجوا قدميها من القالب الحديدي ويمسك العريس قدمها في كفه. وهي عبارة عن كتلة مشوهة من اللحم والعظام المتداخلة.

فإذا أعجبته دغدغها قليلاً. فتضحك العروس وأمها والأسرة وتعيد الفتاة قدميها إلى القالب الحديدي. ويتم الزواج.

والفتاة ـ عادة ـ لا تكون قادرة على الحركة. وانعدام الحركة دليل على الرفاهية. . فالحركة عند بنات الذوات: ترف. ولكن الحركة ضرورة حياة عند العاملة والفلاحة.

والرأس. .

وقد حرصت القبائل البدائية وكل الحضارات القديمة على تشكيله بما يتفق مع مقاييس الجمال، والسلم الاجتماعي. يجعلونه مستديراً ومربعاً ومستطيلاً ومدبباً. وكل شكل له معنى.

ورأس الملك توت ـ عنخ ـ أمون وضع هو الآخر في الأقمشة والأربطة ليتخذ هذا الشكل البيضاوي. وكان ذلك هو الشكل الذي يليق بالملوك والنبلاء. أما الإنسان الذي يترك رأسه كما ولد به، فهو الذي لا يملك حولاً ولا قوة. . لأنه يتقبل كل شيء كما هو دون أن يملك القدرة على تغييره أو التدخل في مساره!

وقد تحدثت الأستاذة مرجريت ميد عن قبائل في المحيط الهادى ،

تشد رأس الطفل إلى الوراء منذ ولادته. ويكبر مشدود الرأس، شاخص العينين إلى السماء. إذن فلقد اختارته أمه وأبوه ليكون كاهناً أو ساحراً. ولذلك جاءت نظرته السامية المتعالية على الناس والأشياء!

والنهدان..

هما ضرورة الأمومة ومعالم الجمال والأنوثة والإثارة. وفتاة بلا نهدين مثل سرير بلا مخدات. والمرأة في كل التاريخ، ترى أن ضمور النهدين عيب خلقي. وأن تضخمهما أيضاً ولذلك فهي حريصة على استدارتهما وحيويتهما. وكانت الملابس القديمة تخفيهما تماماً. وقد حدثنا رفاعة الطهطاوي عن المرأة الفرنسية كيف أنها تضع عوداً من الحديد في صدرها ليرفعه إلى أعلى وإلى الأمام.. واستخدمت المرأة السوتيان الجاف، ثم السوتيان المطاط الذي يجعل النهدين يترجرجان، ويعلوان ويهبطان.. واستخدمت المرأة «الكورسيه» في نفس الوقت ليخنق خصرها، ويبرز نهديها وردفيها أيضاً..

ولم يفلح الأطباء في إقناع المرأة بأن الكعب العالي ضار بالعمود الفقري والمخ، وأن الكورسيه ضار بالمعدة والأمعاء. وأن السوتيان ضار بالرئتين. ولكن المرأة اختارت الرشاقة والجمال مهما كان الثمن ـ والثمن من مال زوجها ومن صحتها.

وفي الأساطير الإغريقية أن النساء ثرن على الأنوثة وضعفها. ولذلك قطعت النساء أثداءهن ـ بنات الأمازون ـ حتى لا يحملن ولا يرضعن ولا يلدن.. ويتفرغن لقتال الرجال!

ومنذ سنوات سارت المظاهرات في نيويورك. ومشت المرأة عارية

النهدين، احتجاجاً على ظلم الرجل الذي يعطيها حقوقاً أقل، لأنها امرأة. فكشفت المرأة صدرها بما معناه: إذا كان الصدر هو الذي تريده، فإليك عارياً في متناول أي أحد.. لأنه لم يعد يهم المرأة. فالمرأة لا تعيش بثدييها، ولكن تريد أن تعيش بإنسانيتها بكرامتها بمساواتها بالرجل!

ومن عشرين عاماً اتجهت العيون إلى صدر الممثلة «جين رسل» الذي أمنت بالملايين على جماله وشبابه.. ومنذ ذلك الحين، والكاميرات حائرة في التقاط الزوايا والظلال لأكبر وأجمل الصدور: جينا لولو بريجيدا وسيلفانا مانجانو وصوفيا لورين.. أما بريجيت باردو فقد رأت الأديبة الوجودية سيمون دو بفوار أن حب الناس لها دليل على فساد ذوق الرجال، وعلى شذوذهم الجنسي أيضاً. فهذه الفتاة تشبه «غلاماً» ولا تشبه الأنثى. ولذلك فجنون الرجال بها دليل على انحرافهم الجنسي.. فهي طفلة الوجه، ساذجة الفم، تلميذة الشعر، مختصرة الصدر، غلام بعد ذلك!

والأديب الفرنسي جوستاف فلوبير عندما كان في قنا في نهاية القرن الماضي رأى الفلاحة المصرية تملأ البلاص من النيل ثم تقف مشدودة القوام، بارزة الصدر فقال: لو لم يكن هنا نيل لخلقته المرأة المصرية. فهو يعطيها فرصة نادرة لكي ترفع رأسها وتشد عنقها. وتبرز صدرها ـ وهو ما لم تعرفه الفرنسيات اللاتي يعشن على ضفاف نهر السين!

* * *

والذي تفعله القبائل القديمة، بأساليب بدائية، ما زلنا نعمله ولكن بأجهزة حديثة متطورة. فكل عمليات التجميل للوجه والأنف والعينين

والنهدين والردفين والفخذين، تتم بعناية فائقة. بينما مثل هذه العمليات كانت تؤدي إلى الوفاة. فالطهارة مثلاً، والتي بدأت عند الفراعنة، ثم عند اليهود وفي الجاهلية قبل الإسلام، كانت من علامات الشجاعة. فقد كانت مؤلمة، ثم إنها كانت تؤدي إلى الوفاة. بسبب استخدام سكاكين غير «معقمة» وأجدادنا الفراعنة كانوا يرون في الطهارة نوعاً من النظافة الصحية، واليهود رأوها وفاء بالعهد الذي قطعوه على ربهم، بتضحية بجزء من جسم الإنسان نيابة عن بقية الجسم. . وكانت القبائل القديمة تزيل كثيراً وعميقاً عند طهارة المرأة!

* * *

وعلى الرغم من براعة الجراحين في تدوير النهدين وتكوير الردفين وسحب الفخذين، فإن هذه العمليات ما تزال خطرة. . كما أن إدخال بعض المواد تحت الثدي ليبرز أكبر قد أدت إلى الإصابة بالسرطان ـ فايزة أحمد مثلاً ـ وأخريات شفاهن الله.

والتخسيس الذي هو «نحت» للجسم الإنساني لإزالة الشحم واللحم يفرض على الرجل والمرأة الجوع والحركة العنيفة وتعاطي ما يسد الشهية ويقلل النوم ويفرز العرق ويدر البول، وهو مجهود شاق عنيف وخطر أيضاً.

ومادة «الأمفيتامين» المستخدمة في كل حبوب وأقراص التخسيس، خطر على القلب وعلى الجهاز العصبي وعلى المخ. . ولكن أحداً لن يتوقف عن إعادة تشكيل جسمه ليكون قريباً من «الصورة» التي يتخيلها لنفسه وخاصة المرأة. فالمرأة تفضل أن تموت غزالاً، على أن تعيش فيلاً!

زمن
الألف قناع
لكل وجه!

أنت ذو وجهين ـ آسف وأنا أعتذر عن أن لك وجهين فقط! فالإنسان له ألف وجه. لأن الميت هو الذي له وجه واحد أو ملامح ثابتة كأنها قناع على وجهه. وهذا هو الفارق بين البحيرة الراكدة والنهر المضطرب الأمواج والأسماك وانكسارات الضوء. وقديماً قال فلاسفة الإغريق: إنك لا تنزل النهر مرتين.. أي إذا نزلته في المرة الثانية فهو قد تغير عما كان عليه في المرة الأولى كيف ذلك؟ فأنت لك وجه وأنت تتحدث إلى ابنك وإلى والدك وإلى أمك وإلى زوجتك وإلى رئيسك وإلى خادمك.. وأنت فرحان وأنت غضبان وأنت زهقان قرفان وأنت شبعان وأنت في حالة أرق وقلق، وأنت إذا ذهبت لتنام، وأنت إذا نهضت لتنام.. فكل حالة لها ملامح على وجهك ولها نفس الملامح على جسمك وغددك ووظائف الجسم..

وفي سنة ١٩٥٩ ذهبت لأقابل مارلين مونرو. وظننت أول الأمر أن هذا شيء سهل. وهو بالفعل كذلك. جاء مدير أعمالها وسألني: ماذا تريد منها؟ قلت: أراها. فسألني: وما الذي تريد أن تراه منها؟ قلت: كلها.. سألني: وفي أية حالة؟ قلت: لم أفهم.. قال أعرف أنك تريد أن تراها كلها.. بملابسها.. عارية.. نصف عارية؟؟

ولم تشجعني لهجته الساخرة بصحفي صغير مثلي جاء من هاواي في

طريقه إلى أوروبا فتوقف في أمريكا لكي يرى مارلين مونرو التي لم أر كل أفلامها، والتي كانت ممنوعة في ذلك الوقت في مصر لأنها تزوجت الكاتب اليهودي الشيوعي آرثر ميللر. . وعاد يسألني: تريد أن تراها في أية حالة؟ قلت: على أية حالة، فأجابني بصورة نهائية قاطعة: ممنوع أن تصورها. . سوف نبعث لك بالصور التي تريدها. . فما هي الصور التي تريدها. . هل تريدها تبكي. . تضحك. . ترقص. . تغني. . تحب. . تكره. . ماذا تريد. . بسرعة. . لا تضيع وقتي.

فقلت بسرعة. . وهي تضحك لأن لها وجهاً جميل العينين والشفتين والأنف والجبهة والأذنين والعنق. . .

فقاطعني مدير أعمالها وكأنني طفل دخل قاعة العمليات خطأ في كلية الطب: تريدها تضحك. . هناك ألف نوع من الضحك. . تضحك. . لأنها قابلت صديقاً قديماً. . عشيقاً. . لأنها قابلت حماتها. . أمها. . لأنها كسبت مليون دولار. . لأنها كسبت دولاراً واحداً. . تضحك بصورة هستيرية لأنها خسرت كل ثروتها. .

فكل حالة من حالات الضحك لها ملامح. . أي لها صفات ثابتة معروفة تظهر على الوجه، كأنها «قناع» من الحركات والألوان والظلال!

فالحياة مسرح، ونحن جميعاً ممثلون على هذا المسرح وفي أدوار مختلفة، بعض هذه الأدوار مناسبة لنا، وبعضها فرضت علينا. . وقد نفشل في الأدوار المناسبة، وننجح في الأدوار غير المناسبة، وأناس يظهرون بسرعة. ويختفون أسرع. . وأناس يموتون على المسرح.

* * *

ولـم يكن من السهل على الإنسـان في تاريخ تطـوره الطـويل، أن يعبر عن كل هذه المعاني المتداخلة بدقة. ولذلك كان يضع على وجهه القناع المصنوع من الجلد أو الخشب أو الـورق ليدل على هذه المعانـي والوظائف. فالقاضي له قناع والساحر له قناع، واللص وشيخ القبيلـة والسعيد والتعس والمريض. . وقد رأينا هذه الأقنعة على جدران المعابد والكهوف من عشرات ألـوف السنين. . ولهـا ألـوان مختلفـة وأحجـام أيضاً. .

ولابد من البحث عن القبائل البدائية، أي التي لـم تتغير عاداتها ولم تتطور بعد. ففي إحدى قبائل ساحل العاج نجد أن القناع له وجهان: واحد حزين وواحد سعيد. . فإذا دار الحوار بين اثنين وضع كل منهما قناعاً. فيكون رد الفعل بالقبول والرفض هو القناع. فإذا ظهر الوجـه السعيد كان معناه الموافقة والقبول. . وإذا كان الوجه الآخر، فالمعنى: لا. .

وهي صورة بسيطة جدا لنوع الـكلام والحـوار الصريح: نعـم. . لا. . فلم تعرف هذه العقول البدائية: الدرجات التي لا نهاية لها بين القبول والرفض. . لا يعرفون: ربما. . يجوز. . ممكن. . مستحيل. . إلى غد. . أعطنـي بعض الوقـت لكي أستشـير ـ لا شيء من ذلك. فالرفض جاهز، والقبول أيضاً!

وفي القبائل البدائية في جزيرة إيريان الأندونيسية أن شيخ القبيلـة الذي اتخذ قناعاً واحداً متجهماً يدل على قوته وسطوته. . وإذا جلس بين زوجاته أو بين أولاده أو بين أفراد قبيلتـه، نجـده يخلـع القنـاع كأنـه

جزمة. . وإذا ذهب إلى معشوقته، وللدلالة على أنه تحرر من أعباء الملك، فإنه يرقص كما ترقص النحلة عند مدخل الخلية. . تماماً كأنه «سي السيد» في روايات نجيب محفوظ. . فسي السيد جاف جاد مع زوجته وأولاده فإذا ذهب إلى أماكن الحظ والفرفشة، فهو شاب مراهق، يرقص ويغني ويبوس القدم دون ندم، فإذا عاد إلى بيته، ارتد عن كل ذلك، ووضع على وجهه وعلى كل حركاته قناع وسلاسل شيخ القبيلة.

حتى الإغريق الذين هم أكثر تحضراً وأعظم عمقاً، استخدموا القناع الخشبي أو الورقي أو الجلدي على الوجه للدلالة على أدوار الممثلين على المسرح. . فهناك قناع يبكي أي أن الممثل تراجيدي. . وهناك قناع يضحك، أي أن الممثل كوميدي. . وأقنعة الشر وأقنعة الغضب وأقنعة القوة والسلطة. . وبذلك يستطيع المتفرج من أول لحظة، أن يعرف ما هي الأدوار أو «الشخصيات» التي يمثلها هؤلاء الناس. .

وكلمة «برسونا» الإغريقية معناها القناع، ومعناها الشخصية أيضاً. . لأن شخصية أي أنسان: هي مجموعة الصفات الثابتة. أن السلوك الواحد في المواقف المختلفة. فنقول: فلان كريم. . وفلان صبور. . شجاع. . رحيم. . عنيف. . سخيف. . أي أن هذه هي الصفات التي تغلب على سلوكه. . أو التي نتوقعها عند المواقف أو الظروف المتغيرة. . أما الإنسان الذي لا شخصية له، أي الذي لا نعرف له موقفاً واضحاً ثابتاً، فهو مرة بخيل وهو مرة كريم، وهو مرة لطيف وهو مرة عنيف. . ولذلك لا نشعر بالارتياح له أو معه لأنه لا يمكن التنبؤ بخطوته التالية!

وفي اللغة العربية تقول: الشخصية أي الـذي يبـدو من الإنسـان عندما يكون بعيداً عنا. . أي المساحة القائمة من الجسم فلا تظهر منه إلا صفة واحدة. . إنه جسم وإنه ظلال. .

و «الشـخص» هو كل شيء نرى جثمانـه من بعيد و «الشخـوص» معناها الذهاب من بلد إلى بلد. . وفلان له نظرة شاخصة: أي نظرة ثابتة دون أن يتحرك جفنه، تماماً كأنه ميت. . ويقال: شخص صوته: أي ارتفع ولم يعد قادراً على أن يجعله ينخفض أي أن صوته ظاهر، وإنه قد ثبت على هذه الطبقة العالية.

وقد بلغ من دقة المؤلف عند الإغريق،أنه كان يطلب إلى الممثل أن يقرأ الدور. وأن يفهمه. وأن يحرص على أن يعرض على الناس كل هذه المعاني. والغريب أن الممثل كان يضع قناعاً على وجهـه. أي أنـه كان مطلوباً منه أن تكون لوجهه تعبيرات خاصة رغم أن القناع يخفي ذلك. أي أن المطلوب منه هو أن يندمج تمامـاً، بوجهـه الـذي لا نراه وبيديه وذراعيه وحركاتها التي نراها.

وهو أصعب كثيراً مما يفعله الممثل في العصر الحديث. ومن الأمثلة التي يدرسها الطلبة في المسارح الإنجليزية ما الذي فعله الممثل الكبـير سير لورانس أوليفيه عندما قام بدور «الإمام المهدي» البطل السوداني في فيلم «الخرطوم» يقولون إنـه ذهـب إلى السـودان ومشى في شوارعهـا. وعايش الشعب السوداني. ولما لاحظ المخرج أن سير لورانس يتحـرك بسرعة دق إحدى قدميه فأوجعه حتى ظل يعرج أياماً. . ثم دق قدمـه الأخرى ليكون أبطأ في حركته. وجعله يرتدي حذاء ضيقاً. . ولف حول

ساقيه شريطاً من المطاط فتكون له خطوة قصيرة هادئة. ثم ألصق على جانب من وجهه قطعة من المطاط حتى لا تتحرك إحدى شفتيه أكثر من الأخرى.. ثم ألصق خيطاً من المطاط حول عنقه.. ولما التقطت له الصور: لم يسعد المخرج بها.. وطلب منه أن يسافر إلى الخرطوم، وأن يعيش أياماً تحت اسم مستعار.. ولما ثبتت كل صفات القناع على وجهه بدأ التصوير لدور رائع لهذا الممثل الكبير!

وأذكر أنني شاهدت في هوليوود تصوير فيلم من بطولة «ناتالي وود».. المنظر: إنها ترقص مع آخرين.. وهي ترقص لمحت عشيقاً قديماً، ولأنها كانت مخمورة، فقد ألقت نفسها عليه وراحت تقبله. وفجأة صرخ المخرج: يا حمارة يا بنت الـ:

وتوقف الرقص وإذا المخرج يقول لها: لا تنسي أنك مخمورة.. وأنك أقصر منه.. وأنه ليس من السهل أن تصلي إلى شفتيه إلا إذا وقفت على أطراف أصابعك.. ولأنك مخمورة يمكنك أن تقبلي يديه أو حتى قدميه.. ولكنك وصلت إلى شفتيه بسرعة.. ثم إنه حمار. أيضاً لأنه نسي كل هذه المعاني وراح يقبلك.. لا تنسي أنه شخص كريه وأنه ابتز أموالك.. وأنه كان سبباً في إجهاضك.. وضياع ثروتك.. وأنه إنسان سافل لأنه قدمك عشرين مرة لأصدقائه مقابل دين في القمار.. أريد أن أرى هذه المعاني الحقيرة على وجهك الجميل!

وأعيد هذا المشهد عشر مرات، مع التغييرات المناسبة في الألفاظ!

أما الغلط فهو أنها نسيت هذه المعاني كلها، أي نسيت ملامح القناع المطلوب، وارتجلت موقفاً عاطفياً جنسياً من عندها!

وربما كانت اليابان وكوريا، أكثر الدول حرصاً على استخدام الأقنعة حتى الآن. . ليس على المسارح فقط، وإنما في المناسبات الدينية والقومية. ففي المناسبات الدينية يرتدون أقنعة لتخويف العفاريت وطرد الشرور من البيت، من بيت الميت، من بيت العريس، ومن بيت الطالب الناجح والعضو الذي فاز في الانتخابات. .

وكان الكهنة البوذيون يرتدون الأقنعة للدلالة على الزهد في الدنيا. ثم عدلوا عنها. فقد تكفلت وجوههم بذلك تماماً. . فالراهب البوذي يتدرب على الجلوس دون حركة، وعلى الوقوف إلى جوار شجرة كأنه شجرة. لا شيء يبدو على وجهه أو على عينيه أو شفتيه. لقد استطاع أن يتحكم في ملامحه وأن يثبتها تماماً. وثبات الملامح معناه أنه لا يبالي بما يدور ويجري حوله، كأن الدنيا ماتت مثله تماماً.وفي ذلك احتقارها ولا مبالاة بها. . وبعض المذاهب البوذية تطلب من الراهب أن يرفع ذراعه الأيمن أو الأيسر ممدوداً إلى جواره مدى الحياة. . وبذلك يعطل نصف نشاطه. . أو يترك أصابع يديه منفرجة، وبذلك يعجز عن أن يمسك بها أي شيء. . لأنه لا يريد من دنياه شيئاً. . وهكذا يتعود الراهب على اتخاذ السلوك الواحد، تأكيداً لشخصه الزاهد. . فلا يكون الوجه فقط هو الثابت الملامح، وإنما كل الجسم أيضاً. .

وفي هذه الأيام يرتدي الناس الأقنعة في المظاهرات، احتجاجاً على الدولة. وتكون الأقنعة لها شكل الموت. . احتجاجاً على استخدام الأسلحة النووية التي تهدد الإنسانية. . واحتجاجاً على الظلم السياسي والقهر الاجتماعي. .

ومن الغريب أن قناع الموت هذا كانت به أسنان ذهبية، وكانت به عيون من الخرز وقد تعلقت منه السكاكين والسيوف وبعض الأدعية ـ أي إنها جميعاً تحتمي بهذا القناع المخيف.

ومن أشهر أساطير ساحل العاج أسطورة اسمها «نابليون القديم». . الأسطورة تحكي قصة ملك جبار عنيف لا يضحك أبداً شد على وجهه قناعاً من الجلد المتين. لم يره أحد يأكل أو يشرب أو ينام ولا حتى زوجاته وأولاده. ولذلك اقتنع الناس في ذلك الوقت أنه يشرق في الصباح مع الشمس، ويغرب معها. . أي يعيش بعيداً عن هذا العالم لأنه إلـه. . وكان لهذا الملك إخوة كثيرون. وكان له سلوك غريب معهم. . هذا يضربه وذاك يقبله. . والثالث يطرده والرابع يعانقه والخامس يضعه تحت قدميه والسادس يأمر بإغراقه في الماء وإخراجه بعد ذلك. . ولكن واحدة من إخوته هي التي كان ضعيفاً أمامها. تفعل ما تشاء ولا يملك إلا طاعتها. . ومات الملك وكل إخوته، وبقيت هذه العلاقة بين الملك وأخته لغزاً. . حتى تكرر ذلك في القرن التاسع عشر بين الأمبراطور نابليون وإحدى أخواته. كانت مدللة منحلة وكانت عشيقة لكل الوزراء وكل ضباط القصر. . وكانت عشيقة جاسوسة للأمير مترنيخ وزير خارجية النمسا وأحد أبطال «الوفاق» بين القوى المتصارعة والمثل الأعلى لكسنجر بعد ذلك. . ففي يوم من الأيام سمعت أخت نابليون أن أخاها سوف يجري تعديلاً وزارياً، وأن عشيقها سوف يخرج من الوزارة فأسرعت إلى مجلس الوزراء، واقتربت من أخيها وعانقته وقبلته فقال لها غاضباً: هه. . وماذا تريدين مني اليوم!

فأجابت: هل هناك تعديل وزاري؟

وكان رد نابليون صارخاً: وماذا يهمك. . سوف آتي لك بعشاق جدد!

وفي قبيلة «تام تام» في تنزانيا لا يحق للملك أن يحرك القناع من فوق وجهه، ولذلك يقف إلى جواره شخصان يمسكان القناع. . لأن اهتزاز القناع مثل اهتزاز العرش من تحت الملك، دليل على الضعف أو الخوف. ولذلك فالملك يأكل ويشرب في الظلام. . واللذان يحرسان القناع هما اللذان صنعاه. . فإذا سقط القناع لأي سبب، كأن يتآمر عليه هذان الإثنان، لم يعد ملكاً. ويتقاتل الإثنان، حتى يتخلص أحدهما من الآخر فيكون ملكاً. وإذا حدث أن تشاجر هذان الإثنان ومزق أحدهما ملابس الآخر أو كسر ذراعه أو ساقه فالملك يجب أن يحكم القبيلة وهو على الهيئة التي انتصر بها. . فلا يعالج أحد ذراعه أو ساقه أو يضع عليه الملابس وإنما يبقى على ما هو عليه!

وقد سخر الكاتب السويسري ديرنمات من هذه العادة القديمة، ورأى أننا في العصر الحديث لم نبعد كثيراً عنها. . ففي مسرحيته التي ترجمتها له بعنوان «سلطان زمانه» كان الملك يجلس على العرش ويضع تحت قدميه الملك السابق، وينص الدستور على أن هذه الهيئة يجب أن تكون ثابتة لا تتغير فيأكل الملك ويشرب وينام - إن استطاع - جالساً على العرش ورجله فوق رقبة سلفه العظيم. . ولذلك فالملك يسقط من فوق العرش، من شدة التعب والأرق والجوع، وينتصر الملك الذي كان تحت قدميه ليحكم وحده حرا بعد أن مات خصمه.

* * *

وعند قبائل «الطوارق» في الصحراء الغربية نجد الرجال هم الذين يضعون «البرقع» الأسود وقد دهنوا وجوههم باللون الأزرق. . ولذلك يسمونهم الرجال الزرق. . إما لأنهم يضعون هذه الصبغة، وإما لأن كلمتي الأزرق والأخضر تدلان على أنه ليس أسود تماماً وإنما فاتح اللون. . فهو أسود فاتح أو هو أسمر أو هو أبيض داكن. . أما المرأة فهي مكشوفة الوجه. . أما لماذا يخفي الرجل فمه وأنفه ويكشف عينيه؟ فهناك اجتهادات كثيرة من بينها أن العينين لا تدلان على بقية الوجه، بينما الشفتان والأنف بالغة الدلالة. ومن بينها أن الرجل لا يتكلم عادة، وإنما زوجته التي تعمل وتشقى هي التي تقف إلى جواره تجيب عن كل الأسئلة التي يوجهها أحد إلى زوجها. . فالزوج يحرس الخيمة ويرعى الإبل ويتولى تربية الأطفال، أما الطعام فمن مهام الزوجة. فلا رأي ولا سلطان له!

. ومن التفسيرات أن الرجال قد سقطت أسنانهم وإنهم قد صبغوا شفاههم باللون الأزرق وأنوفهم باللون الأسود، وإنهم يخفون السكاكين حول أعناقهم. . فهم في حالة تحفز إذا جاء الخطر ـ صاحبة هذا التفسير هي السيدة جابر بيله كارمينو، أستاذة الدراسات الإنسانية في جامعة روما. . والتي أقامت بين الطوارق وتزوجت أحد شيوخها. .

* * *

وعندما ذهب الأمير فيليب زوج ملكة بريطانيا إلى كينيا شاهد عرضاً مسرحياً تقوم به إحدى القبائل. فضحك لمشهد واحد ـ كان هو والأطفال يضحكون. أما بقية المشاهدين، فقد شاركوه مجاملة له. ولم يكتف بذلك بل قال: ولكن هذا ما نفعله هذه الأيام.

أما المشهد الذي أضحكه فهو أن أحد رجال القبائل قد وضع القناع مشدوداً على وجهه، وراح يتحرك أمامهم في خط مستقيم، فكان يصطدم بالناس وبالمقاعد، فينهض شخص ويوجهه إلى ناحية أخرى فيمشي في خط مستقيم ويصطدم بالناس.. والأطفال والأمير يضحكون. فما الذي أضحكهم؟

هناك نظرية للفيلسوف الفرنسي برجسون تقول: إن الإنسان يضحك من السلوك الآلي.

تفسير هذه العبارة: إنك إذا كنت تمشي في الشارع ثم اصطدمت بطوبة. فسقطت على الأرض كأنك أنت الآخر طوبة أو لوح.. هذا السلوك «الآلي» أي سقوطك ـ يجعل الناس يضحكون.. لأنك لم تحاول أن تقاوم، وإنما استسلمت كأنك طوبة.. أي كأن طوبة أسقطت طوبة!

ونحن عندما نتفرج على الإنسان الآلي، تكون لدينا مشاعر متباينة.. شعور بالقرف من هذا الإنسان الحديدي الذي لا عواطف ولا إحساس له.. ثم خوف من الأضواء التي تلمع في كل مكان من جسمه.. وخوف من ذراعه القوية ومن أصابعه الحديدية التي تشبه الأنياب والمخالب.. وشعور بالاشمئزاز أيضاً من أن يتحول الإنسان إلى «آلة» أي إلى سلبية مطلقة.

ثم شعور بالتعالي عليه. لأننا نملك من أمرنا أكثر، ولأننا أعظم حرية وأقدر على التصرف وعلى الإبداع.. وشعور بالسخرية منه لأنه يقلد الإنسان وليس إنساناً ورغم تطبيق عشرات النظريات الرياضية

والألكترونية، فإنه يتحرك كما لو كان أعمى، ويصطدم بالأشياء دون أن يقدر على تفاديها. .

والذين يتخذون مثل هذا السلوك يضحكوننا أيضاً. . أي الذين يتخذون سلوكاً واحداً لا يتغير في كل الظروف يضحكوننا لأنهم اتخذوا سلوكاً «آليا» يدل على عجزهم عن التكيف، وعلى سوء تقديرهم: شارلي شابلن ونجيب الريحاني وعادل إمام. فشارلي شابلن هو إنسان صغير ضعيف مغلوب على أمره دائماً يحاول ولكن الهزيمة له في النهاية، وإذا نجا من الكارثة فهي الصدفة. ولكنه اتخذ ملامح واحدة. ووجهه كأنه قناع ثابت التصق بجلده. . وكذلك نجيب الريحاني، فهو أيضاً الإنسان المسحوق المضروب الذي لم نره يضحك قط، وهذا يجعلنا نضحك. . فهو قد اتخذ قناعاً واحداً، أو مجموعة من الصفات الثابتة على وجهه ووضع إطارا حديديا لسلوكه الاجتماعي. ولذلك نقول: إنه حكيم. . لأنه جعل من نفسه أعلى من الأحداث. . كأنه كان في استطاعته أن يقاوم، ولكنه لم يشأ. والحقيقة أنه عاجز عن ذلك، لأنه تجمد على وضع، هذا الوضع هو الذي يضحكنا. . والممثل عادل إمام هو ذلك الإنسان «القابل للكسر»، فهو هزيل ضعيف وهو يدخل في المواقف الصعبة، وكأنه قادر على كل شيء. . ونضحك لذلك فهو سيئ التقدير، وهو حسن الظن بنفسه وبالناس. وما يلقاه من ضرب وهوان دليل على أنه غير قادر على أن يواجه الظروف، ولا أن يقاومها. . وحتى عندما نراه يضرب ويقتل فإننا نرى في ذلك مبالغة سينمائية، لا نصدقها. . ولكننا نضحك أيضاً، لأن المخرج بالغ في قوته وبالغ في ضعف الآخرين ـ أكذوبة مزدوجة!

والذين لا يكذبون هم: الموتى والأطفال والحيوانات والبـدائيون. ولكننا، كلما تقدمنا تعلمنا كيف نخفي مشاعرنا، وكيف نزيف الأقنعة. فنحن لم نعد في حاجة إلى أن نضع الأقنعة على وجوهنا. فوجـوهنـا مدربة على أن تفرزها. وإن تكون صناعة الأقنعة فنا عظيماً هو: «الكذب الفني» و«الكذب الأبيض» و«الكذب البريء» ـ وكله كذب!

الدم والعرق
والدموع وسوائل أخرى

الناس يروننا ونحن نضحك وعندما نبكي لا يحبون ذلك! الصابون ينظف الجسم، والدموع تظل في النفس.

في جانب من الجنة يجلس أكثر الناس بكاء، فقد عجزوا عن فعل أي شيء آخر!

هذا الخبر يجف أسرع من الدموع!

نحن نفرغ عذابنا من عيوننا!

الأرملة التي تبكي كثيراً تتزوج أسرع، فأنسب وقت لشتل الأشجار عندما تمطر السماء!

من انحدار دموع المرأة تتولد أقوى طاقة في التاريخ!

في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية قال تشرشل في مجلس العموم عبارته التاريخية: ليس لدينا ما نقدمه سوى الدم والعرق والدموع!

أمسكت دمعة واحدة وقلبتها وقرأت عليها هذه العبارة: العبقرية: ١٪ أرَق و٩٩٪ عرق.

وكل هذه السوائل التي تتدفق في الجسم الإنساني، وخارجه، ولا أحد يعرف بالضبط من أين تبدأ، لها معنى خاص عند كل الشعوب في كل العصور..

وقد علمونا ونحن صغار ألا نبكي «فالدموع» للنساء فقط، وهي غلطة تربوية، فلا عيب أن يبكي الرجال. ولذلك استطاعت المرأة أن تريح أعصابها أولاً بأول، بينما يظل الرجل يكبت ويضغط ويتحكم في أعصابه حتى يتفجر الدم في رأسه وحتى تنسد شرايين قلبه. ولو تعلم الرجال أن يبكوا لفرجوا عن أنفسهم أولاً بأول. وفي الحضارة الأوروبية يعيبون على الرجل إذا بكى ويشجعون المرأة على أن تبكي وأن تذوب ويجدون متعة في النظر إلى ذلك. وكان شعراء الجاهلية والرومانسية العربية أكثر الناس بكاء، ولذلك لم يعرف مجنون ليلى المرض إلا عندما امتنع عن الطعام فقط. أما سنوات البكاء فقد كان في صحة وعافية يرتاد الصحارى وينام في العراء ولا يصاب بزكام أو سعال.

أما شعراء «الطروبادور» في إسبانيا فلم يعرفوا البكاء. فقد كانوا يرون في ذلك عيباً وعاراً على الرجل أن يتوجع وأن يقول آه.. وإنما يجب أن يعرف شيئاً واحداً: أن يموت فداء للمحبوبة التي تركته تحت البلكونة يموت من البرد، بينما هي نامت وسحبت غطاء ثقيلاً تحلم برجل آخر!

وعند الهندوس يحرمون على المرأة أن تبكي أثناء مرضها الشهري، فهم يخشون من دموعها على المولود الذي لم يأت بعد!

وعند الهندوس أيضاً يجعلون العروس تعمل بعض الوقت في بيت حماتها امتحاناً لقدرتها على حبس دموعها أطول فترة ممكنة. وفي ذلك

دليل على الصبر على المكاره، واحتمال القرف ـ حماتها وزوجها وأولادها بعد ذلك!

أما قبائل «الأندمان» في المحيط الهادي فالدموع ممنوعة عند الفرح أو عند الحزن. والرجل الشجاع والمرأة الجريئة مثلها الأعلى: الصخور فالوجه يجب أن يكون جامداً جافاً لا يدل على شيء ـ حتى لا يعرف العدو أسرار القبيلة.

وعند قبائل الأزتك وفي أحد أعيادهم يذبحون الأطفال من أجل أن ترضى عنهم الآلهة. وكلما صرخت وبكت، كان ذلك مما يسعد الآلهة.. وكلما قامت الأمهات بذبح أطفالهن دون أن يبكين، كان ذلك مما يسعد الأزواج ويجعل الواحد منهم يتلقى التهنئة على شجاعة زوجته!

وعند الفراعنة كانوا يأتون بالفتاة الصغيرة ويحملونها ويلقون بها في النيل الشاب فيفيض النيل فرحة بهذه العروس، أي أن النيل يشكرنا ويمتن لنا بفيض من الماء. ولم يقل لنا الفراعنة شيئاً عن شعور هذه الفتاة، هل كانت تخاف؟ هل تبكي؟ هل يبكي أهلها؟ هل كانت لا تبالي؟ هل كان يقال لها إنها تموت شهيدة من أجل مصر، وإنها ككل الشهداء سوف تستأنف حياة أسعد بعد ذلك؟

أما في حضارة «الأنكاس» الأمريكية فإن الآلهة التي وجدناها على الجدران وتماثيلها المبعثرة في المكسيك وفي جزر المحيط الهادي كانت لرءوس ضخمة، وعيون واسعة، ومن الغريب أن في كل هذه العيون دموعاً. لماذا؟ لا نعرف، ولكن لابد أن هذه الدموع دليل على القوة ـ فنحن أمام عدد من الآلهة.

والفيلسوف الألماني كانت له نظرية في بكاء الطفل. فهـو يرى أن الأطفال كانـوا يبـكون أول الأمـر، فكانـت الوحـوش تهجـم عليهـم وتفترسهم. ومضت مئات السنين كان الآباء يحرصون على منع الأطفال من البكاء، حتى اعتاد الطفل ألا يبكي فلا تسمعه الوحوش، ولذلك عاش وعاشت الإنسانية.. ولكن عاد الطفل إلى البكاء عندما لم يكن هناك خوف على حياته، فلا كهوف ولا وحوش. فبكاء الطفل دليل على شعور والديه بالأمان.

والطبيب النفسي يطلب إلى المريض أن يبكي ويبـكي: ففـي ذلك راحة له. بل إن بعض مدارس اليوجا ـ وهي مدارس الرياضة النفسية عن طريق التحكم في حركات الجسم ـ تنصح بأن يبكي الإنسان كلما استطاع ذلك.. وسوف يكون بعد البكاء أحسن حالاً..

لا تخجل جرب ذلك!

* * *

أما «العرق» فهو نتيجة المجهـود الـذي نبذلـه، أو هو من مظاهـر الضعف، ولكن من معاني العرق: أن صاحبه يعمل ويتعب. فهو عامل شريف. ولذلك كان العرق من صفات الشرفاء..

وإعلانات التليفزيون تتحـدث عن مزيلات العـرق ذات رائحـة الورد والليمون والياسمين.. وإعلانـات أخـرى عن الصابـون وعـن العطور وكلها دليل على أن هناك من يعرق، وإن رائحـة العـرق غـير مستحبة.

وقد ظهرت الحمامات في الحضارات القديمة كلها. وجعلت للحمام معنى خاصاً. ويكون الماء ساخناً. ويكون معطراً. وتكون الإقامة فيه ساعة وأحياناً أياماً. . و «حمام الثلاثاء» المشهور في تاريخ القاهرة من مئات السنين له طقوس وله تقاليد. حمام الرجال وحمام السيدات. وهو من مظاهر النعمة والثراء أيضاً.

وعندما نقلت القبائل البدائية من شمال أستراليا إلى بعض المدن الحديثة. طالب شيوخ القبائل بشيء واحد: حمام بخار. وكان من عاداتهم أن يمضوا أياماً طويلة في هذا الحمام يأكلون ويشربون وينامون أيضاً. وبعد ذلك يشعرون بالراحة والسعادة وعدم الرغبة في الزواج. ولذلك انقرضت هذه القبائل. فكان هذا الحمام يرهق أجسادهم، ويقطع أنفاسهم، ويسد شهيتهم تماماً لا خبز ولا جنس!

«والدم» الذي سيل من الجسم الإنساني، مرضاً أو على أثر إصابة قتال أو حرب. . هو أقوى السوائل، وأغزرها دلالة على الحب والكره والموت والانتقام والنجاسة والقداسة.

فنحن نقول: فلان شرب من دم فلان. . أي إنه انتقم منه، ولم يكتف بذلك بل حاول أن يبتلعه، ولكنه اكتفى بأن شرب بعضاً من دمه!

ولكن «شرب الدم» هذا له معنى آخر عند كثير من القبائل البدائية في كل القارات الخمس، معناه أن هناك تحالفاً دموياً بين اثنين من الناس أو بين قبيلتين أو عائلتين فدم هذا يجري في عروق ذاك.

وهناك الكتابة بالدم. ولا تزال مستخدمه حتى اليوم. فأصحاب الشكاوي يبعثون للحكام بعرائض مكتوبة بالدم أي إنهم لا يستخدمون

الحبر، وإنما الدم دليلاً على عمق مشاعرهم. وتكون هذه العرائض عادة للشكر أو الامتنان أو التأبين. .

وبعض قبائل الماساي في كينيا، عندما يجيء إليهم ضيف فإنهم ينزفون دماً فرحاً بقدومه. فيجيء شيخ القبيلة ويمسك سكيناً ويقطع شرياناً في ذراعه أو ساقه. . أو يمر بالسكين على عنق واحد من أطفاله ـ بعض القبائل تفضل أن تذبح الزوجات. أكبر الزوجات سنا، فهذه حيلة لكي يتزوج شيخ القبيلة فتاة صغيرة تلد له أطفالاً بعد أن توقفت زوجته القديمة عن الإنجاب!

وعند العرب في الجاهلية كانوا يذبحون أطفالهم، إكراماً للضيف. وكان الرجل يذبح كل ما لديه من إبل وأغنام، ويقدم زوجته للضيف أيضاً. وعند قبائل الأسكيمو لا يكاد يجيء الضيف حتى يترك صاحب البيت زوجته وأولاده وقد ينام في العراء وقد يخرج ولا يعود بحثاً عن دب أو ثعلب أو ذئب أو غزال يقدمه للضيف. . وقد يذبح زوجته.

ولابد أن الإنسان كان يجد منظر الدم بشعاً، ولذلك حرص على أن يوقف النزيف. ولذلك عاشت الإنسانية. .

ومن الغريب: أن نخاف من منظر الدم مع أنه يجري في عروقنا.

أما أطهر السوائل في جسم الإنسان. فهو: اللبن. . لبن صدر الأم. . أكثر السوائل بياضاً وهو مصدر الحياة للطفل. . وهو الرابطة القوية بين الإثنين. . ومن هذا اللبن، وبسببه، امتدت الحياة، وبسبب اللبن والرضاعة تحدد النسل أيضاً. . فأثناء رضاعة الطفل لا تحمل الأم. . والإنسان هو صاحب أطول فترة طفولة بين كل الحيوانات. .

وفي العصور القديمة بقي الطفل يرضع عشر سنوات وأحياناً عشرين سنة. . وأحياناً لا يكف عن الرضاعة حتى يتزوج. إن المؤرخ هيرودوت يقول لنا إنه وجد في مصر طفلاً يجلس على حجر أمه ويرضع وأدهشه أنه وجد هذا الذي يرضع شاباً!

وكان لبن الأم مانعاً من زواج الإخوة. . فالذين يرضعون من ثدي واحد لا يتزوجون. . وكذلك الذين يولدون من رحم واحد ـ دم واحد ـ لا يتزوجون.

وقد أدت الحياة الحديثة، واشتغال المرأة وضرورة أن تتحرك بسرعة، وأن تكون لذلك رشيقة تقفز من المترو لتركب الأتوبيس ويكون من السهل عليها أن تشتري الملابس الجاهزة، كل ذلك جعلها لا ترضع طفلها حتى لا يترهل صدرها. . وإنما راحت تقدم له اللبن الصناعي أو تتركه للخادمة. ولذلك فأبناء العصر الحديث، هم أبناء الأمهات المستعارات، والحنان المزيف، واللبن الصناعي ـ فهم يتامى، فليس اليتيم من مات أبوه وأمه، وإنما هو الذي يعيش كما لو كان ميت الأب والأم. والخادمة هي «بدل فاقد». والضحية: الطفل. فقد ثبت علمياً أن لبن الأم يعطي للطفل مناعة ضد كثير من الأمراض. أما حنان الأم وحضن الأم، فهما «كيمياء» سحرية لا يمكن تعويضها.

والطفل اليتيم هو يتيم الأم، وليس الأب ـ أي الذي حرم من لبن الأم وصدر الأم وحنان الأم.

وعندما ظهر «ألفيس برسلي» بموسيقاه الروك ـ أند ـ رول ـ والتف حوله مئات الملايين من الشباب والأطفال. وحار العلماء في تفسير ذلك.

ولكن تفسيراً واحداً كان سيد هذه التفسيرات: إن هؤلاء الشباب جميعاً يتامى فقد حرموا وهم أطفال من سماع دقات قلب الأم. فالجنين وهو في بطن أمه ينام على دقات قلب أمه. وعندما يخرج من بطنها، ينام على دقات القلب أيضاً. . وكل موسيقى قريبة من هذه الدقات فإنها تجعله ينام. . ودقات الروك ـ أند ـ رول هي عودة بهؤلاء المحرومين إلى دقات قلب الأم. فكانوا يرقصون ويتساقطون وينامون على هذه الطبول ـ كيف؟

إن هذه الطبول ليست إلا ملايين من قلوب الأمهات احتشدت في مكان واحد!

* * *

«والبول» ـ وهي كلمة لا نستخدمها عادة إلا إذا أدت الضرورة إلى ذلك. ولكن كيف نتحدث عن خطورة ذلك. دون ذكر لهذا الاسم.

وعندما خرجت السفينة رع ٢ من ميناء صافي المغربية متجهة إلى أمريكا، لكي يثبت الرحالة النرويجي تور هايردال أن الفراعنة اكتشفوا أمريكا مستخدمين سفناً من أوراق البردى، أصيب البحارة جميعاً بتسلخات شديدة بسبب ملوحة ماء البحر وأشعة الشمس وكان معهم طبيب روسي وأشار الطبيب بأن الحل الوحيد هو أن يتبولوا جميعاً بعضهم على بعض!

وكان ذلك علاجاً شافياً.

وعند ظهر رئيس وزراء الهند موراجي دساي في برنامج تليفزيوني اسمه «ستون دقيقة» وتفرج عليه الملايين. ولم يكد ينتهي البرنامج حتى

دقت ألـوف التليفونـات في مكتـب وبيت صاحـب البرنامـج يلعنونـه ويشتمونه. أما رد صاحب البرنامج فكان: كيف أمنع رئيس وزراء من أن يقول إنه يشرب كوباً من البول كل صباح.

وفي البلاد التي تقدس الحيوانات كالأبقـار والجـواميس والقـردة، يقدسـون بول هذه الحيوانـات ويغسلـون به وجوههـم وملابسهـم، ويضعون الروث في شعورهم أيضاً.

أما «اللعاب» فقد تعرض لخلافات كثـيرة بـين القبائـل والشعـوب والعلماء أيضاً فنحن نعلم الطفل أن يخفي لعابه. لأنه لـم يعـد صغـيراً ولذلك كان حريصاً على أن يطبق شفتيه، وإن كان كبيراً أن يخرج منديله ويخفي ذلك. ونصف الذي ما يزال طفلاً عبيطاً بأنه «أبو ريالة».

وحيث يكثر استخدام الأشياء التي تسيل اللعاب، نجد البصق على الأرض ليس ممنوعاً ففي الهند وباكستان بسبب استخدام نوع من اللبان والأعشاب الدمـوية اللـون بعـد الطعـام، نجـد النـاس يبصقـون في الشوارع. وكذلك الشعوب التـي تتعاطـى نبـات « القات » وتكومـه وتكوره في جانب من الفم ثم تستحلبه، يبصقونه على الأرض.

ويكون بصق اللعاب إهانة إذا فعلنا ذلك، أو إذا قلنا إننـا سوف نفعل، وإن كانت بعض قبائل تنزانيا ترى في البصق على وجه الضيف، أعظم تحية له.

فإذا جاء الضيف اصطف الناس تحية له. وانهالوا عليه.

وعلى الرغم من المحاولات اليائسـة لكل الأطبـاء في كل العصـور

بخطورة القبلات، فإن أحداً لن يتوقف عن ذلك، بل إن بعض العلماء أثبت أن اللعاب عند التقبيل يكون قاتلاً للمكروبات.. وإلا كيف تؤدي هذه القبلات إلى الراحة النفسية وإلى السعادة العاطفية وإلى شفاء كثير من الأوجاع الجسمية والنفسية؟

وعالم النفس فرويد الذي أجريت له عشرون عملية في شفتيه بسبب الإصابات بالسرطان كان يقول: قبلة واحدة وبعدها أموت.. ولكن من التي ترضى بذلك؟

ويحدثنا الشيخ رفاعة الطهطاوي أن الباخرة عندما توقفت في مرسيليا أدهشه جداً أن الفرنسيين لا يأكلون من طبق واحد.. كل واحد له طبق وملعقة وشوكة وسكينة. وأغرب من ذلك أنهم لا يشربون من كوب واحد.

أي إنهم يتحاشون التقاء اللعاب باللعاب، بينما نحن في مصر لا نجد في ذلك حرجاً ولا ضرراً.

وعندما كان أحمد عرابي باشاً في منفاه في جزيرة سيلان «سري لانكا» لاحظ أن بعض الأمهات في مدينة شاندي يشربن أولاً ثم ينقلن الماء إلى أفواه الأطفال تماماً كما تفعل بعض الطيور.. وأدهشه أكثر أن العروس تفعل ذلك مع عريسها.. وفي ذلك اليوم لم ينم. وسألته إحدى زوجاته: ماذا جرى لك. إنك تبصق على الأرض طول الوقت؟

وبعض «الرفاعية» في الريف المصري أي الذين لا يلدغهم الثعبان، وإذا لدغهم فإنه لا يكون قاتلاً، يبصقون في الماء ويطلبون من الناس أن يشربوا فإذا فعلوا، فلن يضيرهم الثعبان ـ وهذه حقيقة معروفة.

وعند الفراعنة إن الملك توت قد بصق في عيني حورس إله الشمس فأبصر. . وفي إنجيل مرقس (الإصحاح الثامن والآيات من ٢٣ إلى ٢٥) نجد أن السيد المسيح عليه السلام قد «تفل» في عيني رجل أعمى فأبصر. .

والكهنة البوذيون يبصقون في أفواه الأطفال لتحصل لهم البركة، ويكبروا ويتناسلوا ويتكاثروا. .

وفي اليابان وتايلاند نجد الكهنة يعالجون المرضى بأن يقذفوا الماء من أفواههم على وجوه الآخرين.

وعندما ظهرت الممثلة المعروفة هيدي لامار في أحد الأفلام الهندية خطفها شيخ القبيلة وقدمها عارية تماماً لشباب القبيلة متباهياً بقدرته على الصيد. كان لابد أن يحييها الجميع بالبصق في وجهها. رفضت الممثلة الأمريكية النمساوية الأصل إلا إذا كانت أفواههم قد امتلأت بالعطر الذي تحبه. .

وقد أعيد هذا المشهد عشرين مرة. . فاستهلكت بذلك عشرين لتراً من عطر «الشنشيلا».

التاريخ
شعر طويل وقصير
لماذا؟!

من ثلاثين قرناً في مدينة غزة، نهضت سيدة من فراشها تبكي وتتجه إلى الله. فظهر لها أحد الملائكة قائلاً: استجاب الله لدعائك، وسوف يهبك طفلاً جميلاً قوياً بشرط ألا تشربي الخمر، وألا تحلقي شعر رأسه مدى الحياة، وولد الطفل وأصبح رجلاً قوياً طويلاً عريضاً جدا. إذا غضب كان صوت حنجرته مثل أجراس الكنائس، وإذا سعل اهتزت البيوت، وإذا غضب أمسك بيده اليمنى جبلاً وباليسرى جبلاً وضرب الواحد بالآخر. كما نفعل بالبيض، فإذا هي عواصف رملية.

وحاول أعداؤه أن يعرفوا مصدر هذه القوة. وكان يقتل المئات والألوف من أعدائه. ولما حاصروه أطلق عليهم مئات الثعالب التي أشعل فيها النار وتركها تحرق كل حقول القمح. هذا الرجل اسمه شمشون ـ أو ابن الشمس ـ وتزوج «دليلة» التي حاولت أن تعرف مصدر قوته.. وجعلته يشرب ويشرب فقال إن قوته في شعره.. وجاء أعداؤه وحلقوا رأسه ثم قادوه مربوطاً بالحبال بعد أن فقأوا عينيه. وفي إحدى الليالي طال شعره فجأة. واستعاد قوته وهدم عليهم المعبد وقتلهم.

وظهرت هذه الأسطورة في مئات الأعمال الموسيقية والمسرحية. ورأى

فيها كل فنان صورة للقوة الخارقة تحل في الإنسان. ورأوا فيها أيضاً صورة القوة الغاشمة، التي لا فائدة منها لأحد.. فما قيمة أن يحطم إنسان الجبال ويهدم المعابد ويخلع بوابات المدن وينقلها بعيداً عشرات الأميال؟

الموسيقار هايدن جعل منها أوبرا..

والفيلسوف فلولتير كتب أوبرا من خمسة فصول، لم تظهر على المسرح. بل إن المسرح قد سقط بأحد أبطاله فانكسرت ساقه. وقيل إنها لعنة شمشون الجبار..

وأجمل الأفلام التي ظهرت في الأربعينات هو «شمشون ودليلة» قام بدور شمشون الممثل الضخم «ماتيور كنج» وبدور دليلة «هيدي لامار» بأنفها الدقيق وشعرها الأسود المجعد وكانت تجلس له على أسطح البيوت تأكل التفاح، وتلقي عليه بالقشر، لينظر إلى حيث تعرت صدراً وساقاً ثم تضع عسل النحل على شفتيها وكتفيها، فيجيء النحل يضيف عسلاً إلى هذا العسل!

وفي حضارات قديمة وقبائل بدائية منعزلة تماماً، كانوا ينظرون إلى الشعر الطويل على أنه جمال وقوة. والجمال قوة.

فقد عثرت بعثة أمريكية في حوض نهر الأمازون على قبيلة شعرها طويل يصل إلى الكتفين عند الرجال وإلى الخصر عند النساء. ولهم أغنية جماعية يستقبلون بها الضيوف تقول: أعطني قليلاً من شعرك!

وليست بين هذه القبيلة والتوراة التي جاءت بها قصة شمشون أية صلة.. وحتى السيد المسيح عليه السلام، تظهر صوره الخيالية وله شعر

طويل. لقد كان هذا الشعر من علامات الرجولة والزهـد في الحياة. . وكذلك فعل كثير من الرهبان والحاخامات أطالوا شعر الرأس واللحية، أو أطالوا اللحية فقط .

والرومان عندما دخلوا أرض فلسطين، كانوا يقطعون رقاب اليهود، ويحملون جماجمهم ذات الشعر الطويل الأسود إلى روما.

وفي كثير من القبائل البدائية في وسط أفريقيا يطيلون شعورهـم في الحرب، ويحلقونها في السلام. أو إذا قامت حرب فإنهم يجمعون الشعور ويشدونها إلى الوراء. فإذا انتهت الحرب، نكشوا الشعر وتركوه في كل اتجاه. فربط الشعر وتكثيفه قوة، وفي إطلاقه نوع من الاسترخاء . .

وعندما ذهب الهولنـديون إلى أنـدونيسيا، أدخلـوا رياضـة سبـاق الخيول. وكان الهولنديون يجدون شعر الخيول مسروقاً في الليل. فقـد كانت قبيلة «الأوراجي» الشهيرة تخطف شعر الخيل أملاً في أن يطيل شعر الرجال الصلع، وأملاً في أن تكون لهم قوة هذه الخيول!

وقد عثرت السيدة مرجريت ميد أستاذة الدراسات البشرية في جزيرة فيجي بالمحيط الهادي، على نقوش قديمة تدل على أن ساحر القبيلة كان يستخدم «الشعرة الطويلة» في قتل الأعداء. . كان يبحث عن صاحبـة أطول ضفائر في الجزيرة. وينزع منها شعرة واحدة. هذه الشعرة يقيم لها طقوساً: من الطبول والنيران في الليالي القمرية. ثم يأخذ هذه الشعرة ويلقي بها بالقرب من معسكر الأعداء لعلها تقضي عليهم!

ولا يزال شيء من ذلك مستخدماً في العصر الحديث. ففي الشرق الأوسط يلجأ الساحر إلى قراءة التعاويذ حول شعرة أو خصلة مأخوذة من

رأس شخص لا نحبه. ولذلك نريد أن نلحق به أذى بالغاً حين تحل به لعنات الشياطين ـ وهذا ما نسميه «بالعمل» ـ أي بالعمل الشرير ضد شخص نكرهه!

ومن عادات كثير من الشعوب الحديثة أيضاً أن تحتفظ بخصلة شعر لشخص عزيز عليها. . فالإمبراطور نابليون عندما نفاه الإنجليز في جزيرة سانت هيلانة بالمحيط الأطلسي بقي هناك حتى مات. ومن تحليل خصلة الشعر هذه، عرفنا أنه مات مسموماً. فقد كان الطبيب الإنجليزي يضع له الزرنيخ في طعامه يوماً بعد يوم. .

وحين لا يكون الشعر كثيفاً عند الرجال فإنهم يضعون شعراً مستعاراً: الملك والقاضي والقائد. وعندما انتشرت الحشرات في الشعر، حلق الرجال رءوسهم تماماً. وأصبح من الضروري أن يستخدموا الباروكة التي يضعون فيها البودرة والعطور. .

وكانت الملكة حتشبسوت أول امرأة استخدمت الباروكة فكان شعرها مستعاراً ولحيتها أيضاً. وكانت تضع في هذه اللحية لمسات أنثوية، وذلك بأن تلفها بخيوط من الذهب والخرز معاً. فعلى الرغم من أن الشعر يعطيها هذا الشكل المهيب، فهي لا تريد أن تكون رجلاً مخيفاً، وإنما أن تكون مخيفة وأنيقة أيضاً ـ أي أنثى قوية. .

وفي الجيوش والكشافة لابد من الانضباط. ومن مظاهر الانضباط توحيد الزي والمظهر. فيكون الشعر قصيراً. وقد لوحظ في أعقاب الحروب عدم التشدد في ذلك. كنوع من التخفف أو الاسترخاء أو اليأس ـ وقد لوحظ أن الجنود في مصر بعد النكسة العسكرية سنة ١٩٦٧

قد أطالوا شعورهم عدة سنتيمترات مما يعتبر إخلالاً شديداً بالضبط والربط. ولكن لأن الضبط والربط لم يسفر عن نصر عسكري، فقد كان الخروج عليه نوعاً من الانتقام!

وقد لوحظ أيضاً أن الشعوب التي تسكن على ضفاف الأنهار، وتحمل نساؤها أواني لنقل الماء، تطيل شعرها، ليستقر الإناء على الشعر المرفوع إلى أعلى أو الشعر المعقوص فوق الرأس ـ فلاحات مصر كذلك.

ومن مظاهر الحزن عند كثير من الشعوب القديمة أن يحلق الرجال والنساء شعورهم. بينما في العصر الحديث يكون ترك اللحية أو إطالتها، دليلاً على الحزن ـ أي أن الشخص الحزين لم تعد لديه رغبة في أن يبدو نظيفاً أو أنيقاً بعد وفاة إنسان عزيز عليه، فقد تغيرت الدنيا، ولم تعد تساوي شيئاً. . أن يهتم بها أحد. .

وفي الخمسينات ظهرت في أوروبا جماعات «الخنافس» ـ وهم الشبان الذين أطالوا شعورهم مع أن الخنافس حشرات ليس لها شعر إطلاقاً.

ولكن ظهرت هذه الكلمة ترجمة خاطئة لكلمة إنجليزية ليس لها هذا المعنى وجاءت دليلاً على احتقارنا لإطالة الشعر، حين يبدو الشباب غير مهتم بمظهره. وانتشرت فرقة الخنافس الموسيقية والغنائية وكان نجاحها عظيماً. وكان ذلك تمرداً على أمريكا التي سيطرت على الغناء والرقص في العالم. فكان الشبان الفلاحون الإنجليز أول تمرد غنائي ضد الاحتكارات الأمريكية لكل أشكال الغناء. ثم انتقل هؤلاء الشبان إلى أمريكا واكتسحوها أيضاً.

وطالت شعور الرجال إعجاباً بالخنافس ولا تزال. أما الفتيات فقد قصرن شعورهن تماماً، كما كان يفعل الشبان من قبل. ولنفس السبب: الاحتجاج والتمرد على العادات والتقاليد والاشكال المألوفة لشعر الرجل وشعر المرأة. وقصرت أكمام القمصان عند الأولاد، وقصر ذيل الفستان عند الفتيات.. وتعلقت السلاسل في أعناق الأولاد.. وتعلقت السلاسل في خصور الفتيات.. ورسم الفتيات شوارب من الكحل، ووضع الشبان أحمر الشفاه مع الأقراط والأساور. وصبغت الفتيات شعورهن أحمر وأصفر وأزرق وكذلك الوجوه.. ثم التقى البنات والبنون في زي موحد، فارتدى الشبان الفساتين، وارتدت الفتيات البنطلونات.. وتبادل الجنسان نفس الزي ونفس الأكسسوارات ـ وكان ذلك استمراراً في الغضب والسخط على جمود التقاليد الاجتماعية..

وظهر في الأدب الإنجليزي اتجاه من الأدباء والشعراء أطلقوا على أنفسهم: الأدباء الساخطين.. أو بين الأدباء الغاضبين وقد اتخذوا لأنفسهم شعاراً: انظر وراءك في غضب..

وفي أمريكا ظهر الأدباء الصاخبون ـ أي الذين يدقون الأبواب بعنف.. أو يتركونها وراءهم بعنف.. والذين يفضلون الحياة بعنف، على اتباع النظام والسير في الطابور والوقوف على الخط أمام علامات المرور وفي الخدمة العسكرية والتمرد على أن يكون للإنسان رقم أو نمرة أو أن يكون عضواً في إحدى النقابات أو أحد الأندية.. وأن تكون له بطاقة هوية.. وأن يكون زواجه شرعيا ودينيا.. وأن يكون في حضن أبويه حتى الموت.. وبدلاً من الحياة في المدن، عاشوا عند أطرافها،

وبدلاً من الحياة في ضوء النهار، ناموا نهاراً، وسهروا ليلاً، واختاروا الحظائر بيوتاً، والروائح الكريهة عطراً يوميا. فلا يستحمون ولا يغيرون ملابسهم، ولا يشربون ماء بلا لون ولا طعم ولا رائحة، وإنما يختارون أردأ أنواع الخمور والحشيش، حتى الموت موتهم جميعاً، وموت آبائهم نفسيا، وموت المجتمع حضارياً!

وفي إحدى القبائل «البناكي» فيﹰنيوزيلندا عثر العلماء على طقوس غريبة في إطالة وتقصير الشعر. فالشعر عند أفراد القبيلة يجب أن يكون في طول شعر شيخ القبيلة. والزائر لا يعرف ذلك. وإنما عندما يقترب من بيت شيخ القبيلة، يظهر رجل معه مقص طويل.. فإذا كان شعر الضيف أطول من شعر شيخ القبيلة قص الشعرات الزائدة.

وعندما جرح شيخ القبيلة في إحدى المعارك ولم يعد الشعر ينبت في الجانب الأيسر من رأسه، حلق أفراد القبيلة الجانب الأيسر من الرأس. وكذلك الضيوف والعلماء والسياح الذين يزورون هذه القبيلة. ثم يجيء حامل المقص ويعمل على تقصير أكمام البدل وذيل البنطلون ـ احتراما لشيخ القبيلة. وهي حكمة بليغة عميقة!

أما رجال الدين فقد أطالوا الشعر ثم عادوا فقصروه.. وعندما دخلت المسيحية بلاد التيوتون والكلت وهي قبائل تطيل شعر اللحية والشارب حلق المسيحيون والرهبان شعورهم ـ تماماً كرهبان وكهنة الفراعنة والسومريين والبوذيين.

والمرأة اليهودية القديمة كانت تحلق رأسها تماماً، مثل الراهبات

المسيحيات ومعنى ذلك أنها لا تريد أن تكون جميلة فتلفت إليها العيون، وهي زاهدة في الجمال وفي الذين يبحثون عنه.

والمتدينات المحجبات، لا يحلقن شعورهن وإنما يخفين شعورهن - كأنهن بلا شعر أسود أو أصفر، طويل أو قصير..

وكان الصينيون واليابانيون إذا دخلوا الحرب حلقوا شعورهم، حتى لا يتمكن منهم العدو فيربط شعورهم بالحبال ويجرهم وراء القوات المنتصرة.. أو حتى لا يحلق شعورهم إذلالاً لهم. وكذلك كانت تفعل القوات الإغريقية في زحفها وراء الإسكندر الأكبر إلى مجاهل آسيا..

وديانة السيخ الهندية تحتم أن يظل شعر الإنسان سليماً لا يسقط منه شعرة واحدة حتى الموت. ولذلك فالرجال يلفون لحاهم بشبكة ويضعون مشطاً صغيراً على جانب من الوجه.. وأتعس أبناء السيخ: الأصلع.. لا يظهر للناس نهاراً أو ينتحر فلم يشأ الله أن يجعله إنساناً كامل الرجولة!

وقد احتاج المؤرخون الألمان إلى جهود ضخمة لكي يفسروا للشعب الألماني كيف أن شعر هتلر ناعم هكذا ويتهدل على جبهته ثم على جانبي الوجه.. ونشروا صوراً لنابليون الذي كان أصلع فيما عدا خصلة خفيفة تتدلى على جبهته العريضة المهيبة فليس مألوفاً أن يكون للجندي الألماني شعر ناعم كالحرير.. بل لابد أن يكون حليقاً تماماً وإذا ظهر له شعر، فليكن ذلك كثيفاً متماسكاً... أما أن يتطاير هذا الشعر ويتدلى على جبهة «الزعيم» فذلك شيء غير مألوف.. ولكن مع فصاحة هتلر وعظمة ألمانيا العسكرية وانتصاراتها السياسية الساحقة، لم يعد أحد يرى هتلر إلا

زعيماً أو نصف إله، أو مبعوث العناية الإلهية وما دامت السماء قد اختارته هكذا لإنقاذ الشعوب الجرمانية فهذه هي بعض علامات العبقرية أن يكون شعره من أي لون ومن أي حجم وعلى أي نحوا

وهناك نظرية في الأناقة والموضة تقول: كلما زاد التغيير والتبديل استقرت الخطوط أكثر. وتفسير هذه العبارة: إن الحلاقين ومصممي الأزياء مهما غيروا في خطوط الموضة، فهذا التغيير محدود.. لأنه عادة يتناول خطوط الرقبة والوسط والذيل والأكمام.. طالعة نازلة، ضيقة واسعة.. ولذلك فالتغيير المستمر، يجعل الموضات ترجع إلى ما كانت عليه قبل ذلك. فنجد موضات العشرينات ونحن في الستينات، وموضات الثلاثينات ونحن في السبعينات وموضات الأربعينات ونحن في الثمانينات وهكذا.. ولذلك ونحن نتفرج على الأفلام القديمة نلاحظ أن خطوط الموضة شبيهة بالموضات الحديثة وكذلك تسريحات الشعر.

وقد اعتاد الأمريكان ـ مثلا ـ على أن تكون شعور الرجال قصيرة ثم طالت، وشعور النساء طويلة، ثم قصرت.. وتناوب الرجال والنساء طول وحجم ولون وشكل الشعر، جيلاً بعد جيل.

فالمهاجرون الأوروبيون عندما وصلوا أمريكا كان شعرهم قصيراً جدا وأخجلهم ذلك فقد وجدوا الشعور الأمريكية طويلة في القرن السادس عشر. ولذلك بسرعة أطال المهاجرون شعورهم حتى لا يكونوا أضحوكة الدول المضيفة.

وفي الخمسينات عندما ظهر على الشاشة الأمريكية «جيمس دين» الذي أصبح موضة عالمية بشعره القصير وحجمه الصغير. لقد كان

نموذجاً للإنسان المهزوم الضعيف الذي يثير شفقة كل الناس. . وبذلك أصبح الرجل الذي يثير الإعجاب والشفقة والحب أيضاً هو كل «جيمس دين» كل «عبد الحليم حافظ» كل «كلود فرنسوا» ومات جيمس دين في حادث سيارة . . كما ماتت ابنتا الأديب الفرنسي أندريه مالرو ، وكما مات الفيلسوف الفرنسي «البير كامي» وكان جيمس دين قصير الشعر مثل جون ترافولتا. الذي هو صورة جديدة للتمرد على موضة الخنافس في طول الشعر، وفي الغناء الرومانسي الهادي. . لأنه يرقص أكثر، ويغني أقل. . وتحولت كل فرق الغناء العالمية الآن، إلى لوحات راقصة معظم الوقت، تغني بعض الوقت. . بينما كان الخنافس يغنون كل الوقت، ولا يرقصون إلا قليلاً. .

وعندما ظهر الممثل الأمريكي الروسي الأصل « بول برينر» أصلع تماماً انتشرت هذه الموضة. وحاول بعض الأطباء أن يؤكدوا أن الصلع الطبيعي من دلائل القوة والفحولة الجنسية ولكن لم يفضل الرجال أن يفعلوا ذلك وإن كانت بعض النساء قد سايرن هذه الموضة. . وظل الشعر تاجاً على رأس الرجال والنساء معاً. وظل الحلاق، الذي تنحني له كل الرقاب، يرسم بالمقص والسشوار أشكالاً وأحجاماً وألواناً للشعر. وأكثر الرءوس طاعة له ، رءوس الفتيات الصغيرات .. أما الأمهات وأمهاتهن، فلهن تسريحات لا يخرجن عنها. . فيقال هذه تسريحة ماما. . وهذه تسريحة تيتا. . وهذه تسريحة العروس. . وتسريحة الحامل. . وعلى الرغم من أن الجلوس عند الحلاق ليس متعة طول الوقت، لأنه يستخدم الحديد والنار في تطويع الشعر، وكسر رقاب طالبات الدلال والجمال، فسوف يبقى الحلاق هو الطاغية الذي يحكم المرأة التي تحكم الرجل لأنه

يعلقها من شعورها ساعات كل أسبوع دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة، حتى معظم الحلاقين لا يتكلمون. كأنه لا يريد أن تكون بينه وبين رعاياه ما يدل على أنها علاقة إنسانية!

انتهى زمن الأمومة
بدأ عصر الأنوثة!

الشاعر القديم الذي نظم هذين البيتين قد نفد بجلده، ولو كان حيا لأعدمه أصحاب مصانع مواد التجميل ولقطعوا جسمه مائة مليون قطعة بعدد الجنيهات التي يكسبونها كل سنة. قال الشاعر يصف زوجته العجوز التي انكسر ظهرها وتلاشى اللحم من جنبيها:

عجوز ترجى أن تكون فتية
وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار سلعة بيتها
وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر؟!

ثم جاء شاعر أكثر شجاعة منه فوصف عروسه وكيف أنها خدعته:

وما غرني إلا خضاب بكفها
وكحل بعينيها وأثوابها الصفر
وجاءوا بها قبل المحاق بليلة
فكان محاقاً كله ذلك الشهر!

ويقال إن عروسه راحت تصرخ وتلطم خديها حتى تجمعت

جاراتها ورحن يضربنه حتى مات ـ مع أنه لم يقل إلا الحقيقة. فالماكياج «أكذوبة» قد اتفقنا عليها. فالمرأة تضع ما تشاء من الألوان، وترتدي ما تشاء من الفساتين والمايوهات، ونحن نعجب بذلك. وشركات التجميل ودور الأزياء تبيع لنا ونشتري. وقبل دور الأزياء كان العطار و«الدلالة» والساحر وشيخ القبيلة هم الذين يحوّلون العجوز إلى شابة والشابة إلى عروس والعروس إلى ساحرة للرجل الذي يحبها ويتزوجها وتأتي له بالأولاد.

* * *

ومنذ أيام صدر في إيطاليا كتاب بعنوان «انتهى عصر اللبن الطبيعي» للباحثة فرانكا دالبيني وهو يستحق اهتماماً خاصا، ولذلك يجب أن يكون له مكان في هذه السلسلة. وموضوع هذا الكتاب أن الرجل أصبح مجنوناً بصدر المرأة. وأن المرأة قد ساعدته على أن يظل كذلك. فهو يحب أن يرى صدر المرأة متوسط الحجم مستديراً مشدوداً. «ولهذا السبب فإن المرأة لا ترضع أطفالها» ـ وهذه عبارة قصيرة جدا ولكن أثرها كان عميقاً في حياة المرأة، وفي حياة الأطفال والشبان والمجتمع بعد ذلك.

وفي الصفحة الأولى من الكتاب هذه العبارة لإحدى ممثلات هوليوود: لو كان صدري أكبر قليلاً لحكمت العالم!

ولا بد أنها تشير إلى كيف تسلطنت ممثلات من مثل: جين رسل الأمريكية وجينا لولو بريجيدا الإيطالية على الشاشة بسبب أن لهن صدوراً ضخمة فخمة ـ ولم تتزحزح عيون الرجال عن صدر المرأة، إلا

عندما اخترعت مصممة أزياء إنجليزية في العشرين من عمرها اسمها «ماري كوانت» موضة «الميني جيب» أي الفستان الذي يعلو الركبة بمسافة طويلة فاتجهت العيون إلى ساقي المرأة، ولم تتحرك عنها منذ ثلاثين عاماً. هل بقيت العيون عند ساقي المرأة لأن الرجال يفضلون ذلك، أو لأن المرأة أيضاً؟ أو لأن الرجال والنساء قد اتفقوا على هذا اللقاء عند هذا المكان من جسم الفتيات الصغيرات بصفة خاصة.

تقول الباحثة الإيطالية : إن نظرة الرجل إلى صدر المرأة حديثة جدًا ـ أي باعتباره عضواً جميلاً. وقبل ذلك كان الرجل يرى أن الأنوثة هي صدر ترضع به المرأة أطفالها. ولذلك تداورت الصدور وتضخمت. وإذا عدنا إلى التماثيل القديمة في كل الحضارات ـ فيما عدا الحضارة الفرعونية ـ فإننا نجد تماثيل المرأة بغير ملامح. فالقدماء لا يصنعون تمثالاً لامرأة بالذات ـ ملكة أو نبيلة أو كاهنة ـ وإنما للمرأة عموماً. . أي للأنوثة. ولذلك نجد أن الوجه ليست له ملامح ولا الجسم. . فقط صدر كبير «مترهل» بما يدل على أن صاحبته ترضع أطفالاً كثيرين. . وهي ليست أما لأحد بالذات. وإنما هي «الأم». . التي ترضع الأطفال. . أو الطفل. . أو التي تمد الحياة ـ فهي الأنوثة وهي الحياة أيضاً.

وفي سنة ١٩١٥ عندما ذهب الأثري البريطاني آرثر إيفانز مدير متحف أكسفورد إلى جزيرة كريت لاحظ أن المرأة تعلق في صدرها أحجاراً وعلى هذه الأحجار كلمات قديمة. ولما حاول أن يشتري بعض هذه الأحجار رفضت المرأة. واهتدى بعد ذلك إلى أن هذه الأحجار

تضعها المرأة لكي تدر اللبن. ولما اتجه إلى بلاد أخرى، وجد أنواعاً مماثلة من الأحجار. وهو يؤكد أن أحجار المغنطيس التي استخدمها الفراعنة، كانت من بين هذه الأحجار التي تنشط «الغدد» اللبنية، من أجل أن يبقى الطفل حيا. أما إذا جف لبن الأم، مات الطفل. فلم تعرف القبائل البدائية نظام «المرضعة». فإذا ماتت الأم أثناء الولادة، دفنوا طفلها معها. فلا امرأة أخرى ترضع الطفل اليتيم.. ولذلك ظهرت في الحضارات القديمة أسطورة أن طفلاً ماتت أمه، فأرضعته غزالة أو رضعته ذئبة.

وفي الفلسفة الإسلامية قصة «حي بن يقظان» للفيلسوف الأندلسي ابن طفيل وهي قصة الطفل الذي أرضعته غزالة، فعاش غزالاً بين الغزلان. ومن أربعين عاماً ظهر في صحراء الأردن وفي الهند أطفال أرضعتهم الغزلان والذئاب.. وظهرت أساطير أخرى بأن الجن أرضعوا طفلاً، حتى كبر فكان يجمع بين صفات الجن والإنسان. وهذه الأساطير تدل على رغبة الأمهات في أن يعيش الطفل بعد وفاة أمه. ولم تهتد هذه المجتمعات إلى حل هذه المشكلة، إلا بعد ظهور المرضعة وإلا بعد ظهور اللبن الصناعي. وفي قصة موسى عليه السلام أن أمه ألقته في النيل، فسارت أخته ترقبه من بعيد حتى عرفت مكانه. فلما التقطته ابنة فرعون، تعلقت به. وعرضت عليه عدداً من الأمهات يرضعنه فرفض، لكي تجيء أخته وتعرض عليه سيدة تعرفها قادرة على إرضاعه، وكانت هذه السيدة هي أمه. والقرآن الكريم يقول «فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن».. وكانت هذه أول إشارة إلى أن مصر الفرعونية من ٣٢ قرناً هي أول من عرف «المرضعة» ـ أي التي تقوم

بدور الأم عند وفاتها أو مرضها أو جفاف لبنها. .

وفنانو العصور الوسطى في أوروبا قد رسموا صورة للسيدة مريم العذراء وهي ترضع طفلها المسيح عليه السلام ـ رمزاً على الأمومة وعلى الحنان والحب والرحمة. وكل ذلك يتمثل في صدر الأم وفي ارتباط الطفل بها. .

وقد أمضت الإنسانية عشرات الألوف من السنين لا تعرف لماذا تحمل المرأة. أو ما هي علاقة الرجل بأن تحمل امرأته. . ففي غينيا الجديدة مثلاً ما يزالون يعتقدون أن عصفوراً يجيء بين حين وحين ويقف على باب العروسين. ويكون ذلك دليلاً على أنها سوف تلد بأن يختفي العصفور في بطنها أثناء النوم. وإذا حملت المرأة دون أن يظهر العصفور، فليس لأنه لم يجيء، ولكن لأنه جاء دون أن تدري ـ كأن يتسلل إليها أثناء النوم أو أثناء المرض. .

وفي دراسة أمير الشعراء الإنجليز «روبرت جريفز» للأساطير الإغريقية اهتدى إلى أن الإغريق كانوا يؤمنون بأن المرأة تحمل إذا دخلتها «روح». . ولا شيء يدل على طبيعة الروح هذه، إلا ما يكون عليه الطفل من صحة ومرض وجمال وقبح بعد ذلك.

وبعض القبائل في تنزانيا تعتقد أن «القمر» هو الذي يجعل المرأة تحمل وخاصة إذا نامت في العراء.

وقد نسبت هذه القبائل إلى القمر كل أمراض المرأة. وإلى الشمس كل أمراض الرجل.

وفي اللغات الأوروبية نجد أن كلمة مجنون مشتقة من القمر ـ أي جنون القمر، أو الذي أصيب بضربة قمر.

وفي العشرين عاماً الماضية اكتشف علماء «العلاج بالمغنطيس» أن جاذبية القمر للأرض لها أثر كبير على المجالات المغنطيسية في الجسم الإنساني، وخاصة عند المرأة. وأحد علماء اليابان يرى أن جاذبية الأرض قد أخذت في التناقص، وهذا يحتم على الإنسان أن يضيف إلى جسمه كمية مستمرة من المغنطيس ـ تماماً كما أن بعض المدن الأوروبية والأمريكية ينقصها الأوكسجين مثل: بون وبرن ومكسيكو فيحتاج الإنسان إلى مزيد من الأوكسجين.. فالناس هناك يصابون بالصداع والإرهاق بسبب أي مجهود قليل يبذلونه. ولذلك يجب أن يهربوا من هذه المدن أو يتعاطوا جرعات كبيرة من الأوكسجين كل يوم.. وكل المدن قد تلوثت الآن حين تضاعف فيها الهواء الفاسد، ولذلك أصيب الناس بالدوخة وتمزق الأعصاب فاحتجنا إلى المهدئات والمسكنات والمخدرات، وفي نفس الوقت إلى كميات هائلة من المنبهات: القهوة والشاي والأفيون!

وقد عرف القدماء أحجار المغنطيس لعلاج الصداع وجفاف اللبن ـ دون أن تكون لديهم معلومات علمية مؤكدة عن أثر المغنطيس في الخلايا أو الغدد وإنما فقط لهم تجارب وممارسات صحيحة.

وتقول السيدة فرانكا دالبيني إن الإنسان عندما كان في مرحلة رعي الماشية، أي قبل أن ينتقل إلى مرحلة زراعة الأرض وإقامة البيوت، كان محدود النسل. أما السبب فهو أن طعام المرأة في ذلك الوقت من مئات

ألوف السنين كان لا يساعدها على أن تكون مهيأة للحمل والولادة. صحيح كان الطعام غنيا بالبروتين والألياف، ولكن تنقصه الحبوب واللبن والدهون.

وهذا النقص الحيوي يؤجل الدورة الشهرية ويعوق إخصاب البويضة. وهكذا لا يكون حمل، أو لا يكون حمل سريع. والطب الحديث يؤكد لنا اليوم أن «الرجيم» الذي تتبعه المرأة يفسد دورة الحمل والولادة.

وربما كانت حياة الرعاة من مكان إلى مكان هي التي أدت أيضاً إلى جفاف لبن المرأة فنقص عدد الأطفال، فكانت القبائل أخف حركة في سعيها وراء العشب والماء والظل.

والهنود الحمر،قبل اكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢ ،كانوا يعتقدون أن طيوراً تهبط من السماء، تحمل المرأة بعيداً. ثم تعيدها وقد حملت.

وقد تطورت حكاية الطائر الذي ينقذ المرأة. أو ينقذ الحياة التي هي المرأة، بأن يحملها بعيداً، إلى حكاية الطوفان الذي أغرق الأرض وجاء أناس من السماء وأنقذوا ما تبقى من أفراد الإنسانية فنقلوهم إلى مكان آخر. هذه القصة معروفة في حضارة التبت.

وفي «ملحمة قلقامش» البابلية.. وبعد ذلك في الكتب المقدسة جاءت قصة نوح عليه السلام، الذي ألهمه الله أن يصنع سفينة على الأرض فيسخر منه الناس.. وأوحى إليه أن ينقل إلى السفينة الحيوانات «من كل زوجين اثنين» ثم تمطر السماء، وترتفع السفينة على صدر الماء،

ليكون نوح عليه السلام هو «آدم الثاني» الذي أنقذ البشرية، واستأنف بها ومعها الحياة من جديد. .

ونساء قبائل الطوارق في المغرب العربي، التي تعيش في جفاف الصحراء، تعلق أحجاراً من أثدائها لتتدلى، ولتمتلىء بعد ذلك باللبن. هذه الأحجار شبيهة بأحجار كريت ومصر الفرعونية واسمها أيضاً «أحجار اللبن».

وقبائل جزيرة. . بسمانيا، إذا ولدت عندهم المرأة، فإنهم يطردون الزوج ويتكفلون بحراسة الأم،ولذلك نجد أن الرجال الذين يقيمون وحدهم في أطراف الغابة هم الذين ولدت زوجاتهم، أما لماذا يطردون الزوج؟ فهناك تفسيرات كثيرة. منها أن الزوج لا علاقة له بما حدث أي بحمل وولادة زوجته. وأن الزوج قد لا يعجبه منظر الطفل، فيلقي به للوحوش. . ولذلك كان من الضروري طرده من البيت. وكثيراً ما خرج الزوج، ولا يعود، إما لأنه قتل نفسه، أو أكلته الغابة. . والحياة لم تخسر شيئاً فقد مات الأب وعاش الإبن انتهى دور الزوج، وبدأ دور طفل سوف يكون زوجاً من جديد!

ويقال إن هذه القبائل أيقنت بغريزتها السليمة أن بعض الوحوش تأكل صغارها لولا أن الأم تحول دون ذلك. فقد تعلمت القبائل من الحيوانات حكمة استمرار الحياة فتلتهم الأنثى الذكر بعد عملية اللقاح ـ العناكب تفعل ذلك وبعض القطط والأسود. . وبعض التماسيح تصاب بهياج فتحطم البيض الذي وضعته الأنثى على الشاطىء.

وفي العصر الحديث نجد أن الأب يشعر بالغيرة لظهور الأطفال في

الأسرة . فهو يرى أن الاهتمام قد تركز حول الكائنات الجديدة . وأن الأم قد انصرفت عنه تماما . . إذن هذه الغيرة ليست إلا الرغبة القديمة في قتل الأطفال ،وقد تطورت وتحورت فأصبحت مجرد الضيق بذلك . .

وفي كتابها القيم تقول السيدة فرانكا دالبيني إن المرأة المثالية الآن هي «جين فوندا» وإلا فما معنى الإقبال الشديد على كتبها الرياضية وعلى أفلام الرشاقة والكاستات التي تبيعها وتكسب من ورائها مئات الملايين؟!

فما الذي تقوله جين فوندا؟ لا شيء أكثر من أن جسم المرأة أو الرجل ـ ليس قضاء وقدراً بل إنه يمكن تهذيبه وتجميله وتغييره وتبديله كما تشاء . . وتقول إنها شخصيا قد زارت أحد السجون في أمريكا فوجدت صورها قد تعلقت على الجدران. بل إنها سمعت من مدير السجن أن أحد النزلاء قد أصر على الزواج من صورة جين فوندا ، وإن زملاءه قد زفوه إليها بالموسيقى والشمبانيا. أي إنه من الممكن أن يصبح الجسم الإنساني الذي هو سجن لصاحبه ، حديقة أو قصراً مليئاً بالخيالات السعيدة ، حتى لو كان بيتاً مهدم الأبواب مخلخل الأعمدة ، «حتى عاد كالعرجون القديم» كما يقول القرآن الكريم . . أي أن الإنسان يستطيع أن يخفف من أوزانه الثقيلة وأن يكون أرشق وأسرع وأن يكون أصح ، وأن يزداد إعجاباً بنفسه ، وبقدرته على أن يكون كما يشاء ـ إنها إذن إرادته وإصراره على ذلك.

وتقول جين فوندا لعشرات الملايين من نساء العالم . ما من عضلة في الجسم الإنساني لا يمكن تحريكها وإنعاشها . وما من ساقين أو نهدين أو

ردفين لا يمكن شدهما وتليينهما ببعض الألعاب الرياضية وبعض النظام في الأكل والشرب والنوم والاقتصاد في الحب، والاقتصـاد في الـكراهية والغضب أيضاً!

وعندما عرضوا على ليدي سمبسون قصة وحوار الفيلم الذي ظهر عنها وعن زوجها لم تطلب إلا شيئاً واحداً هو أن يكون صدرها أكبـر قليلاً؟!

* * *

ولكي تحتفظ المرأة بصدرها، كما يحب الشعـراء والفنانـون، فإنهـا قررت ألا تحمل وإذا حملت ألا ترضع، وإذا أرضعت فبعض الوقت.. والباقي من البزازة التي امتلأت باللبن الصناعي.. ولذلك يرى كثيرمن علماء النفس أن الرجل الذي حرم من صدر أمه كثيراً، ما يزال يحن إلى الرضاعة، أو يرضع. فالسيجارة واللبان والشرب من الزجاجة التي لها فتحة تشبه حلمة ثدي الأم، كل ذلك يدل على أن الرجل طفل كبير. أو على أن الطفل الذي هو في داخل الرجل، لم يفطم بعد أو أنه لا يريد.. أو على أن المرأة تحب أن تظل أماً لأولادها ولزوجها.

والمرأة المتسلطة على الزوج والأولاد، هي أم أرادت ألا يبعد واحد من أطفالها عن حضنها وصدرها، وعن اعتمادهم عليها.. فالمرأة لا تريد لأحد منهم أن يكبر، وهي لا تريد أن تتوقف عن دور الأمومة والحضانة والرضاعة لكل أطفالها وزوجها، أو لكل الناس!

وظاهرة «مص الأصابـع»، أو قضـم الأظافـر بالأسنـان أو مضـغ الدخان في أمريكا و«القات» في اليمن، ليسـت إلا استمـراراً لحـرص

الطفل في داخلنا على الرضاعة أو دليلاً على شقائه لأنه ابتعد كثيراً عن صدر الأم والاعتماد الكامل عليها.

وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب وعنوانه «الجريمة واللبن» - تتحدث الباحثة الإيطالية عن لبن الأم.. وتقول إن دراسة طفولة عدد من الزعماء والمجرمين المعروفين، تؤكد إما أنهم يتامى أو لقطاء أو عاشوا على اللبن الصناعي كأنهم بلا أمهات.. وتضرب مثلاً لذلك: هتلر الذي هو ابن غير شرعي والذي تناوبته جارات لأمه يرضعنه يوماً بعد يوم. فقد كانت أمه تعمل في أحد البيوت واشترط أصحاب البيت ألاً تأتي بابنها أثناء ساعات العمل.

وكذلك الإمبراطور المجنون نيرون الذى يقال إن ذئبة أرضعته ، فقد أحست أمه وهو في بطنها أنه سوف يكون سفاحاً.

وعندما قام الممثل والكاتب الساخر بيتر أوستينوف بدور نيرون في فيلم «كوفاديس» قال إن هذا الدور مناسب له تماماً، فهو لم يرضع لبن أمه.. فقد ماتت عند ولادته. ولذلك لم يعرف إن كانت قد تنبأت له بأن يكون ذلك المجنون على الشاشة!

ثم قائمة طويلة من المجرمين والسفاحين في القارات الخمس في العصر الحديث وفي عصور قديمة.

* * *

ولو عرفت المرأة ما معنى أن ترضع طفلها، لأضافت سنة أخرى إلى ثمرة الرضاعة. فالرضاعة تجعل طفلها في صحة جسمية ونفسية جيدة

وتجعلها هي أقل تعرضاً للمرض. كأن الطبيعة تكافئها على ذلك: وكل الانحرافات التى تصيب الشبان سببها أنهم حرموا طويلاً من أمهاتهم وصدورهن وأحضانهن. غير أن المرأة تعلمت في سنوات التطور السريع العنيف، أنها لا تستطيع أن تقوم فقطبدور الزوجة، ولا بدور الأم، وأن تضحي بحياتها من أجله لأنها هي الأخرى مطالبة بأن تعمل وأن تعتمد على نفسها، فلا الزوج مضمون ولا الإبن طبعاً ولذلك ذبحت مشاعرها وجففت صدرها وكورته ودورته من أجل أن تبدو شابة قادرة على العمل..

ويقال إن الممثلة القديمة «جريتا جاربو» ظلت ترضع حتى الخامسة عشرة من عمرها وسبب ذلك أن تبنتها إحدى قريباتها وهي صغيرة ولم ترزق قريبتها بأطفال.. وأن قريبة ثانية مجنونة غنية حرصت على العناية بها فظلت ترغمها على الرضاعة من حين إلى حين.. وتعترف جريتا جاربو أنها هي أيضاً قد حرصت على أن تكون خادمتها من الأمهات ليرضعنها أو يقدمن لها لبناً دافئاً تشربه من حين إلى حين.. وأن هذا هو سر جمالها الدائم!

* * *

إن قانون السماء قد أعطى المرأة الكثير من القوة، فكان من العدل أن يعطيها قانون الأرض قليلاً من ذلك!

التجويع
من أجل الصحة
والجمال والنصر!

أطباق كثيرة! أمراض كثيرة أدوية كثيرة: شفاء قليل! من مزايا الفقر أنك لا تعرف الطبيب، ولذلك فجروحك تلتئم بسرعة! كان الماء أحسن المشروبات من عشرين عاماً!

السرير في المستشفى مثل «تاكسي» توقف، ولكن «العداد» لم يتوقف! إذا جاع الجسم شبعت الروح! إن الحيوانات لا تقتل بعضها لأنها مجرمة، الجوع هو المجرم! قال تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾.

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يأكل لأنه ليس جائعاً. ويشرب لأنه ليس عطشان. والذي ليست عنده مواعيد لرغباته الجنسية. ونحن عادة نقول عن الإنسان المسرف في الشراب والطعام والجنس بأنه: حيوان. وهذه إهانة للحيوان. لأن الحيوان معقول في الطعام والشراب.. أما الجنس عنده فله مواسم.

ولكن الإنسان أيضاً قادر على أن يعف عن الطعام والشراب والجنس، أي يتوقف عن كل ذلك مع أنه راغب فيه. أو يمتنع تماماً.

ونحن لا نصف الفقير بأنه زاهد لأن الزاهد هو الذي يمتنع عن الذي يجده، ولكن الذي لا يجد، كيف يكون عفيفاً زاهداً؟

فمن الممكن أن يعيش راهب في صومعة ويخرج على دينه، بينما يطيع الله من يعيش وسط ملايين الناس. إنها إذن «إرادة» العفة و« إرادة» الزهد و«فريضة» الصوم عن الحلال والحرام.

* * *

وفي التاريخ القديم تجد القبائل البدائية قد وضعت للزهد قواعد.. إما لأنها لا تملك إلا أن تزهد في المواسم التي تسبق الحصاد.. وإما لأن لها معتقدات تحرِّم عليها ذلك.. ففي كثير من قبائل أفريقيا وأمريكا اللاتينية يحرمون على أنفسهم أن تمتد أيديهم إلى الفواكه قبل أن تنضج.. ولا يصيدون الأسماك الصغيرة، قبل أن تكبر.

بل إن الرحالة الدنمركي رامسوسني الذي هو من أبناء الأسكيمو الأقزام قد شاهد محاكمة عنيفة لسيدة لمست بأنفها أدوات الصيد التي كان يستخدمها الزوج، واستحقت أن يطردها خارج الكوخ المصنوع من الجليد.. وطبيعي أن تموت. ولكن إذا كان الزوج يحب زوجته، فإنه يحفر قبراً عند قدميها، فإذا ماتت سقطت في هذا القبر أي أنه لم يلقها خارج الكوخ تخلصاً منها أو احتقاراً لشأنها، وإنما هو فعل ذلك على الرغم منه وخوفاً من غضب الآلهة!

ومن الخطايا الكبرى عند الأسكيمو ـ وهي قبائل تعيش في المناطق الجليدية عند القطب الشمالي ـ أن يصيد أحد بعض الحيوانات الصغيرة قبل أن تكبر. كما أنه حرام في القبائل الاستوائية أن تقطف الثمار قبل أن تنضج.. وقد شاهد الرحالة المعروف ليفنجستون أن قبيلة قد اجتمعت تشعل النار والدخان وتدق الطبول. وفجأة أتوا برجل طويل عريض وأجلسوه وسطهم وراحوا يملأون فمه بحبوب الذرة حتى

مات . . ولم يفهم الرحالة ما هذا الذي حدث ، ولكن عرفنا فيما بعد أنهم ضبطوه يأكل لحم ذئب صغير ـ حتى الحيوانات المفترسة الصغيرة حرام صيدها أو أكلها !

وفي بعض القبائل يقبلون «التوبة» . . وتكون نوعاً من الاعتذار بمسح الرأس في الأرض أو تلطيخ الجسد بالطين أو روث البهائم أو أن يقتلع الإنسان عينه أو يقطع بيده يده الأخرى . . أو يمسك سكيناً ويقطع أنفاً أو أذناً أو شفة أو أي عضو آخر . . أو ينفي نفسه بعيداً عن القبيلة .

أما «الجنس» والتعفف عنه والزهد فيه ، والامتناع ، فقد شغل البشرية ألوف السنين ، حتى جاءت الأديان السماوية وغير السماوية ووضعت القواعد الصحيحة والجمالية .

فالحيوانات لها ظروف معروفة للاقتراب من الأنثى والابتعاد عنها . . أنثى واحدة ، أو أكثر .

وعند القبائل البدائية أساطير تبعث على الدهشة ، فالزوج لا يقرب من زوجته الحامل . ولا يقرب من زوجته التي ترضع طفلها ولا يقرب من الزوجة التي تنزف دماً . . وفي غابات الأمازون في أمريكا اللاتينية عثر الرحالة د . بوجارد على قبيلة ضاحكة ـ وهي القبيلة الوحيدة التي لا يكف أفرادها على الضحك ، لا لأنهم يحبون ذلك ، ولكن لأنهم يدمنون أنواعاً من الأعشاب تصيبهم بالضحك حتى يموتوا ، وحتى مات أكثرهم . . في هذه القبيلة وجد رجلاً قد تزوج أربعاً . وبنى لكل واحدة كوخاً . وإلى جوار الكوخ شجرة . . وعلى الشجرة خطوط بيضاء

وحمراء. . الحمراء تشير إلى الليالي التي يحق له أن يقترب من الزوجة. ولم يعرف د. بوجارد القاعدة الحسابية التي التزمها الزوج. .

ووجد في قبيلة أخرى أن الزوج لا يقرب من زوجته بعد ابنها الأول وإنما يتزوج غيرها. . وقبائل أخرى ترى ضرورة الابتعاد عن الزوجة سبع سنوات. .

وفي كل القبائل القديمة وفي الكتب الجنسية القديمة مثل الكتاب الهندي «كاما سوترا» أو «الروضة العطرة» العربي و «سالكا أمريكا» الايسلندي و «العلاقات الخطرة» الفرنسي، نجد صفات طويلة عن «شهر العسل».

ففي قبائل الأمازون يسمونه «لحظات العسل» وذلك عندما يطلب العريس إلى عروسه أن تصعد إحدى الأشجار وتأتي بنوع من الصمغ وتلصق هذا الصمغ بشفتيها وشفتيه. . ويظل العروسان في قبلة تنخلع لها الشفاه. . فهذا الصمغ ليس إلا المطاط!

وفي كتاب «كاما سوترا» الهندي أن الهنود القدامى والصينيين أيضاً كانوا يعرفون شهر العسل. وهو الشهر الذي يسبق الزواج. فيأكل العريس ـ لا العروس ـ ويشرب ويلعب كما يشاء مرة واحدة وبعدها يتوب إلى آخر العمر.

وفي قبائل تسمانيا في جنوب المحيط الهادي أن شهر العسل هو الذي يسبق الزواج، فالعروسان ينفصلان أحدهما عن الآخر شهراً، يعيش كل منهما على هواه ويشبع من الدنيا إن كان قد فاته ذلك، ثم يستقيم على الزوج الواحد والبيت الواحد!

وفي المعابد القديمة كانـوا يمارسـون الجنس بأن يقـوم الرهبـان والكهنة بذلك، فيكون الكاهن هو الذي يسبق العـريس في معاشـرة زوجته علناً أو وراء ستار. .

وحكايات «سميراميس» ملكة بابل معروفة. فقد كانت تركب حصاناً وتمشي في الأسواق تختار أجمل الشبان وأقواهم وتذهـب بهـم إلـى المعبد، وعلى مرأى من الكهنة. كـانت تستسلم لواحد كل يوم. ويقوم حراسها بقتل هذا الشاب. وفي آخـر أيامهـا كانـت تختـار الفتيات، وتتركهن بعد ذلك للكهنة.

والمؤرخ الاغريقي هيرودوت هو الذي قال لنا إن الفراعنة كانوا أول الشعوب القديمة التي حرمت ممارسة الجنس في المعابد. .

ويقول لنا هيرودوت أيضاً: إن المصري القـديم كان معقـولاً في الطعام والشراب والجنس. .

وفي «كتاب الموتى» الفرعوني نجد نصائح الأم لابنتها عندما تذهب إلى العالم الآخر. وهي من أبدع ما عرفنا عن أجدادنا: لا تنامي كثيراً إلى جوار زوجك. . فلا شيء يجعل الزوج يكره البيت مثل ذلك. . إن الشمس تفارق الأرض نصف يوم، والقمر كذلك. . والأرض كلها ليست غارقة في الماء. . فالماء بعيد عن الأرض. .

وتقول الأم لابنتها أيضاً حتى تنعم بالسعادة في العالم الآخر: لقد كرهني أبوك بسرعة. . فقد كان يريدني أن أعامله كطفل. وكنتم سبعة من الإخوة. ولم أكن في حاجـة إلـى ثامـن. . فابتعدنـا. . والحب

كالبذور نلقيها في الأرض. . لا على وجه الأرض فتذروها الرياح، ولا في جوف الأرض فيدفنها التراب. . اعتدلى يا ابنتي!

وفي القرن العشرين دخلت العلوم الحديثة تفرض علينا الجوع. . النظام في الأكل وتقدم لنا كشوفاً باحتياجاتنا من البروتين والدهنيات والنشويات والسكريات. . وتعرض علينا طعاماً يناسب الأمراض والطفولة والشيخوخة. . أو يختصر كل ذلك في حبوب من الفيتامينات. . أو الحقن ولا يمكن حصر أنواع الحبوب التي يتعاطاها الإنسان لتسد نفسه عن الطعام والشراب والنوم، لكي ينقص وزنه. وهو حريص على نقصان الوزن لأن الصحة في الرشاقة والمرض في البدانة. . والمرض والأطباء والمستشفيات: هو أن ترهق القلب والرئة والمعدة والكبد بالطعام. ولذلك قامت أعظم شركات المواد الكيماوية لتحقق للإنسان هذا الأمل مهما كانت النتائج ضارة بصحته!

وعند كثير من القبائل البدائية يمتنعون عن الشراب والجنس قبل بداية الحرب ويضعون أسلحتهم بعيدة عن العيون، حتى لا يصيبها الحسد، ويحرمون على أي أحد غير المقاتلين لمسها، ولذلك فإن الذين يستعدون للقتال يقيمون في مخيمات بعيدة عن بيوتهم. ويأكلون وينامون ويتربصون استعداداً للمعركة،

والرياضة نوع من الحرب. . ولذلك نجد الرياضيين في العصر الحديث يستريحون ويعتدلون في الطعام والشراب ويمتنعون عن الخمور والجنس استعداداً لمنافسة الفرق الرياضية الأخرى. .

ومحمد علي كلاي هو الذي قال لنا في قصة حياته: إن الضربات التي

يلقاها أثناء التدريب أعنف مما يلقاه في حلبة الملاكمة. فأثناء التدريب يتناوبه عدد كبير من المدربين يضربونه في كل مكان وفي وقت واحد.. وهو يتوجع ولكنه لا يستطيع أن يتوقف!

ولما سألوا محمد علي كلاي يوم أصبح بطل أبطال العالم لأول مرة: ما الذي تتمناه الآن؟ قال: جردل آيس كريم!

فقد كان محرماً عليه حتى لا يزداد وزنه!

ولم نكن نعرف كيف كان يتدرب «بيليه» ساحر الكرة البرازيلي حتى أعلنت زوجته ذلك فحياة أبطال الكرة سر من الأسرار، ولكن لا بد من التدريب الشاق ولا بد من الامتناع عن كل ما يرهقه ويشتت تفكيره ـ وفي مقدمة ذلك: الجنس. قالت زوجته: إنهم يعلقونه من رجليه في الهواء الطلق.. ويتركونه كذلك شداً لعضلاته وتوزيعاً للدم وتدعيماً لقدميه.

أما طبيب بيليه فهو الذي قال للعالم إنه رأى ذلك المنظر في «إحدى قبائل الأمازون» فهم يعلقون العريس قبل زفافه بأسبوع، وقد أكد أطباء كثيرون أن ذلك يقوي القلب وينشط المعدة ويملأ الرأس بالدم.. الخ.

وفي قصة حياة السباح العالمي «شبتس» أنه لم يكن يسبح ليلاً ونهاراً فقط. أو يصوم عن أمتع وأجمل ما في الدنيا. بل إنه أيضاً لم يكن يعرف النوم المريح.. فقد علمه المدرب أن ينام في أسطوانة من المطاط.. وهذه الأسطوانة كانت تتدحرج ببطء، وتعلم أن يستغرق في النوم. وأهمية هذه الأسطوانة أن جاذبية الأرض لم تكن مركزة على مكان واحد وإنما

على كل الجسم. كما أن حركة الأسطوانة تضغط على كل عضلات جسمه وتقويها وتلينها. . فليست هذه الأسطوانة إلا سجناً أو صومعة متحركة!

وأديب إيطاليا «البرتو مورافيا» في رواية له عن «الحياة الزوجية» يروي قصة فنان عظيم ولكنه لايجد القدرة على الكتابة إلا إذا كان غارقاً في الجنس. . فكان الجنس يرهقه. وكانت الأفكار تواتيه وتحط على رأسه كالطيور المهاجرة، ولكنه لم يكن قادراً على أن يمسك قلماً. .

ومورافيا هو الذي قال إن الفنان، مثل المرأة، له دورة شهرية للإبداع الفني. . ولكن الفنان الذي أعطاه الله النار المقدسة، يجب أن يعيش على هذه النار في داخله وفي خارجه. .

والمثل الأعلى للإبداع هو «النحل». فالنحل الذي يفرز العسل ليس ذكراً ولا أنثى. إنه بلا جنس. . لقد خرج النحل من عيني الإله «رع» كما يقول الفراعنة. .

فدموع الاله «رع» تتحول إلى نحل. . ولكن الأساطير الفرعونية لم تقل لنا: ولماذا كان يبكي الإله «رع»؟ لا بد أنه كان يبكي لحرمان النحل من لذة الحياة فهو يفرز كل هذا الرحيق اللذيذ ولا لذة له ولا متعة له. .

وكذلك الفنان الذي يفرز كل هذا الرحيق ليس إلا «حشرة» مقدسة إذا لم يكن عنده ما يحبه وما يكرهه وما يشتهيه، وما يهرب منه وما يهرب إليه. .

وقد ابتدع اليابانيون حاسبات إلكترونية اسمها «بيو ـ رذم» أي الإيقاع الحيوي. . أو جدول إيقاع الحياة اليومية. . يحسب لك

أحسن الأوقات لأعصابك أو رغباتك الجنسية. . . والدورة الشهرية المناسبة لأن تقبل على هذا أو تمتنع عن ذاك. .

وهو في نفس الوقت مثل «حظك اليوم» يحدثك عن أنسب الأوقات للعمل والمغامرة والحب.

* * *

وليست كل الأطعمة مقبولة عند الإنسان، فاليهود والمسلمون لا يأكلون الخنزير ولا اللحم الميت. .

وكثيراً من البوذيين من لا يأكلون اللحوم. والفراعنة ـ غالباً ـ كانوا نباتيين واليهود لا يأكلون الكائنات البحرية التي ليست لها قشور: القراميط وثعابين البحر والجمبري.

والقبائل القديمة كانوا لا يأكلون من طبق واحد إلا إذا كانوا أسرة واحدة أو من طبقة اجتماعية واحدة أو من دين واحد. وعندما جاء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر دعاهم إلى غذاء وأكل هو من طبق وأكل إخوته من طبق آخر. . فقد كان محرماً على المصريين أن يأكلوا مع اليهود في طبق واحد ـ وفي ذلك الوقت لم يشأ يوسف أن يكشف عن حقيقته لإخوته!

ثم إن اليهود لا يضعون اللبن والجبن واللحم في وعاء واحد. . أو حتى في مكان واحد. وأشهر الحوادث على ذلك عندما ذهب الرئيس السادات إلى حيفا. وقبل تناول الغذاء خرج جميع الطهاة من الفندق احتجاجاً على أن الرئيس السادات قد أتى بلحم وجبن من القاهرة ولم يعد الطهاة اليهود إلا بعد أن توسل إليهم رئيس الوزراء ووزير الداخلية

ووزير الدفاع وإلا بعد أن خرج الطاهي المصري ومعه الجبن واللبن الذي أتى من القاهرة وكان لا بد من غسل المطبخ وجميع الأطباق والشوك والسكاكين!!

* * *

ولم يحدث في التاريخ إلا مرة واحدة: تحريم عسل النحل.. وذلك عندما عاد القائد الإغريقي نيارخوس من معاركه إلى جانب الاسكندر. فقد اكتشف عود القصب في بلاد الهند. وقال إن الأرض تخرج العسل من دون حاجة إلى النحل.

وأصدر قراراً بتحريم عسل النحل لأن واحدة من النحل قد لدغته وهو يستحم وظل متورم الظهر شهوراً، ولما مات عاد الناس إلى العسل واستخدموه في علاج لسعات النحل أيضاً.

والفراعنة استخدموا عسل النحل في شفاء الجروح..

ولكن عندما استخدمت الملكة كليوبترة السابقة عسل النحل في دهان بشرتها عند النوم لم تكن هذه عادة فرعونية وإنما هي عادة إغريقية.. فقد كان الإغريق أول من استخدم عسل النحل في التجميل. أما كليوباترة التي استخدمت العسل في دهان ساقيها ثم غسلها بعد ذلك باللبن فهي كليوباترة الرابعة، فقد حكمت مصر سبع ملكات وكل واحدة منهن اسمها كليوباترة.

وكان الفراعنة أيضاً يضعون على عسل النحل الملح والفلفل والليمون ليجعلوه ألذ طعماً. وأطباء الروماتيزم يستخدمون عسل النحل ويضعون عليه الخل وهو شفاء معروف لأوجاع الروماتيزم.. وكانت

السيدة أم كلثوم تفعل ذلك. . وقالت لي: إن هذه الوصفة قد خففت الكثير من أوجاع ساقيها. .

* * *

وقد اختلفت كل القبائل القديمة والقبائل الحديثة على كل أنواع الأطعمة ولكنهم اتفقوا على أن عسل النحل يغني عن كل الأطعمة. .

والقرآن الكريم يقول: ﴿فيه شفاء للناس﴾.

* * *

وهناك فرق كبير بين التجويع والجوع، فالتجويع عمل إرادي. . أنت تفعله، أو غيرك يعرضه عليك. .

أما الجوع: فهو ألا يجد الإنسان ما يأكله. .

وقصة الجوع عظيمة القدر في التاريخ، فالجوع هو أبو كل حركات التحرير في التاريخ، لأن الجائع ليس حرا. . ولأنه يريد الخبز فهو يطلب الحرية.

والتاريخ هو قصة الإنسان يبحث عن الحرية ومزيد منها: الحرية من الجوع والظلم والجهل. . والمعدة الجائعة ليست لها آذان والشعوب الجائعة إلى الرغيف وإلى الحرية هي وحدها القادرة على خلق سلسلة لا تنتهي من الطغاة. .

دعوت الله
يأخذها قريباً

شاب صغير في العاشرة من عمره سأل: كيف أرى الله؟ فقيل له: أن تجوع.. وسأل: وكيف أسمعه؟ فقيل له: أن تعطش.. وسأل: وكيف أتحدث إليه؟ فقيل له: أن تبعد عن الناس؟ ثم سأل: وكيف يحدثني؟ فقيل له: أن ترتفع فوق الناس!

وكان يأكل مرة كل أسبوع. ويشرب مرة كل شهر.. وبنى لنفسه عموداً من الحجارة وراح يرفعه يوماً بعد يوم ثم ظل واقفاً عليه نهاراً وليلاً أربعين عاماً حتى مات. وكان يرتدي الصوف ويلف حول وسطه حزاماً من سعف النخيل ـ ذلك هو القديس سيمون «العمودي» الذي عاش ومات في سوريا!

أما هي فكانت تمارس الغناء والرقص. وكانت تعرف أن لها جسماً جميلاً، وأن العيون تلفها وتتحسسها ويسعدها ذلك.. وفجأة تاب الله عليها فخلعت الحرير وارتدت الثياب الخشنة. وهجرت النوم على السرير، وارتمت على الأرض. وأغلقت بابها في وجه الناس. وشباكها في وجه النور. وانفردت به وحدها ـ ولم يكن الذي انفردت به سوى حبيبها الواحد الأحد.. إنه الله.. وإنها «رابعة العدوية» عاشت في

مدينة البصرة بالعراق وقيل دفنت بالقدس وقيل في القاهرة لقد تمنت مدن كثيرة أن تحتوي رابعة.

وتقول في حبيبها:

أحبك حبين: حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا، ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وقد وصفوها بأنها «السيدة الولية» ذات المقامات العالية والأحوال السنية، فما هذا الذي يفعله مثل هؤلاء الناس الطيبين؟

إنهم يعذبون أنفسهم طمعاً في نعيم الله ويتضورون جوعاً أملاً في أن يشبعوا من راحة الضمير. ويعطشون حتى يرويهم الايمان.

إذن، فالسعادة ليست فقط في أن يتخفف الإنسان من آلام ولكن هناك سعادة أخرى: أن يتعذب الإنسان وهو راضٍ، وأن يتألم وهو مستريح. وليست السعادة أن يملأ الإنسان عينيه بالنوم. ولكن أن يختار السهر والأرق، وهو يذكر الله والقرآن الكريم. يقول: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع».

وقد عرفوا في الديانة المسيحية باسم الرهبان أي الذين يرهبون الله ويخافون معصيته ويرهبون أن تشغلهم الدنيا عن ذكر الله..

والمتصوفون المسلمون: رهبان أيضاً.

وأول من أطلق عليه اسم «صوفي» أو متصوف هو عالم عراقي اسمه جابر بن حيان. . وهو صوفي لأنه كان يرتدي الملابس الصوفية الخشنة التي تؤذيه إذا جلس، وتوجعه إذا نام. . والصوفي هو أيضاً الذي يجد الشوك في الشراب، فلا يذوقه في الطعام فلا يأكله وفي رموش عيون الناس فيبعد عنهم. .

وهناك حديث يقول: لا رهبانية في الإسلام. هذا الحديث ليس صحيحاً. وإنما نسبوه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. ففي الإسلام أناس صالحون كثيرون اختاروا هذه الرهبانية، أي الزهد في الحياة والقناعة بالقليل من كل شيء.

وعندما نفذ حكم الإعدام في القديس «توماس بيكت» اكتشفوا أنه كان يرتدي تحت مسوحه الدينية الأنيقة قميصاً من الصوف لم يخلعه مدى الحياة. وقد امتلأ هذا القميص بالحشرات ثم إن هذا القميص قد ترك آثاراً دموية غائرة في لحمه ـ وبكوا عليه بعد أن شنقوه!!

وغيرهم كثيرون في الديانات الأخرى.

* * *

لقد رأيت في كاندي بجزيرة سري لانكا ـ وهي المدينة التي ما يزال بها بيت الزعيم أحمد عرابي ـ عدداً من الرهبان يمشون حفاة على النار. دعني أقترب منهم لأصفهم لك: النار كتل من الفحم والخشب قد ألقوا عليها كثيراً من الزيت، فارتفعت درجة الحرارة وتراجعنا إلى الوراء. وجاء عدد من الرهبان عراة إلا مما يسترهم. أما أقدامهم فليست مغطاة بطبقة من الشحم ولا أية مادة عازلة. . واقتربوا من النار. . ثم ساروا

فوقها على مهل. شيء عجيب لم تحترق أقدامهم، ولا ظهر للاحتـراق دخان. ولا على وجوههم ألم أو فزع أو أنهم يحملون هذا الألم. . وسار الواحد بعـد الآخـر. . ولا شيء في الأقـدام ولا على الوجـوه. . عشرة وعشرون وثلاثـون. . وطلـب إليهـم بعض السياح أن يكشفـوا عن أقدامهم ليصوروها. . لا شيء إلا احمرار قليل!

لقد بلغوا في السيطرة على أجسادهم ومشاعرهم أعلى الدرجات، إنها السيطرة الكاملة على أعصابهم وعضلاتهم، إنها القدرة الهائلة على إعدام الألم! كيف؟ بعض العلماء يقولون إنهم يتأهلون نفسيا إلى ذلك. . فهم قبل السير على النار يكونون في حالة تنويم ذاتي. . أي إنهم يمشون على النار وكأنهم نيام، لا يدرون بما يحدث لهم.

إذن لقد اختاروا الألم الجسدي راحة للنفس، وعذاب الدنيا طمعاً في نعيم الآخرة. .

ويعذب الإنسان نفسه ندماً على ما فعل هو أو ما فعله غيره.

ففي الريف المصري كنا نرى جماعة من الناس نسميهم ونحن أطفال «الرفاعية» أي أتباع سيدي أحمد الرفاعي. هؤلاء الناس لم يكونوا سوى جماعـة من الشيوخ أو المتصوفين، أو أدعياء ذلك: يضربـون أنفسهـم بالسيوف حتى يسيل دمهم، ويضعون المسامير في أفواههم وفي بطونهم ويلطمون ويصرخون أسفا وحزناً على مقتل علي بـن أبي طالب وأولاده وأحفاده.

ورأيت مثل ذلك في مدينة بغداد وفي مدينتي الكوفة وكربلاء.

ورأيت مهرجانات\يوم عاشوراء في ولاية كيرلا بالهند أثناء لانتخابات التى فاز بها الحزب الشيوعى .

ورأيت هؤلاء الشيعة الهنود وقد شوهوا وجوههم وأجسادهم يلطخوها بالطين والدم وراحوا يطاردون الناس ثم يلقون بأنفسهم في لبحر بعد ذلك.

* * *

وفي حياتنا العادية نقول مثلاً ونحن إلى جوار فراش الإبن المريض أو الأم المريضة: يا رب خذ عيني.. خذ حياتي ولا يموت هو.. ولا تموت هي!

أي إننا «ننذر» الألم والعذاب، فداء للذين نحبهم.

أو إننا نقول: سوف أمتنع عن الشرب..

* * *

أو كما قالت السيدة مريم العذراء وهي تواجه الشك فيها والغمز واللمز من أهلها: «إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا».

وفي الديانة البوذية نجد الراهب يطبق أصابع يديه حتى تطول أظافرها وتنغرز في لحمه ـ لعل فلاناً يشفى من مرضه.

وعند البوذيين أيضاً نجد الواحد يمد ذراعه إلى الأمام مدى الحياة فقد نذر لله أن يفعل ذلك إذا شفي ابنه المريض.

أو يحبس نفسه في البيت شهراً أو ثلاثة.

وعند الزواج البوذي تعلن الزوجة إنه إذا مات عنها زوجها فسوف تحرق نفسها حزناً عليه حتى لا تكون لرجل آخر.

أو يذبح الواحد كل ما لديه من ماشية لعل الآلهة تشفي ولده أو أمه أو زوجته. . أو ترفع غضبها عن القبيلة أو تسقط الأمطار أو تخصب التربة.

* * *

وقد شاهد الرحالة لفنجستون في أوغندة قبيلة تأكل رجلاً مريضاً ولم يجد تفسيراً لذلك وعرفنا فيما بعد أنهم أكلوه حتى لا يتعذب. أو أنهم دفنوه في أعماقهم ضنا به على التراب أو على أن تأكله الحيوانات الأخرى. . فهم قد أكلوه وتعذبوا وهم يبكون ويلطمون حبا شديداً له. .

والكابتن كوك عندما اكتشف جزر هاواي كان يجد متعة كبرى في أن يجلس إلى القبائل وهي ترقص وتغني ثم تختار واحداً يقتلونه ويحملونه بعيداً ثم لا يعودون بعد ذلك. . ولم يعرف أنهم يفتحون بطنه ويخرجون قلبه. . ويلطخون به وجوههم وصدورهم. . ويرقصون ويبكون ويتساقطون على الأرض. . ثم يتقاسمون قلبه وهم سعداء بذلك حبا وإعزازاً للفقيد!

* * *

ومن أيام الفراعنة ومظاهر الحزن على الفقيد لم تتغير كثيراً في بلادنا. . فالحزن الطويل والأربعين والسنوية وملابس الحداد. . ولقد رأيت في ريف الدقهلية وأنا طفل كيف ترتدي السيدات السواد وكيف يصبغن وجوههن بالنيلة الزرقاء وكيف يلطمون ويرقصون في حلقات

ساعة وساعتين وتتساقط النساء من الحزن والتعب وتحل محلها فتيات صغيرات أكثر نشاطاً وحيوية ثم الأطفال، وبعض هؤلاء النساء يتمرغن على الأرض، ويضعن التراب على رءوسهن وكذلك الطين ـ ما زلت أذكر ذلك بوضوح شديد: فقد رأيت قريباتي يفعلن ما هو أوجع وأبشع!

وكل شيء قد أصبح الآن رمزيا. الحزن عابر، فالرجال يضعون كرافتات سوداء والنساء يرتدين الفستان الأسود الذي يصبح رماديا ثم تظهر بقعة بيضاء.. ثم بقع أخرى كثيرة ثم يتلون الثوب والوجه.. وبعد ذلك تلمع الدموع في العيون من حين إلى حين وكل من عليها فان.. ولا دائم إلا وجه الله والذي مات أراح واستراح.. الخ.

وقد اشتركت في جنازة صينية في هونج كونج فوجدت عجباً. الميت حملوه في سيارة ووراءه سيارة أخرى بها ميكروفونات مدوية.. سألت ما الذي تذيعه الميكروفونات؟ فقيل: لا شيء إنها مجرد أصوات.. إنها شرائط تسجيل تدور بسرعة جدا.. فما المعنى؟ المعنى: إطلاق أصوات مزعجة لطرد الأرواح الشريرة والعفاريت من الالتفاف حول جسد الميت، فإذا انتقل إلى السماء كان نظيفاً طاهراً!

* * *

وكان الألم والعذاب المبرح وسيلة للعلاج والشفاء.. فقد كان الأطباء في أوروبا في العصور الوسطى يضربون المجنون بالكرباج حتى تخرج الأرواح الشريرة من جسده. وكان أهل المريض يتبارون في ذلك: أمه وأبوه والذين يحبونه يسرفون في استخدام السياط حبا له.. ثم يبكون على عذابه، ويتمنون له الشفاء.

سمعت أخيراً من طبيب مصرى مشهور أن مريضة جاءته من إمبابة. ولما كشف عن صدرها وكتفيها وجد بها التهابات وقروحاً. وعرف منها أن زوجها هو الذي ضربها بالعصا وأنه كاد يقطع ذراعها بسكين عندما قالت له: إن العفاريت قد خرجت من جسمها كله واستقرت في ذراعها فراح يضرب ذراعها. فأوجعها أكثر.. وكاد يقطع ذراعها تخلصاً من العفاريت.

والطبيب لم يجد هذه المريضة تشكو من زوجها فهي ترى أن زوجها حاول ولكن الله لم يشأ شفاءها.. وكان الرومان يحبسون الشاب في شوال من النمل والنحل إمتحانا لشجاعته وكانوا يتركون الطفل يبيت في العراء ليكون قويا شجاعاً ـ وأكثرهم مات!

ولذلك لم يكن غريباً أن نجد رجال الدين يهاجمون الأدوية التي تخفف الألم. ففي رواية عمال البحر للأديب الكبير فيكتور هيجو نجد رجال الدين يلعنون السفن البخارية ولا يكادون يرونها حتى يطلبوا من السماء إغراقها وإحراقها. لماذا؟ لأن الله قد فصل بين الماء والنار فكيف نجمع الإثنين في مكان واحد؟ ثم راحوا يلعنون الأطباء الذين اكتشفوا البنج لتخدير المريض فلا يشعر بالعمليات الجراحية لماذا لأن الله قد خلق الألم وقد جعل الثواب العظيم لمن يتحمله.. ولأن المسيح عليه السلام قد تعذب على الصليب فداء للبشرية فكيف نلغي الألم؟!

* * *

وأحياناً يكون العذاب ـ مهراً للعروس.

ففي إحدى قبائل «النرولو» الأفريقية شاهد الرحالة «لودرماك» في

نهاية القرن الماضي عند زيارته لشيخ القبيلة شابا طويلاً عريضاً قد وضع إحدى قدميه على قطعة من الخشب والتف حوله عدد من الراقصين والنار وراءهم ووراء النار طبول . . ووراء الطبول فتيات يرقصن . . أما هذا الشاب فكانوا يقطعون أصابع قدمه اليسرى بالسكين وكان يهتز فقطدون أن يتألم . . ولما اقترب الرحالة منه وجده مخموراً أو مسحوراً . . وبعد ذلك حملوه على أعناقهم . . ثم أدخلوا الرحالة على شيخ القبيلة . . وعرف أن هذا الشاب قد خطب ابنة شيخ القبيلة وكان لا بد أن يقدم الشبكة ـ والشبكة هي كل أصابع قدميه.

وكثيراً ما أضاف طالب الزواج تضحيات أخرى من عنده كأصابع يده اليسرى أو إحدى أذنيه، دليلاً على حبه الشديد لابنة شيخ القبيلة!

وفي أوروبا عرفنا شعراء «الطروبادور» وكذلك الشعراء «العذريون» أو الرومانسيون في تاريخ الشعر العربي الذين كانوا يتعذبون من أجل المحبوبة . . فالطروبادور كانوا ينامون تحت شباك المحبوبة في الثلج أو كانوا يسعلون بعنف حتى تتلطف المحبوبة وتكلف خاطرها وتنظر من البلكونة لتجد الأرض قد تغطت بالدماء الرئوية دليلاً على أن العاشق يبذل نفسه من أجلها فلا هو يشكو من العذاب ولا هي ترحمه من المرض فهناك اتفاق غير مكتوب بينهما أن يتعذب ليفوز بها في النهاية ـ كثيرون ماتوا قبل ذلك!

ومن يتذكر ما قاله آخر الشعراء الرومانسيين في مصر «أحمد رامي» وأغنيات أم كلثوم فلن يجد إلا العذاب والذل والهوان في الحب.

وتقول أم كلثوم ويقول أحمد رامي: عزة جمالك فين من غير «دليل»

يهواك؟! . وفي أغاني محمد عبد الوهاب أيضاً: تخاصمني برضه أحبك. . تعذبني برضه أحبك. . تنساني أحبك. . لا تحبني أحبك الخ. وكذلك معظم الأغاني الشرقية القديمة هي نسيج من بهدلة المحبين ومسح الأرض بدموعهم التي لا تهتم بها المحبوبة فالرجال في غاية الهوان والنساء في غاية الوحشية أو الرجال يطفحون الدم ـ والنساء لا يرضين بما دون ذلك. . أو العكس كل ذلك حتى يكون العذاب عنيفاً وهو المطلوب من الجميع للجميع.

فالحب: قاتل وقتيل.

فهل من الممكن أن يؤدي الحب إلى القتل؟ نعم. فالإنسان من الممكن أن يقتل نفسه من شدة الحب. . فهو يتعذب ويظل كذلك حتى يموت. . ومن الممكن أن يقتل من يحب حتى لا يكون من نصيب أحد غيره. . أو لعله يريد راحة المحبوب من عذاب الحب.

لم أعرف أرق وأظرف وأصدق من أبيات لشاعر قديم أراد أن ينقذ ابنته من ويلات الحياة الزوجية فقرر قتلها. . أو تمنى لها ذلك يقول الشاعر:

أحب بنيتي فوددت أني ... دفنت بنيتي في جوف لحد
فإما أن أزوجها غنياً ... فأبقى عنده في ثوب عبد
وإما أن أزوجها فقيراً ... فتبقى عنده والهم عندي
وإما أن أزوجها سفيهاً ... فيلعن والدي ويسب جدي
دعوت الله يأخذها قريباً ... فقد كانت أعز الناس عندي!

السعادة الوهمية

حشيش

وأعشاب أخرى

قالوا لنا إن أكبر أديب أمريكي موجود في الفندق. وهو يريد أن يرانا ويسمع منا شيئاً عن الفكر العربي وأشياء عن الأدب المصري. ولا بد أن يكون كلامنا في ضخامة الأهرام التي يراها من نافذته، وأن يكون أجمل من الفتيات اللاتي يتمددن على حافة حمام ميناهاوس.. وكان من الصعب أن يجد الواحد منا كلاماً بهذه المواصفات، ولكن المهم أن ترى الأديب الكبير «وليام فولكنر» الفائز بجائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٤٩ لا أذكر كيف كانت هيئته. ولكن كل الذي أعرفه أنه كان يقيم في الغرفة التي كان ينام فيها تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية. وأن الغرفة تطل على الطريق الصاعد إلى الهرم.

وأدخلوني إليه.. لا بد أنه كان مريضاً مرهقاً تماماً، فلم يكد يراني حتى أنزل ساقه من فوق الكرسي.. ووجد صعوبة في أن يرفع عينيه عن الذي أمامه. ومد يده.. ومددت يدي وجلست. أما الذي أمامه فهو زجاجة من الخمر وأكواب. ونظر ناحيتي ونظرت إليه.. ولا أعرف إن كان قد قال شيئاً. أظنه لم يقل.

أما أنا فقد قلت كلاماً كثيراً وكأنني لم أفتح فمي، فهو لم يسمع

شيئاً. وكان من المناسب جدا، كما دخلت أن أخرج .وخرجت.ولكنه أكبر أدباء أمريكا الذي استحق جائزة نوبل «بسبب حيويته الفنية الرائعة، وقدرته الفذة على تشكيل وتطوير الرواية الأمريكية الحديثة ولأنه حفر بالعمق والجمال كل معالم المرارة والغضب بين السود والبيض على ضفتي نهر المسيسبي».

نص ما جاء في قرار الجائزة.

إذن هذه هي الحالة النفسية التي تلائم مثل هذا الإبداع الفني العظيم. والتي لا يستطيع أن يحققها لنفسه وفنه، إلا إذا شرب هذه الكمية الهائلة من الخمر. . وقالوا: إنها الزجاجة الثانية في ذلك الصباح. . وقالوا أيضاً: بل إنها الزجاجة الرابعة في الأربع والعشرين ساعة الماضية!

ومثله في الدنيا كثيرون. فنانون وغيرهم. . ولكنه أول إنسان أراه قد حصل على جائزة نوبل، وأول أديب عالمي أراه عن قريب!

والخمر عمرها على الأرض ألوف السنين. والإنسان اخترعها ليجعل لدنياه لوناً وطعماً وليحرر نفسه من قيود العقل. إن «التوراة» تقول لنا في سفر «التكوين» إن نوحاً عليه السلام هو أول من صنع النبيذ وإنه شرب حتى سكر وتعرى في خيمته؟!

وكأن ذلك كان نوعاً من طلب الراحة والبهجة بعد عذاب الطوفان. وفي كل الحضارات القديمة ظهرت الخمور: خمير التفاح والعنب والشعير ونباتات أخرى كثيرة. وقد خلطوها بالسكر وبالعسل. وعصروا منها

الكحول وشربوه خالصاً بغير ماء وبغير طعام. . واعتادوا على ذلك ثم أدمنوا الشراب. .

وبعد الخمور ظهرت كل أنواع الأعشاب والثمار التي تجعل الإنسان أهدأ، أو أكثر مرحاً. ظهرت المهدئات والمنومات والمضحكات. . ولكن لا أحد يعرف بالضبط متى اهتدى إليها الإنسان. ولكن وجدنا ذلك في كل وقت.

فالمؤرخ الإغريقي هيرودوت يحدثنا عن الناس الذين يأكلون بعض الأعشاب ثم يضحكون. . وقال إنه وجد ذلك في مصر، وإن لم يكن المصريون هم الذين استخدموا ذلك. . وقبائل الهنود الحمر عرفت هذه الأعشاب وكانوا يستخدمونها قبل الرقص. ويؤدي الرقص والحركات العنيفة إلى تنشيط المعدة وتفاعل هذه الأعشاب داخلها حتى يكون لها الأثر المطلوب. وقد أحصى العلماء أربعين عشباً مع دماء بعض الحيوانات والحشرات، تؤدي إلى النشوة، عند قبائل الأفاخو والأباش. ولم تكن هذه القبائل تستخدم هذه الأعشاب إلا لعلاج المرضى. ومن المؤكد أنها لم تكن تشفي المرضى وإنما كانت تخفف الألم، أو تقلل الإحساس به. . وقد لاحظ الأثريون أن كثيراً من المرضى كانوا يسقطون على الأرض بلا إحساس، ويظلون هكذا حتى يموتوا!

حتى الطباق ـ الدخان ـ استخدمه الهنود الحمر للطعام. فكانوا يطبخونه كالملوخية ثم يشربونه بعد ذلك. ثم استخدموه كنوع من البخور يحرقونه في البيت، لتكون له هذه الرائحة القوية. . ثم جعلوه على شكل لفائف وأشعلوه وملأوا به صدورهم. . وعندما اكتشف كولومبوس أمريكا عاد بهذه اللفافات إلى البلاط الملكي الأسباني. . ثم

إلى أوروبا كلها والعالم. . لقد بدأت أشجار الدخان تدخل أوروبا للزينة، وبعد ذلك حدث ما نعرفه جميعاً. وأشجار القطن عندما دخلت مصر، كانت للزينة. . وكذلك نبات «ورد النيل». . ثم كان القطن حياتنا التي يحاول «ورد النيل» أن يقضي عليها!

وقد أدت الطقوس الدينية إلى انتشار المخدرات والمنبهات والمهلوسات أيضاً. فالهنود الحمر وغيرهم يتعاطون بعض الأعشاب مثل عش الغراب وغيره من النباتات التي تؤدي إلى نوع من الهلوسة البصرية والسمعية والشمية. فهذه الأعشاب تؤدى إلى أن تمتلئ الدنيا فى عينى وأذني وأنف من يتعاطاها بما لا نهاية له من الطيور والزهور والحيوانات والكائنات الخرافية. . ويؤدي إدمان هذه الأعشاب إلى أن يعتاد الإنسان على هذه الدنيا الزائفة ويفضل أن يعيشها بعيداً عن الواقع.

والفيلسوف الألماني شوبنهاور يدعو إلى ذلك. لماذا؟ لأن أسمى مشاعر الإنسان هو أن يتأمل. وإذا تأمل تعطلت الإرادة الإنسانية ليفرغ الإنسان إلى ما هو أسمى من الرغبات. . إلى أن يتأمل نفسه والكون حوله.

ويقول الفيلسوف الألماني نيتشه داعياً إلى مثل هذه «الحالة الزائفة» إنه لا سبيل إلى أن يتحد الإنسان بالكون ويلغي فرديته تماماً، إلا بأن تزول هذه الفوارق بينه وبين الوجود. . فيكون هو والوجود شيئاً واحداً ـ إنها بعض النشوى الرفيعة!

والديانة الهندية تصفها بأنها حالة «النرفانا» ـ أي حالة البركة. . السعادة بالابتعاد عن كل شيء. . وعدم الرغبة في أي شيء. . فقط أن يشعر الإنسان بأنه أسمى الكائنات!

وعرف الإنسان الحشيش واستخرج الأفيون والهروين والكوكايين.

واستخرج كيماويا كل المواد المنبهة من مثل: الأستركنين والنيكوتين والكافيين الموجود في القهوة والشاي والكوكايين الموجود في شجرة الكاكاو. . واستخرج الأمفيتامين وهو المادة التي يفضلها السائقون والطلبة والرياضيون لأنها منشطة وتزيل التعب. ولكنها في نفس الوقت تجعل الإنسان غير قادر على التركيز والربط بين الأشياء كما إنها تصيبه بزوغان في العين وارتجاف في الأصابع وبالأرق والإمساك. . وهذه المادة الخطرة موجودة في كل حبوب التخسيس وهي ترهق القلب وتتلف خلايا المخ. . فكأنها تحرق الإنسان لكي تضيء به وتضيء له.

وبعض الناس يتعاطى المنبهات فيكون كئيباً ولديه رغبة في الانتحار أو القتل. . وبعض الناس يشعر بالخفة والمرح والرغبة في الضحك. ولكن إدمان هذه المواد هو الذي يجعل حياة الإنسان في خطر لأنه الخطوة التالية أن ينهار بعضه فوق بعض: عقله في جسمه. . أو تتعطل كل وظائفه. . ويصبح جسمه مقبرة لإنسان كان حيا ثم اختار أن يموت بيديه!

ولم يحدث في تاريخ الإنسان أن أقبلت الملايين على تعاطي كل هذه الكميات من المهدئات والمنومات والمخدرات والمنبهات والمهلوسات والمثيرات جنسيا، كما حدث في أعقاب الحرب العالمية الثانية. . وفي أعقاب هزيمة أمريكا في حرب فيتنام. فقد أقبل الشباب على إدمان كل شيء. وهربوا من بيوتهم إلى الحانات، ومن الحانات إلى الكهوف ومنها إلى الغابات. . وهربوا من أمريكا الشمالية ليموتوا بالمئات معاً في أمريكا الجنوبية، وهم سعداء بذلك.

فقد كان الإدمان ديناً جديداً. ولم يكتف الشباب بتعاطي هذه المواد على شكل حبوب وإنما أخذوها في الدم ـ حقنا لتكون أسرع في نقلهم من هذا العالم إلى العوالم الأخرى التي يفضلونها على الواقع الأمريكي أو الأوروبي أو الآسيوي أو العربي.

وفي مصر انتشرت كل هذه المواد الطبيعية والكيماوية.

وأذكر أنني كتبت مقالاً سنة ١٩٧٠ أحذر من انتشار عقار الهلوسة «ل س د» وقلت إنني أعرف طلبة ومدرسين في الجامعة الأمريكية يتعاطونه. وجاءني رئيس الجامعة شديد القلق والفزع وسألني عن أسماء المدرسين والطلبة فقلت له: إنني متأكد من معلوماتي وإن طالباً قد جلس على مقعدك هذا قد أطلعني عليه. ولم أكن قد رأيته من قبل!

و «ل س د» اختصار «لسرجيك أسين ديثيلامين» قد اخترعه طبيب سويسري من خمسين عاماً. وهذا العقار أكثر انتشاراً من أي شيء آخر. وهو أقوى مفعولاً وأطول أثراً من أية مادة كيماوية أخرى.. وهذا العقار مسئول عن كثير من جرائم العنف وكثير من الإصابة بانفصال الشخصية أو الانفصام في السلوك الاجتماعي والديني والسياسي.

ونحن نعرف جريمة قتل المطربة الأمريكية «شارون تيت» لقد أعلن القاتل فى المحكمة أنه ملحد وأنه إذا كان لابد أن يختار له إلها قبل أن يموت فهو: «ل. س. د». القادر على كل شيء؟!

ولقد قام الأديب الإنجليزي الدوس هكسلي بتجربة مشهورة سجلها في كتابه «مداخل الحس» فقد حقن نفسه بمادة «المسكالين» وراح يصف مشاعره أمام جهاز تسجيل.. وطلب إلى زوجته أن تراقب بمنتهى الدقة شكله، الخارجي.. وجهه.. وعضلات عينيه وشفتيه ودرجة حرارته والعرق الذي يظهر على وجهه.. ومما قاله

هكسلي في كتابه: إنه رأى الدنيا وقد امتلأت بالألوان والأشجار والطيور والفتيات الجميلات. . وإن الصور تتحول إلى أشجار والأشجار تتحول إلى رجال. . والرجال يصبحون حيوانات. . وإن كل شيء يدخل في الآخر ويذوب فيه ويتحول به وعن طريقه إلى شيء آخر. . وإن جسمه لم يعد له وزن. . بل إنه لا يعرف إن كان له جسم أو إنه روح. . ولا يعرف إن كان الكلام يخرج من فمه. . أو يخرج بغير فم. . وعندما يسمع نفسه يتكلم فهو ليس على يقين إن كان هو الذي يتكلم أو كان هو الذي يسمع.

أما أمير الشعراء الإنجليز روبرت جريفز في دراسة للأساطير الإغريقية فقد رأى أن هذه الأساطير كلها قد جاءت بفعل المخدرات أو أعشاب الهلوسة، وقد عرفها الإغريق. ولذلك وجدنا في أساطير الإغريق رجالاً كالجبال، وطيوراً تحمل الرجال ووجدنا الأمواج أذرعاً وسيقاناً ووجدنا الحيوانات تتحول إلى الآلهة، والآلهة إلى بشر، والكون كله يتداخل بعضه في بعض. وليس ذلك إلا بسائر أعشاب الهلوسة!

وقيل أيضاً إن المغامرات التي جاءت في «ألف ليلة وليلة» إنها أيضاً بفعل الهلوسة. ففيها طيور تحمل الرجال، وفيها حيتان في حجم الجزر، وفيها الإنسان يصبح عفريتاً، والعفريت يصبح حيواناً، وكل ذلك من صنع الحشيش أو المخدرات الأخرى.

ولكن ظهرت نظرية جديدة تقول إن الذي جاء في أساطير الإغريق وفي «ألف ليلة» ليس بفعل الحشيش ولكنها الحقيقة. فقد هبطت من الكواكب الأخرى كائنات أكبر وأضخم ومعها حيوانات أعظم، ولها جميعاً قدرات خارقة لا نعرفها. . ولأسباب غير مفهومة لدينا، اختفت

هذه الكائنات فعادت إلى السماء. . بل إن الجنة التي هبط منها آدم وحواء ليست إلا كوكباً آخر.

وعلى ذلك فلابد من تفسير ما وصفه النبي حزقيال في التوراة على نحو جديد. . فقد كان يمشي بالقرب من بغداد. وفجأة وجد مركبة نزلت من السماء، لها دوي وتخرج منها النيران. . ولها عجلات، وقد أثارت الغبار والعواصف في كل مكان. . وقال المفسرون القدامى إن النبي حزقيال قد تنبأ بالطائرات وسفن الفضاء. ولكن الحقيقة أن هذا هو ما حدث. فقد نزلت سفن فضاء وأطباق طائرة في أماكن كثيرة من العالم. . وقد شاهد هيرودوت الأطباق الطائرة في سماء مدينة منف عاصمة مصر القديمة، وكل ذلك يؤكد أن كائنات أخرى جاءت من حضارات أكثر تقدماً، ونزلت على الأرض، وسجلها الإنسان مبهوراً بها في أساطير الإغريق والهنود والفرس وفي ألف ليلة.

وكانت لهذه المخدرات أو الهلوسات آثار سياسية عنيفة.

فالصين قد اشتبكت في حرب الأفيون، أي ضد الأفيون الذي كانت تبيعه الشركات الإنجليزية لشعب الصين في القرن التاسعَ عشر. وحاربت الصين هذا الوباء. وفشلت. ثم حاربت الشركات البريطانية التي تحتكر التجارة مع الصين، وتحتكر نقل الأفيون من الهند. وانتصرت عليها. ولكن شركات فرنسية وأمريكية استأنفت هذه التجارة التي أبادت الشعب الصيني ـ عندما بددت طاقته وامتصت حياته وألقت بمئات الملايين من الدائخين في الحقول وفي البيوت. ثم تمكنت الصين في النهاية من تحريم الأفيون. وكان ذلك أعظم انتصار لها على القوى الأجنبية المدمرة، وعلى نفسها أيضاً!

والقوات الأمريكية التي عادت من آسيا، لم تعد سالمة. فقد أدمنت كل أنواع المخدرات ولا تزال. وأمركيا التي لم تحارب عدوا على أرضها، قد انفرد بها أعدى أعدائها: الملايين الحشاشون من أبنائها. . فالحشيش وغيره له رائحة قوية في كل أمريكا فإن فاتك أن تشمها في رياض الأطفال، ففي استطاعتك أن تجدها في البيت الأبيض!

وفي مصر تجدها في المدارس وفي الأندية الرياضية.

ولكن لماذا كل هذه العقاقير ولماذا بهذه الكثرة وبهذا الإسراف والإدمان؟ وإذا لم تكن هذه الأعشاب موجودة، لاخترع الإنسان بديلاً عنها. والذي يندهش لهذه «الدوخة» التي ينشدها الإنسان لا يفهم طبيعة الإنسان. صحيح أن الإنسان هو الحيوان العاقل الوحيد الذي نعرفه ـ أي إنه يستخدم المنطق في أفكاره وأفعاله. ولكنه بسبب ذلك المنطق، يجب أن يتحلل منه وأن يتخفف وأن يسترخي. . تماماً كما تعود من عملك إلى بيتك فإنك تفك ياقة القميص والكرافتة والزراير وتخلع الحذاء والجورب وتمشي عارياً أو ببعض ملابسك. . وعندما تذهب إلى المصايف فإنك تتحلل من كل القيود التي يحتمها عليك عملك.

فالإنسان يتعاطى هذه المخدرات طلباً للراحة. .

أو هرباً من الواقع الذي يعيشه. فهو يزيف لنفسه عالماً آخر. . هو الذي يسميه الشاعر الفرنسي بودلير «الفردوس المزيف» ـ وكان هو الآخر حشاشاً معروفاً. ثم يتسلل إلى هذا الفردوس المزيف. ويعتاد على ذلك. وتصبح الإقامة فيه جبرية ـ لقد «أدمن» ذلك!

أو هو نوع من الاحتجاج على الواقع الذي يحتم علينا اليقظة وأن يكون لنا دور. وأن نكون طرفاً فعالاً في كل الذي يجري أمامنا. ولكن

لأننا لا نريد هذا الواقع ولا نحب أن نشارك فيه، فإننا نركب السحب الزرقاء أو نستسلم لحقن الهذيان وندخل في ديانة أخرى ونستسلم لصاحب هذا الدين. ونرى في الاستسلام له راحة لنا من التفكير والإرادة. وأن نمشي وراءه إلى الموت. فالموت معه خير من الحياة مع الأب والأم والمدرس ورجل الدين ورجال السياسة والإدارة والحكومة ـ ألوف الشبان الأمريكان والإنجليز والألمان فعلوا ذلك. لقد فضلوا الموت هناك، على الحياة هنا..

إنها مرة أخرى مأساة «شيخ الجبل» ذلك الرجل الشيعي الذي كان يطلب إلى أتباعه أن يقتلوا أو يسفكوا الدماء.. فإذا فعلوا فلهم مكافأة أن يدخلوا الجنة فكان يقدم لهم الحشيش مع الفتيات الجميلات.. وقبل أن يفيقوا يلقي بهم خارج القلعة التي كان يعيش فيها «حسن الصباح شيخ الجبل» وقد دخلت قاموس العنف والاغتيال السياسي كلمة «الحشاشون».. أو الأساسان ـ بمعنى القتلة بسبب الحشيش أو من أجله.. وكذلك كان يفعل الشبان الأمريكان، ويفعل المدمنون في أي مكان.

أو يتعاطون بعض هذه المخدرات لأسباب غرامية أو جنسية. وقد شغلنا الجنس كثيراً وطويلاً منذ كانت الحياة على هذه الأرض، ولذلك فهناك عقاقير للفحولة الجنسية، وعقاقير لإثارة الخيال أو هكذا يتوهم الرجال من ألوف السنين..

وفي فيلم إيطالي حديث ظهرت الممثلة «كانديس برجن» تنصح زوجها «جاك ليمون» بأن يكف عن تعاطي المخدرات.

فقال لها: أنت معجبة بكاري جرانت وأنا معجب بمارلين مونرو. فما رأيك!

قالت: لا أفهم..

قال: إذا أنت وأنا تعاطينا هذه المخدرات فسوف أراك أجمل امرأة وترينني أجمل رجل فما رأيك؟

و امتدت أيديهما معاً إلى أقراص الجنة الزائفة والسعادة المزورة!!

«وأقراص السعادة» هذه تتكون من مواد كيماوية تطلق العقل من قيوده.. وتدخل الحواس بعضها في بعض.. وقد تنافست الشركات الطبية في صنع مواد ضارة تماماً.. مع إضافة أعشاب «جنس» من كوريا وخلاصة غدد التمساح وقرن الغزال ورجل الضفدع! ولأن الإنسان يريد ذلك، فهو يصدقه. ولأنه يصدقه فهو يدفع ألوف الملايين. وكما أن الأطباء قد عجزوا عن إقناع الناس بالأضرار الصحية للقبلات، فسوف يعجزون إلى الأبد عن إقفال الأبواب والشبابيك والسراديب إلى الجنة الخرافية التي تتوهم أن الحياة فيها «هي الحياة» مع أننا نقتل أنفسنا من أجل أجسادنا.. بل وأجسادنا أيضاً!

يجب أن تقاومه
وتقومه وأنت فيه

في سنة ١٧٧٩ قررت قبائل جزر هاواي قتل الرحالة الإنجليزي كابتن كوك الذي اكتشف هذه الجزر. ومات كوك دون أن يعرف السبب.. فقد سرقت القبائل أحد زوارقه الصغيرة. فأطلق النار على رجالها ونسائها.. وكانت القبائل سعيدة بذلك.. فهم اعتقدوا أنه نصف إله.. أليس طويلاً أبيض أحمر الشعر أزرق العينين.. قد جاءهم على سفينة ذات أجنحة بيضاء كأنها جزيرة عائمة ـ هكذا قالت أساطيرهم.. ثم إنه عندما قتل رجالهم أطلق عليهم النار، تماماً كأنه أصابهم بالرعد والبرق.. فلم يموتوا غرقى ولا أصابتهم الرماح والسهام والنبال.. إذن لقد ماتوا أعظم ميتة.. فكيف لا يكونون سعداء بهذا الشرف.. ولكنهم قتلوه.

والمؤرخون بعد مائة عام عرفوا السبب. فقد أتى كابتن كوك بشيخ شيوخ القبائل ووضعه عارياً تحت الشمس مقيد اليدين والساقين فاتحاً عينيه في الشمس لعله يصاب بالعمى. ولكن هذا الشيخ لم يقل: آه.. ولا انطفأ نور عينيه. ولم يدم عذابه أكثر من يومين. وكان الكابتن كوك يدور حول الرجل ويركله بقدميه، وأحياناً يبصق على وجهه.. ثم نشتمه. ولم يكن ذلك السبب أيضاً في أن القبائل تشجعت وأطلقت

السهام والنبال على الرحالة حتى مات. وإنما السبب هو أنه عندما كان يدور حوله، كان يدوس فوق «ظله». . وهم يعتقدون أنه إذا أراد أحد أن يقتل أحد داس على ظله. أما إذا أراد تعذيبه في العالم الآخر، فعل ذلك كثيراً. . وما دام هذا الرجل هو شيخ القبيلة، فمعنى ذلك أن تتعذب كل القبيلة بعد الموت. . لأنهم سوف يذهبون إلى حيث يذهب شيخهم. . وكان ذلك أكبر من أن يحتملوه.

وقبائل أخرى في المحيط الهادي ترى أن الإنسان الحي، هو الإنسان الذي له ظل. وهو له ظل لأنه يتحرك في الشمس. أما الذي لا يتحرك فهو ميت. ولذلك ففي لغتهم يقولون: فلان ميت، أي في البيت. . أو نائم. . لأنه بلا ظل.

وفي قبيلة مارادوكا في البرازيل عندما يقررون قتل أحد من خصومهم، فإنهم يجعلونه يقف عند الشروق أو عند الغروب ليكون ظله أطول. ويجيء ساحر القبيلة ليدلهم على كيفية قتله. فيمسك سهماً ويدقها على ظله. . على رأسه ـ مثلاً ـ أو عند بطنه أو عند ساقيه. . ويكون ذلك أمراً بتنفيذ القتل في المكان الذي اختاره من ظل العدو.

واعتقدت الإنسانية أن هذا الذي في داخل جسم الإنسان وليس شيئاً ماديا هو «النفس». . والنفس هي النفس ـ بفتح الفاء. إذن فالإنسان الحي هو الذي له نفس. . أي الذي يتنفس. فإذا سددنا أنفه وفمه فإنه يموت.

وقد لاحظت الأخت فرانشيسكا الليجرا الراهبة التي عاشت بين قبائل «أنديجا» في البرازيل أنهم يدفنون الأطفال الصغار، رغم أن هؤلاء الأطفال أحياء. . ثم عرفت السبب. فالأم تجيء بالقرب من الطفل

المولود وتضع أذنها عند أنفه، فإن سمعته يتنفس تركته، وإن وجدت الطفل لا يتنفس اعتقدت أنه ميت.

أما من أين يجيء هذا «النفس» فهم يعتقدون أن طيوراً تحملها إلى المولود. أو أنها روح واحد آخر قد مات.. ولذلك فهم يفضلون أن تلد الأم في العراء.. أو بالقرب من بيت مات فيه أحد، لكي تحل في طفلها روح الميت.

ولكن الديانات القديمة السماوية وغير السماوية، قالت إن هناك روحاً. هذه الروح هي التي تحرك الجسم الإنساني. وإذا اختفت مات. أي إذا استرجعت السماء هذه الروح، استردت الأرض هذا الجسم أيضاً. وفي الروح تكمن كل إرادة السماء: الخير والعمل الصالح.. أما الشر فهو يكمن في النفس.. أي في داخل الجسم الإنساني: نفس شريرة وروح طيبة.. أو أن النفس والروح شيء واحد.. عندما تتسلط النفس على الإنسان فهو شرير. وإذا انتصرت الروح كان طيباً خيراً.

والروح تنفصل عن الجسم عند النوم. وتنفصل عنه عند الموت. فالنوم موت قصير، والموت هو النوم الأبدي.

والديانة الهندية وكذلك الديانة الفرعونية تؤمنان بأن الأرواح تخرج من الأجساد إلى أماكن أخرى، وراء هذا العالم، وفي هذا العالم تستأنف حياتها من جديد. ولذلك فالميت يجب أن نضع له الطعام والشراب وكل احتياجاته في قبره. حتى إذا عادت إليه الروح استأنف حياته فوراً..

وهناك اعتقاد عند الهنود أيضاً بأن روح الإنسان عندما تخرج من

جسمه، فإنها تحل في أجسام حيوانات أو نباتات أو طيور أخرى. وتموت هذه الحيوانات فتنتقل الروح إلى أجساد أخرى، إلى أن تتطهر تماماً.. وبعد ذلك تنتقل إلى عالم الطهارة المطلقة.. تماماً كما تغسل يديك في الطين وبعد ذلك في الزيت وبعد ذلك في ماء النهر ثم في اللبن. وتظل تنظف يديك من سائل إلى سائل حتى تصبح اليدان طاهرتين تماماً.. وكذلك الروح. وقد لجأ بعض الرهبان إكراماً للفقيد الغالي إلى الإتيان بإنسان ميت إلى جوار الذي سوف يموت،فإذا خرجت روح الميت وجدت جسماً ميتاً رحلت فيه. ويكون جسم الميت سجناً مؤقتاً للروح.. وبذلك لا تتعذب!

وهذا يفسر لنا لماذا يذبح الرهبان الحيوانات عند أقدام الموتى.. ولماذا يأتون بأغصان الشجر.

السبب: أن الذبائح حيوانات قد ماتت.. والأغصان أشجار ميتة، فالروح إذا حلت بها فقد حلت بجسم ميت فلن تتعذب ـ لأن هذه الأشجار والحيوانات بلا حياة!

وفي ديانة كونفوشيوس يفسرون لماذا يكره بعض الناس القطط أو الكلاب.. ليس هناك إلا سبب واحد هو أنه دخلت في جسمك روح قط، ولذلك فأنت تكره الكلاب، وعكس ذلك صحيح.. أو لماذا تحب إنساناً من أول نظرة؟ السبب أنك قد أحببته قبل ذلك عندما كانت روحك في جسم آخر. ولماذا تكره إنساناً من أول نظرة؟ السبب هو أن بينكما حسابات قديمة لم يتم تصفيتها بعد. هذه الحسابات عندما كانت لكما حياة سابقة.

وفي الديانة الزرادشتية مثل هذه العبارات التي كان يتغنى بها النبي

زرادشت: أوسع من السماء، أعمق من المحيطات: روحي وروحك.

ويقول: الروح ضيف أبدي على مائدة حقيرة هي جسمك وجسمي.. ويقول: أرواحنا الواسعة محبوسة في صدورنا الضيقة.. ويقول: الروح وتر في قيثارة الله، تنسجم مع موسيقى الكون كله.

وعندما ذهب الأستاذ لمبروز عالم السلالات البشرية إلى جزيرة تسمانيا لاحظ أنهم يعلقون قلباً ينزف دماً على مدخل كل قرية.. وظن لأول وهلة أنه قلب مجرم أو لص.. أو قلب بعض الحيوانات التي ارتكبت جريمة.. وعندما اقترب من هذا القلب وجده من البلاستيك، ووجد أنهم يملأونه دماً.. كل يوم. أما المعنى فهو أنهم يريدون أن يقولوا أن قلب القبيلة، وهو شيخها، حي في صحة جيدة.

وعرف منهم أنهم يعتقدون أن الإنسان له قلبان: قلب في صدره وقلب في رأسه. وأن الإنسان الحي هو الذي له قلب هنا وقلب هناك.. فالروح أو النفس هما هذان القلبان.

وعرف منهم أيضاً أن الإنسان يعيش مرتين: مرة في بطن أمه.. ومرة عندما يخرج منها.. وأنه يموت مرتين: مرة في بطن أمه عندما لا يكون له قلب، ومرة بعد أن يولد.

وحاول كثير من الباحثين أن يجدوا مصدر مثل هذه الأفكار المتطورة. فليس في الإمكان أن تكون منقولة عن الحضارة الهندية أو الصينية.. فالمسافة بين هذه الجزر والصين واليابان ألوف الأميال.. وآخر ما اهتدى إليه العلماء هو أنهم اكتشفوا أن هذه القبيلة و اسمها «ماليكار لوكا» هي بقايا قبائل انقرضت من ألوف السنين.. وأن هذه القبائل التي انقرضت

قد هاجرت قبل ذلك من أماكن غير معلومة تماماً. . وأنه ليس بعيداً أن تكون هذه القبائل قد هبطت إلى الأرض من كواكب أخرى. . خاصة أنهم وجدوا عندهم سلاسل من الذهب النقي جدا. . والذي لا يمكن أن يكون بهذه الصورة إلا إذا وضع في حرارة تصل إلى ألف درجة مئوية ـ فكيف يستطيعون ذلك؟ وأعجب من ذلك أنهم وجدوا لديهم نقوشاً في بعض الكهوف لحيوانات وطيور قد رسمت من عشرين ألف سنة!

فهذه القبائل إذن هي بقايا مجتمعات أكثر حضارة، عاشت وانقرضت من وقت طويل، دون أن تترك آثاراً واضحة لحياتها السابقة. . أو أنها تركت آثاراً واختفت تحت أمواج المحيط بسبب طوفان أو احترقت وغرقت. . وحتى الآن لا توجد أية أدلة قاطعة على كل ذلك.

وفي جميع المعتقدات البدائية والعقائد الدينية دعوة أن يسيطر الإنسان على جسمه. . يتحكم في رغباته ونزواته. . وأن يكون ذلك عن طريق النفس أو الروح أي عن طريق قوة أسمى وأرفع في داخله. . فإذا رأى الطعام وامتدت يده لخطفه، سحبته في قوة داخله بألا يفعل ذلك. . وأن يعرف حدوده وحدود الآخرين. . وحتى لو كان هذا الطعام ملكاً له، ألا يسرف فيه. فذلك أصح لجسمه ونفسه. . وأسلم لكل الناس.

وكل الأديان، في كل الأوقات تدعو إلى الاعتدال والزهد وتطيب الروح على الجسد. . فالجسد أحط، والروح أسمى. . والجسد من الأرض، أو هو الأرض، والروح من السماء أو من الله. . أو هي الله. والقرآن الكريم يقول ﴿قل الروح من أمر ربي﴾.

ويقول الإمام الغزالي: إن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يعرف

الروح أو يطلب إلى الإنسان ذلك، لأنه أمر صعب. . ولأن الروح ومشاكلها أكبر من أن يحيط بها الإنسان المؤمن البسيط. وإنما ترك الروح والمشاكل المعقدة، للمفكرين والفلاسفة، يفعلون ذلك بعيداً عن المسلمين البسطاء حتى لا يفسدوا عليهم نعمة الإيمان. . وحتى لا يفرقوهم في تساؤلات يطير لها النوم الهادىء والإيمان العميق.

وكل الديانات تفرق بين النفس وبين الروح. . فالنفس هي التي تأمر بالسوء. . والروح هي القوة النبيلة في الإنسان وهي التي تسيطر على نزعاته الشريرة. . وكلما أفلح الإنسان في السيطرة على جسمه، كان أعقل وأطهر وأنبل وكان طريقه إلى جنات النعيم أسرع وأوسع.

والقرآن الكريم يرى أن القلب هو النفس وهو الروح وهو العقل وهو الطاقة وهو الحياة. وهو معنى أقرب إلى فهم كل الناس. فبغير قلب لا حياة، والقلب يدق عالياً ومنخفضاً. . والقلب هو مصدر الحياة وبغيره لا حياة. والحياة هي الدم، وكل طعامنا في الدم، وكل الدم من القلب.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة لمئات المعاني:

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب - أنزل السكينة في قلوب المؤمنين - الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم - وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة - ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك - ومن يؤمن بالله يهد قلبه - ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا - وارتابت قلوبهم - في قلوب الذين كفروا الرعب - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾.

فهناك جسم وقلب هو الذي يبعث فيه الحياة.

أما الاتجاهات العلمية المعملية، فهي ترى أنه لا يوجد شيء اسمه: نفس أو روح. . لأن هذه النفس لا يمكن رؤيتها ولا يمكن قياسها ووزنها. فكل ما هو مادي هو حقيقي. . وكل ما يمكن حسابه في المعمل فهو الموجود. أما الروح والحياة والوجدان فتلك تعبيرات أدبية شعرية رومانسية. ولكنها ليست مفردات علمية. وعلى ذلك فلا يوجد علم للنفس، وإنما علم وظائف الأعضاء. . أو علم السلوك الفردي والجماعي. . أو النشاط الجسمي الذي هو تفاعلات كيماوية حيوية. . ومن هذه التفاعلات تكون الحياة والموت. . الصحة والمرض. . الراحة والتعب. . السعادة والعذاب. . ولا توجد علوم الروح أو الروحانيات ولذلك فلا حياة بعد الموت ولا بعث ولا قيامة. . الخ.

ولكن العلوم الحديثة جدا تؤكد أن هناك طاقة. . هذه الطاقة تتولد من كل شيء مادي، ليست مادة وإنما هي أقرب إلى الروح. . فكل جسم يمكن تحويله إلى طاقة. . إلى حرارة إلى كهرباء إلى ضوء. . والضوء ليس ذرات من المادة. . وإنما هو نشاط غير مادي. . إنه روح. . فالعلم الحديث يدعو إلى الإيمان بالروح. . إلى الإيمان. . وإلى التواضع أمام ألغاز الحياة الإنسانية والكون كله. . وكما أن هناك قوانين وقواعد تمسك الأشياء أيا كان حجمها تحت الميكروسكوب أو في الفضاء. فالقانون هو الحكمة، والحكمة وراء كل ذلك هي الله. . والروح في كل جسم إنساني هي حرارة من شعلة مقدسة هي الله.

وكل الأديان تدعو إلى الاخلاقيات العامة. . أي سيطرة الروح، التي هي من عند الله، على الجسم من أجل صحة الفرد وسلامة المجتمع وانسجام الكون كله.

والروح لها برنامج عمل. . هذا البرنامج هو ما يدعو إليه الدين. وما يدعو إليه الدين، هو ما يأمرنا به الله. . لصالحنا نحن وسلامتنا نحن. . وخيرنا نحنِ في هذه الدنيا وفي الآخرة!

إذن إذا كان الناس يتشابهون في أفكارهم وفي أقوالهم وفي ملابسهم، فإنهم يختلفون في أجسامهم. . ورغم اختلاف الأجسام، فإننا نتشابه في «سياسة» هذه الأجسام. . في ترويضها واستئناسها وتذليلها وانقيادها. . وبذلك نرتفع بأنفسنا عن الحيوانية والمادية.

والدين يدعو إلى ذلك. .

وننسى ذلك ونستمع إلى التمرينات الرياضية. . وقواعد الريجيم. . من أجل الصحة والرشاقة والجمال. . ولو نظرت إلى وجوه المؤمنين وإلى بشرتهم النضرة وهدوئهم العميق والسماحة والرضا، لوجدت أن كل قواعد الرياضة والرشاقة موجودة في الصلاة والصوم وفي راحة الضمير ـ فإن فعلت ذلك، فلست في حاجة إلى تعذيب جسمك بالرياضة العنيفة، وتجويع نفسك بتعاطي المواد الكيماوية التي تسد النفس وتصيبك بالأرق وضغط الدم ـ فأنت بالدين تكسب دنياك وآخرتك معاً. ولكننا ننسى، نتناسى.

وأنقل إليك صورة من تعاليم اليوجا، في لغتها الرمزية من كتاب الأستاذ منتا بوهاناي الذي عنوانه «فقط من أجل سعادتك الشخصية».

سؤال: قل لي يا أستاذ. . ما الذي أستطيع أن أفعله في بيت به ثلاث حجرات وليس به إلا مقعد واحد وسكين وطبق وليست له نوافذ؟

جواب: يدهشني أنك تسألني يا ولدي. . لا تسأل ولا تضيع وقتك

في التساؤل. . حرك يديك وساقيك وعينيك وافعل ما بدا لك.

سؤال: لا أفهم يا أستاذ فأنا حائر. . إذا كان الكرسي للجلوس فأين أنام؟. . وإذا كان السكين لقطع الأخشاب فما الذي أضعه في الطبق؟

جواب: غريب أمرك يا ولدي. . ليس هناك أكثر مما لديك. . ولن يكون. . وفي استطاعتك أن تجلس على المقعد أو تنام. . وفي استطاعتك أن تفتح نافذة أو باباً في الحائط، فمن أجل ذلك كان السكين. . وفي استطاعتك أن تخرج إلى الطريق والطبق في يدك تطلب من الناس أن يعطوك. . في إمكانك أن تنام أمام البيت، إن ضاق عنك أو ضقت به. . وأن تترك البيت للكلاب والقطط. اتركه حظيرة للبهائم. . اجعله معبداً. . اجعله مقبرة لك. . ما أكثر ما تستطيع عمله يا ولدي إذا أردت. . انظر إلى ذلك الراهب. . الذي أغمد السكين في بطنه. . لقد كان له أكثر من بيت، ولكنه قرر أن يستغني عنها جميعاً.

سؤال: ولكنني لا أفهم يا أستاذ. . إنني لا أسألك عن هذا البيت الذي تراه هناك. . ولا عن السكين ولا عن الطبق. . أنا أسألك عن شيء آخر. .

أجاب الأستاذ ضاحكاً: ومن قال إنني أحدثك عن هذا البيت. . إنني أقصد هذا البيت (وراح يدق كرشه ورأسه).

يبقى بعد ذلك أن أنتقل إلى الحديث عن شيء آخر ليس هو جسمك وليس هو جلدك ولا بشرتك أو شعرك أو أنفك أو شفتيك.

فالإنسان له ثوبان:

بشرته وملابسه. وكما أن جسمه يدل عليه، أو هو يحاول أن يجعلنا

نعرفه من الذي يفعله بجسمه، فإن ملابسه أيضاً أكثر دلالة على ذلك.

وتاريخ الملابس التي يصنعها الرجل والمرأة، هو تاريخ القلق النفسي والاقتصادي والديني والسياسي أيضاً.

تقول السيدة كوكو شانيل، في كتابها «حياتي» وهي صاحبة دار الأزياء والموضات والعطور التي تحمل اسمها: الرجال الآن يدفعون ثمناً فادحاً لغلطة ارتكبوها مئات السنين.. فقد اتجهوا إلى قراءة التاريخ على جدران المعابد وفي الكتب.. إن التاريخ ليس هناك.. إن أكثره مكتوب بالحرير والقطن والصوف والجلد.. إنه منقوش ومطبوع على فساتينها.. بمقص الرجل وبفلوسه أيضاً!

مـن أجـل المسـاواة
كانت «البهدلة»: موضة!

يقـال إن الملك سليمان صنـع قصراً له أرض من الزجـاج، وتحـت الزجاج ماء وفي الماء سمك.. أما السقف فكان من المرايا.. وأما الهواء فقد كان بحراً من البخور والعطور، حتى إذا جاءت بلقيس ملكة سبأ سقطت مبهورة، فانكشف ثوبها عن ساقيها فقد قيل للملك إن ساقيها تشبه أرجل الماعز جافة مليئة بالشعـر. وقيل أيضـاً إن بلقيس كانـت ترتدي أثواباً عديدة. ولذلك جعل الملك سليمان للقصر أبواباً ينفذ منها هواء عاصف ليطيح بكل ملابسها. ولكن القرآن الكريم يقول إن الملك سليمان أراد أن يريها قدرته وعظمته ولأنه نبي فقد أعطاه الله الكثير الذي يجعلها تترك دينها وتسلم لله.. قال تعالى: ﴿قيل لهـا ادخلي الصـرح، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها. قال: إنـه صرح ممـرد من قوارير. قالت: رب إنـي ظلمـت نفسي وأسلمـت مع سليمان لله رب العالمين﴾

إذن لقد كان من عادة المرأة على أيام بلقيس أن ترتدي أثواباً طويلة كثيرة. فإذا تخففت من بعض ذلك، فهذا هو العيب الأخلاقي. وتقول الأساطير إنه كان لا بد من حيلة لتكشف المرأة عن بعض جسمها حتى لزوجها..

ويقال أيضاً إنه كانت المرأة الجميلة تبيع ذراعيها قطعة قطعة. فكانوا يضعونها في مكان مرتفع تحت خيمة. ويدخل الرجل يدفع ويدفع ليرى أكبر مساحة من ذراعيها وعنقها. . أي أنه يرى ما لا يصح أن تكشفه المرأة الفاضلة. . ولذلك كان يشتري ذلك من المرأة غير الفاضلة. إذن لقد كانت الذراعان عورة.

ولا تزال الذراع عورة في الهند الحديثة. فالمرأة تكشف بطنها ولكنها تغطي كتفيها.

وقصة «سالومي» التي جاءت في التوراة، إنها ابنة زوجة الملك هيرود، والملك هيرود قد تزوج أرملة أخيه، بعد أن قتلته. فكان الرسول «يوحنا المعمدان» يصرخ في الصحراء يتهم هيرود وزوجته بالسفالة والفجور. ولكن زوجة هيرود ظلت تضغط على زوجها حتى قتل يوحنا المعمدان ووضع رأسه على طبق من الفضة وقدم ذلك لزوجته، أما الثمن، فهو أن ترقص ابنتها سالومي عارية. . فتخلع ثوباً بعد ثوب. . سبعة أثواب. . فقد كانت من عادة المرأة في ذلك الوقت أن تضع أثواباً كثيرة. . أما المرأة الخليعة. فهي التي ترتدي أثواباً أقل عدداً، فتكشف بذلك عن مفاتنها. فالفضيلة أثواب كثيرة، والرذيلة أثواب أقل أو لا أثواب. . ومن صفات المرأة الفاضلة في ذلك الوقت أن يقال عنها: تلك التي تحتاج إلى سكين تنزع ثوبها عن جلدها!

أو تلك التي لا تخرج من بيتها.

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً: المرأة عورة، فإذا

خرجت من بيتها استشرفها الشيطان. وهي أقرب إلى الله عندما تقبع في بيتها.

وهكذا ارتبطت الملابس بالأخلاق..

فالملابس تخفي ما يجب إخفاؤه عن عيون الناس.

والملابس تبرز من جسم المرأة أكثر مما تخفي أيضاً! فعندما تضيق الملابس على الصدر والردف وعندما يزمها الحزام عند الخصر. فهي تكشف الجسم وتبرزه. ولذلك كانت الملابس الضيقة حيلة لكشف ما يجب إخفاؤه.

ونحن ـ عادة ـ نخفي ما يريد الإنسان أن يراه، فكل ممنوع مرغوب أيضاً، والمسافة بين الفضيلة لوالرذيلة ضيقة جدا.. إنها «كسرة» هنا و«كسرة» هناك، فيكون الحلال حراماً والممنوع مستباحاً.

وحادثة الأميرة ديانا البريطانية ما تزال واضحة تماماً.. فهي عندما ارتدت فستاناً واسع الصدر، انقلب الرأي العام البريطاني المحافظ ضدها.. إذ كيف تكشف ملكة المستقبل عن صدرها ما لا يجب أن يراه الناس.. وأعادوانشر صورها ليروا إن كان هذا هو صدرها، أو هي ظلال الثوب نفسه...

ولكن الذين دافعوا عن الأميرة قالوا: بل هي شابة ومن حقها أن تكشف عن مفاتنها مثل كل اللاتي في مثل سنها، ولا يهم إن كانت ملكة.. ومن شهور ظهرت الأميرة في فستان يكشف عن ظهرها من أول العنق حتى خط الخصر. وأعيد النقد لملكة بريطانيا القادمة..

وأعيد الدفاع عنها بأنها شابة. . وأنها حرة وأن من حقها أن تتحلل من القيود الجامدة للأسرة المالكة. وأن هذا الذي تفعله لا يتنافى مع الأخلاق. وإنما يجعلها أقرب إلى الشباب وإلى الملايين الذين يحبونها ويرون في حريتها، إنتصارا لهم على جمود الآباء والأمهات ورجال الدين. . فهذه الأميرة قد قفزت بنفسها ووحدها بين عامة الشعب. وبذلك انتصرت المساواة بين الأميرة وبين أولاد الفلاحين والعمال في بريطانيا وفي كل مكان.

وعلى أيام الملكة فكتوريا نقلوا إليها أن إحدى الأميرات شوهدت في بيتها وقد شقت الثوب حول عنقها، فتغزل النبلاء بعنقها الجميل. وغضبت الملكة ولم يشفع لهذه الأميرة أنها فعلت ذلك بسبب دمل ظهر في جلدها الرقيق نتيجة احتكاك القماش السميك.

ولكن شق الثوب عند الرقبة أصبح موضة بعد ذلك. فكان انتقاماً شعبياً من تزمت الملكة!

وفي سفر (أشعياء) في التوراة نجد أن القيامة سوف تقوم بسبب انحلال المرأة. أما كيف يكون ذلك الانحلال ، فتقول التوراة: عندما تتشامخ النساء، وتغمز بعينيها للرجال، وتمشي ممدودات القامة وفي أرجلهن الخلاخيل. . وفي ذلك اليوم سوف يصيبها الرب بالصلع وسوف يكشف عورتها، وينزع من رأسها الضفائر، ومن ساقيها الخلاخيل ومن أصابعها الخواتم، ومن يديها الأساور، والأقراط من أذنيها والسلاسل من ذراعيها والعمائم من رأسها. . ويجردها من ملابسها المزخرفة ويخلع عنها القمصان وبدلاً من العطر يغطيها بالعفونة ثم يكويها بالنار في كل مكان!

ومن هذه النبوءة نعرف ما الذي كانت ترتديه المرأة، وما الذي كانت تتجمل به، وما هي حدود الرذيلة والفضيلة. والرذيلة هي الإسراف والإغراء، والفضيلة هي الاعتدال والاحتشام..

ويروى عن الرسول عليه السلام قوله لإحدى السيدات: يا هذه هل يسرك أن يحليك الله عز وجل يوم القيامة من حجر جهنم بسوارين وخواتم؟!

فقد رآها الرسول عليه السلام قد وضعت سوارين من الذهب وخاتمين من الماس. لقد أسرفت إذن في تجملها واستعراض ذلك أمام الناس!

* * *

وفي كل العصور كانت الدعوة واسعة للاحتشام. حتى الإسكندر الأكبر وكان شابا محبا للحياة وملذاتها ينصح بنات وطنه بألا يقلدن المرأة الفارسية في ارتداء الحرير ووضع المجوهرات.. وله عبارة مشهورة: ضحية معطرة لكل منتصر!

وهو يقصد بذلك: أن المرأة والعطور والخمور مكافأة للقائد المنتصر. أما بقية الناس فليس لهم هذا الحق..

ولكنه أيضاً حرَّم الملابس الحريرية على بقية النساء اللاتي لا دور لهن في إنعاش الروح العسكرية!

وهناك حادثة مشهورة لأستاذنا العظيم سقراط. فقد كان سقراط يمشي عاري الصدر والساقين والذراعين.. وفي إحدى المرات

أرغموه على أن يرتدي ثوباً أنيقاً. وكان من الضروري أن تمشي زوجته وراءه. وأن تحمل طرف الثوب. ولكنها لم تفعل. وكان سقراط يتوقع منها ذلك وقال: نسيت يا امرأة.. فأنا أعرف أنك تخرجين إلى الشارع، لا لتري الشارع ولكن ليراك الشارع!

فقد وجدت زوجته إن هي رفعت ثوبه فلن يراها الناس، فتركت زوجها، وسارت إلى جواره، ثم تقدمته، حتى يراها ولا يراه الناس!

ويقال إن القديس الإيطالى سافونارولا الذي أحرقه الإيطاليون، كان متشدداً في الدعوة إلى الحشمة. وكان يدعو قومه ألا يقلدوا التقاليع الفرنسية. فقد كانت المرأة الفرنسية ترتدي تحت ملابسها قميصاً أحمر دائماً ليكون هذا القميص بشرتها الثانية. ودعا القديس سافونارولا إلى ضرورة أن تضع المرأة قميصاً أسود ملاصقاً لجلدها.. ولم تفعل المرأة بل أنها سارت في جنازته بقميص أحمر وثوب أحمر!

وهناك دائماً الخوف من الغزو الأجنبي، أو من الأجانب.. ففي تاريخ الأزياء الفرنسية، خوف من الموضة الألمانية، وفي تاريخ الأزياء الألمانية خوف من الموضة الإنجليزية.. أي أن الفساد يجيء عادة من وراء الحدود. أي أن المواطنين، إذا تركوا وحدهم ووراء أبوابهم مغلقة، فلن تأتيهم الرذيلة، فالرذيلة دخيلة، والفضيلة أصيلة!

وفي إحدى البرديات التي عثروا عليها في الإسكندرية من تسعين عاماً أن أما نصحت ابنتها التي اقتربت من سن الزواج أن تكشف عن جمالها لزوجها فقط. وألا يكون ذلك في اليوم الأول، وإنما

بالتدريج، حتى يجد الزوج شيئاً جديداً كل يوم، ومن العجيب أن الأم نصحت ابنتها بأن تعجل بسد الثغرات في ثوبها ـ ويبدو أن الابنة قد فتحت ثغرات في ثوبها لكي تتسلل العيون إلى ما وراء ذلك.

وكانت هذه أول إشارة إلى ما حدث في القرن العشرين. . ففي هذا القرن، وفي سنة ١٩٦٩ بالتحديد، أصبحت «البهدلة» موضة. . فالملابس الممزقة عن عمد، والملابس المرقعة عن قصد، هي الموضة. . أي انعدام الموضة هو الموضة!

ومن أجمل ما كتبته الأديبة الوجودية سيمون دبوفوار عن «عصر المساواة» أنها شاهدت قبل دخولها أحد المسارح شابين في سيارة، رأتهما يخلعان ملابسهما. . ويرتديان ملابس ممزقة. . القميص ممزق الذراعين والكتفين. . والبلوزة بلا زراير. . وأمسك الشاب مقصاً ومزق البنطلون ومزق فستان صديقته. . ووقف الإثنان أمام السيارة وراح الشاب يصب من زجاجة نبيذ على ملابسهما لكي تبدو مبللة ومبقعة. . وبعد أن تم بهدلة كل منهما اتجها إلى باب المسرح. . ثم تبادلا السلاسل والأساور والأقراط. . فما معنى هذا الذي حدث؟

معناه أن الموضة لم تعد تلك التي تنشرها دور الأزياء العالمية، وتضع لها قيوداً وشروطاً، وتفرض طولاً وعرضاً وألواناً. . يونيفورم. . مثل ملابس الجنود ومرضى المستشفيات ونزلاء السجون. . وهكذا يفقد الإنسان حريته في كل الدنيا. لا لشيء إلا لأن هذه هي الموضة.

ولكن أغلبية الناس لا يستطيعون أن يسايروا هذه الموضة. .

ولذلك كانت المساواة ضرورية بين الذين لا يستطيعون من العمال والفلاحين والطلبة والمرضى والسجناء: فالشبان يشترون الملابس الجديدة، ويلصقون بها الرقع والبقع. . وهم أيضاً يتبادلون الأشكال: فيكون للشاب شكل الفتاة، ويكون للفتاة شكل الشاب. . فهو يطيل شعره وهي تقصره. . وهو يرتدي الجيب وهي البنطلون، وهي تضع السلاسل الغليظة وهو يضع الأقراط والأساور. . وهي تصبغ شعرها بالأحمر والأخضر والأزرق، وهو يصبغ شفتيه ووجنتيه.

وهذه مرحلة أخرى من المساواة. . فالمساواة الأولى كانت بين كل العاجزين عن مسايرة الموضة، والمساواة الثانية كانت بين الجنسين. . ثم ظهرت موضة «النظرة النافذة» أي جعل ثقوب للفستان والبلوزة. . هذه الثقوب ضيقة وواسعة، وفي أماكن مختلفة من الجسم. . وهي ما كانت تفعله الفتاة الفرعونية من ألوف السنين!

ثم ظهرت موضة أن يكون الفستان كله كأنه ثقب واسع جدا يكشف كل الجسم، فكانت الملابس الشفافة. . والملابس البلاستيك. . والملابس الزجاجية. . ثم انعدمت هذه الملابس الشفافة.. وعرت المرأة صدرها على الشواطئ وفى مستعمرات العراة. . ثم سارت المرأة بلا ملابس علوية في الشارع. . وكان ذلك خروجاً كريهاً، قاومته المرأة. . فهي لا تحب أن تكون هكذا «مبذولة» مفضوحة. . مستباحة. . يجدها الرجل عارية دون أن يحاول ذلك، فيتجه بعيداً عنها بحثاً عن المرأة التي تخفي جمالها ليحاول أن يحصل منها على القليل ثم الكثير. . وفي ذلك إثبات لحب الرجل للمغامرة، والبحث عن المجهول والفوز به في النهاية. . وتلك هي غريزة الصيد عند

الرجل. فالذين يقطعون ألوف الأميال بحثاً عن السمك والبط، ليس سبب ذلك أنهم لا يجدونها بسهولة.. إنما سببه أنهم ينشدون المتعة في السعي والبحث والمطاردة والفوز في النهاية بالطيور والأسماك التي لا يأكلونها بعد ذلك.

وانتشار موضة «البلو جينز» أحدثت ثورة في صناعة الأزياء، وفي تحقيق المساواة بين الطبقات، وبين الشرق والغرب.. وهذه الموضة، هي أطول موضة استخدمها الإنسان في كل تاريخه.

فمن المعروف في كل الشعوب الجبلية في أوروبا وغيرها، أنهم يصنعون ملابسهم من جلود الحيوانات.. في النمسا وألمانيا مثلاً، وخاصة البنطلون، وميزة هذا البنطلون أنه طويل العمر. وأن الإنسان يستطيع أن يمسح يديه فيه دون حاجة إلى أن يغسل يديه.. وكلما مسح يديه المتسختين بالزبد والدهن، أدى إلى لمعانه وإلى ليونته.. إذن فالبنطلون طويل العمر، ويناسب كل الأوقات، ثم إنه يدعوك إلى أن تبقى جالساً بعد الطعام دون أن تنهض لغسل يديك..

ولكن الرجل الأمريكي اليهودي ليفي اشتراوس، هو الذي اخترع البلو جينز بعد أن نقله عن أوروبا وطوره عن بنطلونات رعاة البقر في أمريكا.. ثم إنه استطاع أن يحل مشكلة الأقمشة في العالم كله.. فالبنطلون مصنوع من قماش ابتكره الفرنسيون اسمه «دنيم» أي من مدينة «نيم» الفرنسية.. ولكنه نشره على أوسع نطاق.. فأصبح موضة كل الناس من كل الطبقات: العامل وصاحب العمل ورئيس الجمهورية أيضاً.. وهو يناسب كل الأوقات وكل الأعمار وكل البلاد وكل فصول السنة..

وهاجمته الدول الاشتراكية باعتباره من مظاهر الانحلال لأنه ضيق يكشف جسم الرجل والمرأة. . ولأنه يساوي بينها وبين الرجل «مساواة زائفة». . ولأن الدول الاشتراكية ترى في دخوله إليها تسللاً رأسماليا رجعيا. ولذلك قاومته بشدة.

وأذكر أنني ذهبت إلى روسيا من عشر سنوات. . وكان يوم رأس السنة. ودعيت إلى فندق «روسيا» الشهير. . وكانت المرافقة حريصة على أن تذهب بنا إلى قاعة الرقص. . فماذا رأينا هناك؟ أو ما الذي حرصت على أن نراه دليلاً على ذوبان الجليد بين الغرب والشرق، أو على التحرر السوفيتي؟ لقد رأينا عدداً من الشبان يرقصون «الروك أند رول» الأمريكية جدا. . وأهم من ذلك أن هؤلاء الشبان كانوا يرتدون «البلو جينز». أما تعليق الروس الجالسين حولي فكان على هذا البنطلون أكثر من الموسيقى والرقص.

وكما ذكرت في هذا المكان من قبل فقد رأى مؤرخو الأزياء أن معرض «توت عنخ آمون» في العواصم الأوروبية كان حدثاً فريداً. . فقد وجد الشبان الذين يتفرجون عليه صورة لأنفسهم. فالملك الشاب لا هو رجل ولا هو فتاة. وإنما هو وسط بين الجنسين. . أو هو «الجنس الثالث» أي الذي لا هو رجل ولا هو امرأة، ولكنهما معاً. .

ورأى الشبان أن هذا الملك الشاب قد قتل لأنه كان سابقاً لعصره. . وأن ما يفعله الشبان الآن ليس إلا استئنافاً لحياة وسلوك وأزياء الملك توت.

وفي نفس الوقت هو تأكيد للعبارة التي جاءت في التوراة بأنه «لا

جديد تحت الشمس» ، فتوحيد الجنسين أو الجنس الموحدأو الجنس الثالث، قد تحقق في حياة وموت وأزياء توت عنخ آمون من ألوف السنين .

* * *

أما ما يقوله العالم النمساوي الكبير فرويد فهو أن كل المحرمات تختفي تحتها كل الرغبات القوية ، فنحن نحرِّم الخمر، لأن الناس يحبونها، ونحرِّم الرذيلة، لأن الناس حريصون عليها، ونغطي جسم المرأة وجسم الرجل، لأن الإنسان بدوافعه الحيوانية يريده عارياً . .

وفي أحداث التاريخ النفسي والاجتماعي والسياسي كثير من مثل ذلك!

جميلات محمد علي
وفضائح أخرى

في سنة ١٩٥٠ كنت محرراً بجريدة الأهرام، وكان من المفروض أن أترجم المقالات الفرنسية عن الأزياء. وتشاء الصدفة أن تكون الموضة في ذلك الوقت هي «نيولوك» من تصميم كريستيان ديور. . وهي الفستان الطويل الذي يصل إلى منتصف الساق. وكان من المفروض أيضاً أن أعرض ما أكتبه على واحد اسمه أحمد العسكري، كان مصمماً وليس شيخاً، ويذهب هو ويعرض ذلك على رئيس التحرير عزيز ميرزا الذي له كل أخلاقيات الرهبان وليس راهباً. وترجمت عبارة «نيولوك» بالنظرة الجديدة. . وأصلحها الشيخ العسكري فجعلها: «الطلعة البهية» . . وعدلها رئيس التحرير فجعلها: «الرؤية القشيبة». ولم ينتشر واحد من هذه التعبيرات. فقد اخترعها من لا يفهم في الأزياء وعدلها من لا يكتب وبدلها من لا يقرأ!!

وهي لم تنتشر لأنها سارت في عكس الاتجاه الذي تمشي فيه الموضة عادة فالموضة تبدأ من فوق لتحت. والصحافة ليست فوق ـ انظر لنفسك وأنت تقرأ هذه الصحيفة، تجد أنك أنت الذي فوق . أي أن الناس هم الذين يفرضونها: فالذين يفرضون الموضة هم الناس الذين فوق: الأغنياء والنبلاء والأسرة المالكة.

والأغنياء في ذلك الوقت لا يتكلمون العربية. وإذا تكلموها أضافوا إليها الكثير من المفردات الفرنسية والإنجليزية. ولذلك كانت أماكن الموضة في مصر في ذلك الوقت هي الحفلات الكبرى والأعياد القومية والولائم الضخمة ودار الأوبرا وفي نادي الجزيرة..

والموضة تبدأ من فوق، فيقلدها الذين تحت ـ تقلدها الطبقة الوسطى التي تتطلع إلى الطبقة الأرستقراطية وتحلم. وبعد ذلك تنتقل إلى بقية السلم الاجتماعى.

والموضة: معناها التغيير الذي يطرأ على الأزياء لفترة قصيرة، فالموضة قصيرة العمر. ولكن الموضة لابد أن تكون مفاجئة. أي ظهرت فجأة وصدمت الذوق العام. لأنها جاءت مخالفة لما كان مألوفاً قبل ذلك. ثم تنتشر. وبعد أن تنتشر يعتاد الناس عليها. فإذا اعتادوا عليها، لم تعد العين تفضل أن ترى غيرها: طول الفساتين وألوانها وقماشها.

ولابد أن يكون الناس قد زهقوا من الموضة السابقة. وأصبحوا مهيئين لشيء جديد.. والناس يحبون الجديد. ويستسلمون له تماماً دون مناقشة. ولولا هذا الاستعداد عند الناس ما انتشرت الموضة.

فالموضة ـ إذن ـ هي ذلك التغيير الإجباري. أي إذا جاءت الموضة فالاستسلام لها ضروري حتمي. لا تجرؤ سيدة أن تخرج عليها.

والناس أمام الموضة يضحكون على نوعين من السيدات: التي تسارع باتباعها والتي تتأخر في ذلك.

والموضة قاهرة جبارة. فهي تفرض نفسها على كل النساء والرجال، فالقصيرة ترتدي الفستان الطويل، والسمينة ترتدي الفستان الضيق،

والنحيفة ترتدي الفستان الواسع . . والبيضاء ترتدي الأبيض، والسمراء ترتدي الأسود. . لا يهم إن كانت الألوان أو الأطوال أو الأحجام أو الأقمشة مناسبة. الموضة هكذا والطاعة مطلقة.

والموضة يجب أن تتوقف بعض الوقت. . أي يجب أن تعيش بعض الوقت. أن تتجمد. حتى يرتديها الناس جميعاً. وبذلك تصبح فساتين السيدات وبدل الرجال كأنها يونيفورم ـ زي موحد. وهذا يصيب العين بالملل والنفس بالزهق. فقد تشابهت الفساتين، فساتين الأغنياء والفقراء. . السيدات والخادمات. . ويضيق الجميع بالجميع.

هنا فقط يجب أن يظهر شيء يقضي على الملل والقرف. شيء غير ما هو مألوف، يكون الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الناس من الناس.

ويجب أن تكون عند الناس هذه القدرة أو هذه الشجاعة على الخروج من الزي القديم، والدخول في الزي الجديد. والتوافق بين الموضة القديمة والموضة الجديدة.

وعندما يشعر الناس بالأمان عندما يجدون أنفسهم قد ارتدوا نفس الملابس. . أي عندما شعروا بالمساواة الأنيقة، ويحسون بأنهم فجأة في حاجة إلى تغيير. . إلى أن يخرجوا من الصف، واللون والطول والعرض، وأن يستأنفوا من جديد ارتداء ملابس الغرابة والشذوذ. . وفجأة تنتشر الموضة الجديدة، ويعاود الناس الشعور بأنهم مثل كل الناس. . وإن الزي واحد. . وإن الجميع على الموضة.

وبعد الثورة في مصر، كانت الأوبرا وليالي الزفاف وحفلات أم كلثوم ونادي الجزيرة، هي الأماكن التي تظهر فيها الأناقة والشياكة. . وفي هذه

الأماكن وفي هذه المناسبات تجيء آخر خطوط باريس وألوانها وعطورها ومجوهراتها.

ومن هذه الأماكن تنتقل إلى القاهرة، ومنها إلى العواصم الأخرى.. والأقليات أكثر الناس حرصاً على الأناقة.. فالأقليات بتكوينها قلقة. وهي تحاول أن ترتبط بما يعطيها الأمان.

وفي نفس الوقت تحاول أن تكون متميزة ـ أي أنها أقلية ممتازة. أو أنها أقلية لأنها ممتازة. ولذلك وجدنا الأجانب أسرع في السير وراء الموضة.

ولهذا السبب أيضاً نجد أن دول العالم الثالث أسبق التقاطاً للأناقة الباريسية من أهل فرنسا.

قالت لي الأديبة جرمين جرير عندما كانت في القاهرة: إنها فوجئت بعدد من الفتيات في نادي الجزيرة قد ارتدين أحدث ما فكر فيه مصممو الأزياء الفرنسيون ـ ارتدين «فكرة» لم يطبقها أحد بعد. بينما الفرنسيون سوف يفكرون بعض الوقت قبل السير وراء الموضة.

وقالت لي أيضاً إنها ذهبت إلى الكويت فرأت في حفلة عشاء واحدة أربعين فستاناً لم ترها هي شخصيا إلا في المجلات.. وإن هذه الأزياء مناسبة طولاً ولوناً للمرأة الكويتية التي هي من أكثر نساء العالم أناقة!

وقد أدهشتها هذه السرعة في انتشار الموضة الجديدة!

وقالت لي أيضاً إنه في محلات العطور والأقمشة في كل دول الخليج ترتدي المرأة العربية، تحت العباءة، آخر ما اهتدى إليه مصممو الأزياء!

ولكي تنتشر الموضة لابد من عرضها أو لابد من الاستعراض، ولذلك أقيمت حفلات عروض الأزياء أمام كاميرات الصحف والتليفزيون. لكي تنتقل بعد ذلك إلى العالم كله.

وكانت عارضة الأزياء جميلة جدا. جسمها وملامحها. وكان وزنها يصل إلى الستين كيلوجراماً. وفجأة انقلبت الموضة على عارضات الأزياء. فقد انشغل الرجال بالنظر إلى الأماكن التي لا تغطيها الأزياء ـ أي انصرفت العيون عن الفستان. ولذلك لجأت دور الأزياء إلى عارضات نحيفات جدا شقراء وصفراء وسمراء وسوداء. . مجرد عارضات.. مجرد شعاعات متحركة. حتى لا تنشغل العين عن القماش واللون والأسلوب الذي استخدمه مصمم الأزياء في تطبيق شروط الموضة الجديدة.

واختيار السمراء والسوداء والصفراء عارضة للأزياء، ليس حبا في المساواة بين البيض والملونين أو حرصاً على حقوق الإنسان. . وإنما هو حرص على دول العالم الثالث ـ أكبر قوة شرائية على الأرض!

والموضة لها قوتها الذاتية بمعنى: إنها تفرض نفسها على الناس. فلا يقوى أحد أن يخرج عنها. وإذا حدث لقي عقابه فوراً من نظرات الناس واحتقارهم واندهاشهم لشذوذه.

ولكن هذا الحق، حق الخروج كان لزوجات رؤساء الدول فقط. وخاصة زوجة الرئيس الفرنسي. فهي زوجة الرجل الذي يرأس إمبراطورية الأناقة والجمال والشياكة في العالم. وربما كانت زوجة الرئيس بومبيدو أشيك امرأة في القرن العشرين، وإن لم تكن أجمل امرأة، فملامحها حادة بارزة جافة.

ومن المعروف أن دور الأناقة الفرنسية تتناوب حرم رئيس الدولة. وتعطيها أروع ما عندها لأنها نموذج رفيع للمرأة الفرنسية. ولأنها أعظم عارضة أزياء في العالم. ولأنها أينما ذهبت فهي تتحرك باسم الجمال والذوق والصناعة الفرنسية.. ولذلك يجب أن تكون أكمل صورة ممكنة.

وفي استطاعتك أن ترى صور زوجات الرؤساء الفرنسيين قبل الوصول إلى الحكم، وبعد ذلك.. سوف تجد الفارق هائلاً.

ويوم حاولت جاكلين كنيدي الفرنسية الأصل أن تفعل شيئاً مثل ذلك فضحوها في بلادها، اتهموها بالإسراف. مع أنها تمثل السيدة الأولى في بلادهم.. ولما حاولت زوجة ريجان أيضاً بهدلتها الصحف حتى اعترفت السيدة ريجان: بأن فساتينها قد استأجرتها والمجوهرات على صدرها وحول عنقها وفي أذنيها وأصابعها «عهدة» سوف تردها إلى أشهر محل للمجوهرات الأمريكية!

حتى الأميرة الجميلة ديانا زوجة ولى عهد بريطانيا، وهو أغنى أغنياء الإنجليز بسبب ما ورثه من عماته وخالاته، قد اتهموها بالإسراف فى شراء الفساتين. ولكن اعترفت دور الأزياء أنها تقدم لها الفساتين سعيدة بهذا الإعلان الملكى المحبوب!

وفي مذكرات السيدة التركية عصمت أرطاون التي عنوانها «جميلات محمد علي» - أي جميلات أسرة محمد علي في مصر وفي تركيا كتبت تصف السيدتين هانم زادة.. ونسل شاه وكيف كانت الأسرة المالكة المصرية أنيقة إلى أقصى درجة.. قالت إن خياطة فرنسية الأصل كانت تسافر إلى

باريس كل شهر. وتأتي بأحدث الخطوط والأقمشة. وكانت تساعدها ثلاث فتيات ورجلان.

وكانوا يقيمون جميعاً في بيت خاص في القلعة يعملون ليلاً ونهاراً على تفصيل الفساتين المناسبة للأميرات. .وكانوا يتقاضون أجوراً رمزية - أي يكفيهم شرفاً أن الفساتين التي يعملون فيها ليلاً ونهاراً قد ارتدتها الأميرة نسل شاه وأعجب بها الملك والأميرة والباشا، وكيف أن الفستان قد أحرق قلب الأميرة فايزة والأميرة فوزية وشويكار. . إلى آخر سيدات الأسرة المالكة.

أما الفضيحة الكبرى التي أدت إلى طرد هذه الخياطة من مصر ليلاً، وموتها في اسطنبول بعد ذلك فترويها السيدة عصمت أرطاون فتقول إنه حدث في إحدى حفلات الأمير محمد علي بالمنيل أن ظهرت الأميرة هانم زادة بفستان بهر الحاضرين والحاضرات وكان بؤرة الاهتمام لدرجة أنهم طلبوا من الأميرة أن تدور حولهم وأن تجلس في الوسط حتى يراها الجميع. وكان ذلك أسعد يوم في حياتها. وقررت فيما بينها وبين نفسها أن تعطي للخياطة مكافأة عظيمة وأن تنقلها من القلعة لتقيم معها في القصر وأن تنفذ ما وعدتها به من إرسال ابنها ليتعلم في جامعة تولوز. . بفرنسا على نفقتها. . لقد أحست الأميرة كأنها زفت مرة أخرى. . وفجأة ظهرت إحدى اليهوديات من أسرة داود عدس، ترتدي نفس الفستان. . القماش. . الطول. . الكرانيش. الأكسسوارات. . حتى تسريحة الشعر التي هي «مفروقة» من الوسط. حتى شرطة العين وسحبة الكحل وطابع الحسن على الخد الأيسر. لقد امتقع لون الأميرة وانسحبت فوراً من الحفلة. . وفسدت الليلة الجميلة. . وقبل أن يطلع النهار، أطاحوا

بالخياطة إلى الإسكندرية وألقوا بها في أحد المراكب إلى خارج البلاد.

أما الذي حدث فهو أن إحدى الفتيات اللاتي يعملن عند هذه الخياطة قد نقلت تصميم الفستان إلى السيدة أرليت عدس ـ لقد دفعت لها مبلغاً أكبر!

وعشرات الحوادث والفضائح جاءت في هذا الكتاب.

* * *

وموضة «نيولوك» عندما ظهرت في نهاية الأربعينات أي بعد الحرب العالمية الثانية كانت مفاجأة فالفستان طويل ويحتاج إلى قماش كثير. وهو يناسب الطويلات وليس القصيرات، النحيفات وليس السمينات.. وكان شيئاً غريباً، والناس غير قادرين على شراء مثل هذه الفساتين المكلفة. ولكن الحقيقة هي أن المصانع الفرنسية قد عملت ليلاً ونهاراً، ولا بد من بيع منتجات هذه المصانع في فرنسا وفي العالم كله. فهذه الموضة قد ظهرت بحكمة، وليست هكذا بلا منطق!

وظهرت موضة «الشوال» وهو الفستان الواسع جدا، وهو الفستان الذي وصف بأنه: الثوب الذي تبدو فيه المرأة حاملاً، أو تريد ذلك.

وكانت متعة الناس في العواصم أن يقفوا على النواصي.. حيث الهواء يهب من كل الاتجاهات، ويضغط على الثوب الواسع فتتحدد معالم المرأة.

ثم ظهر «الميني جيب» أو الفستان القصير جدا.. أي حيث الذيل فوق الركبة بشبرين وأحياناً بثلاثة.. ولم يحدث في تاريخ الأزياء أن ارتفعت قطعة صغيرة من القماش إلى هذا العلو لتكشف كل هذه المسافة

من الجسم، ليصبح من الضروري تغطيتها في أسرع وقت. ولكن المرأة لم تتمسك بموضة تمسكها بهذه الموضة التي تكشف سيقانها. . ولا تزال حتى الآن ـ أي أكثر من ثلاثين عاماً!

ومن الحوادث التي تروي تاريخ الموضة حادثة الممثلة النمساوية «هيدي لامار» وهي. من ممثلات الأربعينات. ظهرت في فيلم ترتدي فستاناً شفافاً وأوقفوها وسط بحيرة. طويلة شامخة. جميلة العين دقيقة الأنف شهية الشفتين. . والتف حولها الممثلون والمخرج والمنتج وكل العاملين في الأستديوهات.

ولم ينتظروا الرياح تهب، فأطلقوا عليها المراوح تحط وتضع ثوبها الذي يبدو حولها دائخاً في عطرها وفتنتها. وجاءت اللحظة المنتظرة. ظهر أحد رعاة البقر يعلن للناس أنه إذا وضع الرمل من هنا. نزل ذهباً من هناك. وكان يضع الرمال على صدرها ويتلقاها ذهباً من الناحية الأخرى. . وطلب من الناس أن يحرصوا عليها فهي مصدر ثرائهم وسعادتهم.

ولكن أحد حكماء الهنود الحمر تقدم يقول له: ولكن إذا وضعنا الذهب من هنا نزل رملاً من هناك.

فقد طلب أن يوقفها على رأسها: ووضع الذهب من ناحية ليتلقاه رملاً من الناحية الأخرى.

وفي حالة تحويل الذهب إلى تراب والتراب إلى ذهب، كانت هيدي لامار عارية تماماً. . ولم يشاهد الناس هذا الفيلم، فقد تزوجها أحد الأغنياء واشترى هذا الفيلم حتى لا يراه أحد!

ولكن الحديث عن الفيلم ملأ الدنيا. . وأخذت دور الأزياء موضة فستانها تعرضه. . وكان فستانها مشقوقاً من الأمام حتى الخصر، وكان مطرزاً على الجانبين بالترتر واللولي. ورفع زوجها أمره إلى القضاء لأنهم سرقوا موضة الفستان الذي هو من حقه، لأنه اشترى كل الفيلم، وكذلك بطلة الفيلم. . وتوقفت دور الأزياء عن بيع فساتين مشقوقة من الوسط، وباعوا فساتين أخرى مشقوقة من الجانب أو من الجانبين أو من الخلف. .

وفي المذكرات التي كتبتها هيدي لامار بعد أن اعتزلت السينما، وأدمنت المخدرات، وراحت تهدد عشاقها القدامى، بأنهم إذا لم يساعدوها فسوف تروي غرامياتهم معها. قالت: إنها تحتفظ بهذا الفستان. وإن أحد عشاقها القدامى طلب منها أن ترتديه له وحده مرة واحدة. وسوفْ يفرش الأرض تحت قدميها بالدولارات. . وفعلت وكسبت نصف مليون دولار!

وقالت إن أحد القضاة طلب منها أن ترتديه في غرفة نومه. فإذا فعلت فإنه سوف يفرج عن أحد أقاربها المتهم بقتل رجل مليونير. وأفرج القاضي عنه!

* * *

لقد انتهى ذلك الزمن الذي كانت ترتدي فيه الملكة فكتوريا ثوباً واحداً حتى الموت، أو يتم تتويجها وهي ترتدي نفس قميص النوم الذي كانت ترتديه يوم مات سلفها على العرش.

ففي استطاعة كل فتاة أن تكون على «الموضة». ولا توجد فتاة قبيحة

وإنما فقط فتاة غير قادرة على أن تكون أنيقة.

والموضة قد استعبدت المرأة، فجعلتها تهتم بمظهرها.. جعلت اهتمامها «خارجيا» فلم تعد لها أعماق.. هي تحب ذلك والرجال أيضاً. وحتى عندما يضيق الرجال بالمرأة التي هي بغبغان أو هي قرد، تقلد الأخريات.. فإنه في جميع الأحوال هو الذي يدفع. فهناك مؤامرة علمية صناعية تجارية ذوقية تحاك في كل العواصم، من أجل التغيير الدائم للموضة.. أي عرض أقمشة جديدة وألوان جديدة واجبة البيع ـ أردنا أو لم نرد. ونحن نريد عادة. بوعي أو بلا وعي!

«أم علي»
وملابس اللاعبين
والمجوهرات.. لماذا؟

بعد عشرين عاماً من البحث اهتدى علماء الآثار الإنجليز إلى أن هذه السيدة التي وجدوها مغطاة بالذهب ليست سارقة للقبور مدت يدها إلى أعناق النساء وأصابعهن واستولت على كل ما لديهن من ذهب وأحجار كريمة ثم نقلتها إلى مقبرتها وماتت تحتها.. إنها الملكة السومرية «يوابي» التي توفيت سنة ٣٥٠٠ ق. م وقد وضعت على رأسها ثلاثة تيجان وفي عنقها عشرين عقداً، وفي أذنيها ثلاثة أقراط وفي ذراعيها عشرين أسورة لها شكل أوراق التوت وحول ذراعيها سلاسل لها شكل الغزلان وحول ساقيها سلاسل مطعمة بالأحجار الكريمة.

ولأول مرة في التاريخ يجدون امرأة قد وضعت خواتم في أصابع قدميها ـ لا تزال من العادات الشعبية في دول الخليج ـ. كان ذلك في مقبرة في مدينة أور العراقية التي خرج منها سيدنا إبراهيم عليه السلام وأولاده اليهود مهاجرين إلى أرض «كنعان» ومعناها الأراضي الواطئة في فلسطين.. ثم أنها كانت ترتدي بلوزة من الحرير بها خيوط من الذهب والفضة. وهي أول امرأة في التاريخ قد استخدمت كل هذه المجوهرات.. وأعجب من ذلك أنهم وجدوا إلى جوارها في مقبرتها

سيدة أخرى أطول وأعرض ولكنها عارية من المجوهرات. وبعد عشرين عاماً أخرى عرف علماء الآثار أن هذه السيدة هي الزوجة الأولى لزوجها. وقد قررت الزوجة الثانية أن تبين للتاريخ أنها هي التي كانت مفضلة عند زوجها ولذلك كانت تملك كل هذه المجوهرات بينما الزوجة الأولى الأكبر سنا والأقبح شكلاً كانت بلا مجوهرات أي بلا قيمة.

ومنذ ذلك الحين والمرأة والرجل يستخدمان هذه الحلى للدلالة على الوضع الاجتماعي وعلى الثراء أيضاً. فقد كان أكثر الناس استخداماً للمجوهرات والحلى: الملوك والنبلاء والكهنة والتجار.

وأهم من ارتداء المجوهرات هو الظهور بها أمام الناس. أي عرضها واستعراضها. والمرأة بطبيعتها حيوان استعراضي. فالمرأة من عاداتها أن تقف أمام المرآة وتتأمل نفسها قطعة قطعة وتشعر بالنشوة لذلك. وتحب أن يرى الآخرون مفاتنها. ومن هنا تنتقل من النظر إلى نفسها إلى الخروج والظهور ليراها الآخرون، يرون جسمها وفساتينها ومجوهراتها.

وشاعرنا الساخر بيرم التونسي له كتاب جميل اسمه «السيد ومرآته في باريس» في هذا الكتاب أخذ زوجته إلى باريس وجعلها تصطدم بكل الآداب الفرنسية المتحضرة، ومن هذا الاصطدام تنفجر النكتة. فهي في إحدى المرات نشرت الغسيل من النافذة ليرى الناس أنها ليست فقيرة وإنما جاءت ومعها الكثير من الفساتين. ثم أنها تلقي بقشر السمك أمام البيت. ليعرف الناس ما الذي اشترت وما الذي تعد لزوجها. ثم إنها لا تحب أن تغطي عنقها بالعقود فالفرنسيون يفعلون ذلك لأن أعناق النساء رفيعة «لحم على عضم» وكذلك سيقانهن أما هي فليست في حاجة إلى

ولم تكشف المرأة عن ساقيها إلا في القرن العشرين. وقبل ذلك كانت تغطية الساقين والذراعين ضرورة وكشفهما ثورة لم يعد أحد يتحدث عنها الآن. وربما كانت المرأة الصينية هي أول من شق فستانها من الذيل حتى الخصر لتعرض ساقيها. بينما المرأة الهندية ترى أن هذه كبرى الكبائر. وقد أدى الكشف عن ساق المرأة إلى تطوير في صناعة الجوارب التي تغطي الساقين أو التي تكشفهما فكانت الجوارب من الحرير والنايلون. . وفيها ترترا ولؤلؤ. أو كانت فسفورية. ولما ظهرت موضة الميني جيب طالت الجوارب حتى استغنت المرأة تماماً عن الفستان والجيب.

ووراء كل رغبة في تغطية الجسم الإنساني، رغبة أعمق في كشفه وتعريته، ولذلك كانت الموضة هي الأسلوب الذي يحقق الرغبتين في وقت واحد.

* * *

وكما تطورت الأزياء، تطورت أدوات الزينة والحلى والمجوهرات. فهي تتلون وتتخذ أشكالاً وأحجاماً تتفق مع الموضة.

ولكن لماذا يستخدم الإنسان الحلى والزينة والمجوهرات والجواب: لكي يتميز عن الآخرين.

فنحن نرى الصياد القديم يضع ريشة الطيور التى اصطادها في رأسه وفي قبعته. . والذي اصطاد الذئب والثعلب والأسد والحيوانات الأخرى يستخدم فراءها وأنيابها في تزيين ملابسه. . وأحياناً يعلق رأس الحيوان من صدره أو على ظهره. متباهياً بما أحرزه من نصر. وفي نفس الوقت

دليلاً على قدرته الجسمية والمادية، على أن يذهب للصيد.

ونحن نرى الجزار لا يضيق بأن تظهر بقع الدم في ملابسه. وفي نفس الوقت تبدو الساعة الذهبية في ذراعه والخواتم الماسية في أصابعه والمعنى: أنه غني وقادر على أن يرتدي أفخر الثياب ويركب أفخم السيارات. ولكنه يريد أن يبين أنه جزار أو تاجر لحوم.. وأنه غني وأنه محظوظ.

وكذلك المرأة عندما تضع كل هذه الحلى تريد أن تؤكد مكانتها الاجتماعية وانتسابها إلى طبقة رفيعة، وأن تشعر بثرائها أيضاً.

وفي الحروب البدائية نجد أن المنتصرين يعلقون رءوس الأعداء في مداخل بيوتهم. وأحياناً يحتفظون بذراع أو ساق أو خصلة شعر.. ويحتفظون بأسلحتهم وملابسهم أيضاً.. وفي الحروب الحديثة يسرقون المتاحف ويستولون على اللوحات الفنية ويسرقون البيوت ـ موشي ديان سرق الكثير من الآثار الفنية من البيوت الفلسطينية.. وهتلر وكل الزعماء النازيين سرقوا من فرنسا وهولندا وبلجيكا.. ونابليون استولى على تحف من بولندا ومن روسيا.

والحلفاء فككوا المصانع الألمانية ونقلوها إلى بلادهم.. والأمريكان خطفوا العلماء الألمان ليساعدوهم في إطلاق الصواريخ وسفن الفضاء..

وفي ملاعب كرة القدم نجد اللاعبين يتبادلون الفالنات ـ الفانلة خطأ ـ وهو تطوير متحضر لخطف اللاعب المهزوم وتجريده من ملابسه.. ولذلك فاللاعب المهزوم يطلب فالنة اللاعب المنتصر أو العكس.

ونحن نتناول طعاماً حلواً اسمه «أم علي» وأم علي هذه كانت زوجة للسلطان ايبك التركماني الذي تزوجته شجرة الدر، وشجرة الدر قتلته. ولكن الزوجة الأولى «أم علي» قد تآمرت على شجرة الدر وقتلتها بالقباقيب في حمامها سنة ١٣٥٢. وابتهاجاً بهذا النصر دعت الناس وقدمت لهم «الفتة باللبن والسكر» وسمي هذا الطعام بأم علي.. وقد وضعت أم علي في هذه الفتة خصلة من شعر شجرة الدر وحلمتي ثدييها ولذلك كان من المألوف إذا وجدت ربة البيت شعراً في «أم علي» قالت إنه شعر شجرة الدر، والحقيقة أنه شعرها هي.. ورمزاً لحلمة الثدي فإننا نضع الزبيب.

ونحن نأكل «الكرواسان» وهي كلمة فرنسية معناها: الهلال. وهو نوع من الخبز له شكل الهلال. وهذا الخبز قد اخترعه النمساويون سنة ١٦٨٣ عندما نجحوا في وقف الزحف العثماني على فيينا، وابتهاجاً بهذا النصر صنعوا خبزاً على شكل الهلال الموجود في العلم التركي. وراحوا يأكلونه دليلاً على أنهم التهموا القوات التركية.

ثم تحولت الحلى إلى فلوس. هي نفسها فلوس. ولذلك كانت مصنوعة من الذهب والماس فالمرأة تضع العملات الذهبية في ملابسها. حول عنقها أو حول ذراعيها. أو تتدلى من فساتينها أو تلفها خلاخيل حول ساقيها. ولكن لم يكن استخدام هذه المجوهرات بسبب أنها موضه. لأن الفرصة قصيرة العمر فهي تظهر بعض الوقت ثم تختفي لتظهر موضة أخرى وإنما وجدنا المجوهرات ثابتة في كل العصور ومن مظاهر الموضة الثبات بعض الوقت. بل الجمود، كأنها لن تتغير وفجأة تتغير.

فالملابس الشعبية أو الزي القومي، كان موضة في يوم من الأيام ثم تجمدت مئات السنين. والملابس الشعبية كان الملوك والنبلاء يرتدونها. ثم انتقلت إلى الشعب، واحتفظ بها الشعب ولم يشأ أن يغيرها.

فعند الهنود الحمر ترتدي المرأة البلوزة المتعددة الألوان. هذه البلوزة كانت ترتديها المرأة الأسبانية عندما جاءت إلى أمريكا في القرن السادس عشر، وتعلق بها الهنود الحمر. ولا تزال حتى اليوم زيا قوميا أما الجوب الواسعة، فقد أخذها الهنود الحمر عن الغزاة الإنكليز في القرن السابع عشر ولم تتغير منذ ذلك الحين.

ولم يكن الأصل في استخدام الملابس: الاحتشام. فالاحتشام قد ظهرت الرغبة فيه والحرص عليه متأخراً جدا. صحيح أن التوراة تحدثنا عن آدم وحواء عندما أحسا بأنهما عاريان راحا يقطعان الأوراق والأغصان من أشجار الجنة، ليغطيا عورتيهما. وذلك عندما أحسا أنهما في حضرة الله. فكان الاحتشام ضرورة.

وعندما شرب نوح عليه السلام النبيذ كما تقول التوراة ـ قد سكر وانتشى وتعرى تحت خيمته فرآه واحد من أولاده وأخبر أخويه الآخرين فتضايق الأخوان، من أن أخاهما قد رأى أباه عارياً ولم يفعل شيئاً فدخلا على الأب وقد أدار كل منهما ظهره حتى لا يرى أباه العاري وغطياه. فلما نهض من نومه لعن ابنه و بارك ولديه الآخرين.

فقد كان العري ـ إذن ـ شيئاً بغيضاً من الناحية الأخلاقية. . وكانت المرأة البدائية تضع حزاماً حول خصرها ـ فقط حزاماً ـ دليلاً على أنها تريد أن تتغطى ولكنها لم تكن تعرف كيف، ثم تغطت بقطعة من

القماش صغيرة من الأمام، وكانت تختار لها ألواناً وأحجاماً مختلفة. وكانت هذه القطعة الصغيرة ملتقى العيون التي تريد أن ترى ماوراء ذلك. ثم راحت المرأة تتفنن في تلوين وترصيع هذه القطعة من القماش. ومعنى ذلك أنها تعلم أنها تغطي عورتها وأنها في نفس الوقت حريصة على أن يبقى الغطاء جميلاً أنيقاً يغري الرجال بأن ينظروا وينتظروا.

وفي جزر المحيط الهادي اعتادت المرأة أن تعري صدرها تماماً ـ في جزر بالي في أندونيسيا ـ وفي جزر هاواي. ولكن في هاواي تغطي المرأة صدرها العاري تماماً بالورود وأكاليل من أوراق الشجر. وهي تجعل الأكاليل كبيرة تتساقط من حين لآخر ـ أي أنها حريصة على أن تغطي صدرها وأن تكشفه أيضاً. فهو إذن إتفاق ليس مكتوباً بين المرأة والرجل: إن الذي تفعله يرضيها ويرضيه ـ فهي تريد أن تغطي صدرها أحياناً وتكشفه أحياناً. والرجل حريص على ذلك أيضا.

وفي العصور الوسطى كان الرجال يرتدون أحذية مدببة ـ وأحياناً يجعلون للأحذية شكلاً جنسياً. وانتشرت في العصور الوسطى موضة أن يجلس الرجل واضعاً ساقاً على ساق ثم يحركها إلى الأمام وإلى الخلف.

وأحياناً يرسمون عند بوز الجزمة أعضاء جنسية.

* * *

وعندما تتشابه الملابس أو الزينات والحلى. فالمقصود هو أن يؤكد أصحابها أنهم ينتسبون إلى جمعية واحدة. أو مؤسسة واحدة.. أو سلاح من أسلحة الجيش، القوات البرية أو البحرية أو الجوية أو جنود أو ضباط.. أما النياشين والأوسمة التي يضعها الجنود في صدورهم فلكي

يتميزوا عن غيرهم، دليلاً على اشتراكهم في الحروب وتفوقهم فيها. وكذلك الفرق الرياضية.. وكذلك رهبان المذاهب الدينية المختلفة أو الأديان المختلفة.

والزي الموحد يقتضي من صاحبه سلوكاً موحداً. فالجنود لهم سلوك ورجال السيرك لهم سلوك، والممرضات والرهبان..

وفي ملاعب كرة القدم نجد مشجعي الأندية المتنافسة قد حملوا علامات على هذه دليلاً على سعادتهم بالانتماء إلى أحد الأندية، تشجيعاً له وتحديا للمنافسين.

وفي القبائل البدائية لا يكتفون بالملابس الواحدة أو الزينات المتشابهة وإنما يرسون على وجوههم أو على أذرعتهم علامات غائرة تأكيداً لذلك.

وفي أحد الكانتونات السويسرية ـ كانتون أنتسيل ـ تضع المرأة في أذنها قرطاً على شكل زرار من الذهب.

والهنود الحمر يضعون رءوس الأطفال في إطار من الجلد المتين ليتخذ شكلاً معيناً إذا كبر. وكانت المرأة الصينية القديمة، تضع قدميها في قالب من الحديد، حتى لا تكبر القدم ـ فمن علامات الجمال أن تكون القدم صغيرة.

ومن أسباب استخدام المجوهرات: المنافسة بين الأقوياء والأغنياء في أي مجتمع وهذا واضح جدا عند سيدات الطبقة الحاكمة في أي بلد.. فإذا وضعت واحدة خاتماً من عشرين قيراط من الماس وضعت الأخرى واحداً من ثلاثين. أو خمسة خواتم كل واحد يزن عشرين قيراطا.

وهكذا . . وقد انتشر في حوض نهر الأمازون أن هنـاك مدينـة اسمهـا «ألدورادو» وهي كلمة أسبانية معناها الذهبية أي المدينة الذهبية. ويقال إنها تحت الماء ويقال إنها سرقت. ولم يبق من هذه المدينة إلا ثعبان من الذهب . . هذا الثعبان يظهر من حين إلى حين. ولا يأكل إلا الـطيور المصنوعة من الذهب. فكانوا يلقون في نهر الأمازون بالمجوهرات الذهبية لعل الثعبان يظهر، فإذا ظهر اصطادوه واستولوا عليه. وقالت الأساطير أيضاً إن هذا الثعبان يريد أن يتزوج أنثى من بني الإنسان ، ولذلك كانوا يختارون فتاة جميلة ويلقون بها في النهر ثم يستردونها إذا لم يظهر الثعبان . . ولم يظهر. ولكن أصبح من عادة المرأة في هذه المنطقة أن تلف حول ذراعيها ثعباناً من الذهب دليلاً على أن زوجها قد عثر على الثعبان. وكانت النساء يتبارين في تضخيم حجم الثعبان وتطعيمه بالأحجار الكريمة والماس.

أما الأحجار الكريمة فقد ظهرت على صدور النساء وفي أصابع الرجال خوفاً من الحسد، ودفعاً للأرواح الشريرة بعيداً عن الأسرة والبيت، واتخذت هذه المجوهرات شكل الخمسة والخميسة . . وشكل حدوة الحصان وشكل «عين العفريت» . . وشكل الدبابيس . . وشكل الأعضاء الجنسية لتتجه إليها عيون الحسود. فإذا اتجهت لها، انصرف شرها وسمها إلى شيء آخر. وبذلك لا تصيب من يضع هذه الحلى.

* * *

والمرأة لديها هذا الشعور بالنقص وعدم الأمان ولذلك فهي حريصة على أن تتزين وتتجمل فالزينة والمجوهرات أسلحة وذخيرة لها . . وهي من غيرها منزوعة السلاح .

ولكن الفنان الإغريقي زوبكسس، الذي عاش في القرن الرابع الميلادي يرى أن «هيلين» ابنة كبير الآلهة زيوس هي أجمل امرأة في العالم لأنها كانت ترتدي مجوهرات على اللحم، ولأنها كانت لا تضع شيئاً من الزينة. . وإن حرب طروادة التي قامت من أجل استردادها. قد خمدت لا لأن فريقاً غلب فريقاً ولكن لأن هيلين ظهرت أمام الجنود الذين خطفوها عارية، فانهار الرجال.

وفي مدينة فرانكفورت بألمانيا وضع الجواهرجية تمثالاً لأبي الهول وقد سقط محطماً أمام أسورة من ذهب. . أما المعنى فهو أن في أساطير الإغريق أن أبا الهول كان حيواناً مفترساً وأنه قطع الطريق على الناس. فإذا اعترضه أحد وجه إليه سؤالاً. فإن فشل في الإجابة عنه قتله. . أما السؤال فهو: ما هو الحيوان الذي يمشي على أربع صباحاً، وعلى اثنين ظهراً وعلى ثلاثة مساءً. واستطاع الفتى أوديب أن يجيب فقال: إنه الإنسان. . يحبو وهو طفل على أربع فإذا أصبح شاباً مشى على ساقين، وإذا صار شيخاً توكأ على عصا.

ويقال إن الذي عرف سر أبي الهول هو تاجر مجوهرات. فعندما اعترضه أبو الهول، ألقى إليه باسورة من ذهب فسقط أبو الهول ميتاً. أما المعنى فهو: أن المرأة التي تجعل الرجل يزحف وراءها على يديه ورجليه حتى يتزوجها فيمشي إلى جوارها، وبعد ذلك تكسر ظهره بشراء المجوهرات فيتوكأ على العصا.

لأسباب أنيقة
بين الطبقات
تذوب الفوارق

«مكافأة قطعة من ذهب لمن يلقي القبض على «هشيم» . . إنها خادمة اختفت منذ أيام ومعها فستان جديد لسيدتها» وجده علماء الآثار على جدران مدينة طيبة المصرية من ثلاثة آلاف سنة. ولم يقل لنا المؤرخون إن كانوا قد عثروا على الخادمة أو الفستان أو أن أحداً قد فاز بالجائزة. ولكن المهم أن هناك فستاناً جديداً. أغرى خادمة بأن تسرقه وتهرب. لعلها ترتديه في مدينة بعيدة أو لعلها تبيعه لسيدة أخرى. وهذه هي أول مرة فى التاريخ نقرأ عن فستان جديد. ولأنه جديد فقد سرقته الخادمة. لابد أنه فستان « موضة » .

والموضة تمشي في نفس خط السرقة. فالخادمة تريد أن تقلد سيدتها. . والطبقة الفقيرة تقلد الطبقة الغنية، والشعب يقلد الأسرة المالكة. وهذا التقليد يذيب الفوارق بين الطبقات. وبسبب هذا التقليد فإن الطبقات الغنية تحاول بسرعة أن تتخلص من الموضة لتدخل في موضة جديدة هرباً من الموضة القديمة التي انتشرت بين الشعب. وكذلك التفرقة مرة أخرى بين الغني والفقير، بين السيد والخادم، بين النبل والفقر، بين الملك وعامة الناس.

والتقليد ـ أي تقليد عامة الناس للطبقة الأرستقراطية ـ يجعل عامة الناس يشعرون بأنهم ليسوا وحدهم. . وإنما مع غيرهم ومثل غيرهم من الأغنياء والعظماء.

والتقليد يجعلك تفعل شيئاً دون تفكير. فكما ارتدى الآخرون ترتدي أنت. فالتقليد ينقذك من حرية الاختيار. فأنت تضيق بحريتك، لأن الحرية معناها أن تفكر وأن تختار بين هذا وذاك. ولكن التقليد يجعلك وأنت مغمض العينين، ترتدي هذا الزي أو هذا الفستان دون أن تشغل بالك بالسبب الذي دفعك إلى ذلك.

فالموضة القائمة على التفكير تؤدي إلى التقليد الذي هو انعدام التفكير.

وهكذا يصبح السلوك العام «نمطاً». . وتصبح الموضة زيا موحداً.

ولكي تقلد أحداً من الناس، لابد أن يكون لديك شعور خاص بالنسبة له. أن تتعاطف معه أو تحترمه أو تعجب به، أو ترى في تقليده ارتفاعا بمكانتك الاجتماعية،فأنت لا تقلد الإنسان الشاذ، ولا الإنسان الذي يحتقره الناس، ولا تحاكي المجنون. .

وإذا أنت قلدت إنساناً تحبه أو تحترمه، فهذا التقليد لا يخلق علاقة اجتماعية. بل إن الذي تقلده يتضايق منك تماماً. فهذه الخادمة التي هربت من سيدتها الفرعونية إذا ارتدت فستاناً مشابهاً، فإن سيدتها كانت ستطردها من البيت. . لأنها لا تطيق أن تضيق المسافة بينهما لدرجة أن ترتدي السيدة والخادمة ثوباً واحداً!

والذين يتعجلون التقليد ودون وعي، هم أغنياء الحرب أي الذين إمتلأت جيوبهم فجأة بسبب تجارتهم في أقوات الشعب بعد الحرب.. فهم أغنياء لصوص.. ولذلك فقد أطلقت عليهم الطبقة الغنية والأرستقراطية هذه الصفة إبعاداً لهم عن الأغنياء القدامى الذي يملكون حق متابعة الموضة.. بينما أغنياء الحرب كما سرقوا أموال الفقراء سرقوا موضة الأغنياء أيضاً. فهم لصوص مرتين!

وبعض أغنياء الحرب يطلبون من السائق أن يكون له زي لا يشابه زي صاحب السيارة.. ويطلبون من الخادمة أن ترتدي المنديل «أبو قوية» وتخفي شعرها وتطيل أكمامها وثوبها حتى تختلف تماماً عن سيدتها.. وتجيء المسلسلات التليفزيونية تنتقم من سيدة البيت فتجعلها مريضة عجوزاً، بينما الخادمة شابة جميلة.. ومن الطبيعي أن يتزوجها صاحب البيت. وتعاقب المسلسلات سيدة البيت مرة أخرى عندما تجلس إلى جوار الخادمة أمام التليفزيون تتفرج على إهانتها!!

فنحن في عصر منافقة الفقراء والعاطلين والمحترفين، وعصر هدم القيم والطبقات وقوانين الفصل بين الطبقات. وعصر الديموقراطية التي لا تقوى على مهاجمة الدكتاتورية الوحيدة الباقية: الموضة.. التي تفرض نفسها بالقوة على كل الناس وتفصل بين الطبقات أول الأمر ثم تذيب الفوارق بين الطبقات. ومن هذا الذوبان تتولد موضة جديدة تفصل بين الطبقات وهكذا.

ولأن الموضة تمشي من فوق إلى تحت. ففي تاريخ الموضة نكت تدل على قوة الموضة وعلى سخافتها أيضاً. ففي أوائل هذا القرن نسي ولي

عهد بريطانيا أن يزرر أحد زراير الجاكتة. وقبل ذلك فوجىء ضيوف الأمبراطورة ماريا تريزه النمساوية بأنها تسلم على ضيوفها جالسة. ثم ترفع ذراعها إلى أعلى وتجعل كفها منحنية ليقبلها الجميع. واندهش الناس، لا لجلوسها. فقد كان من عادتها أن تفعل ذلك. ولكن لأن ذراعها مرفوعة أكثر من اللازم.

وربطوا بين هذه البدعة وبين حضور أميرات من الأسرة المالكة الفرنسية. وأصبحت موضة. مع أن الأمبراطورة لم تفعل ذلك إلا لأن دملاً كبيراً يوجعها تحت إبطها!

وفي سنة ١٨٩٣ ظهرت موضة الجيوب الصغيرة في أكمام بعض العمال. وقد بدأ هذه الموضة أحد أصحاب المصانع البريطانية في سنة ١٨٩٣. وكان «السيكارين» قد اخترعه الأطباء ليتناوله مرضى السكر، بدلاً من السكر والعسل. وكان صاحب المصنع حريصاً على تناول السيكارين. وكان إذا وضعه في جيبه فإنه يعثر عليه بصعوبة. فما كان منه إلا أن قطع أسورة كم القميص وأدخل فيها حبوب السيكارين.. وظهرت موضة الجيوب في أكمام القميص والجاكيت.

والموضة تعيش وتموت وفقاً لقانونها: فهي تصدم الناس ويمشون وراءها، وتنتشر بين كل الناس كأنها زي موحد. وهذه هي اللحظة التي تموت فيها الموضة أو من الواجب أن تلقى هذا المصير. ويتحول مصممو الموضة إلى أعدى أعدائها ـ فهم يريدون أن يتخلصوا منها بسرعة لأنها أصبحت بضاعة راكدة.

قالت السيدة كوكو شانيل مصممة الأزياء المعروفة: لقد كنت أرى

الفتيات الجميلات وقد ارتدين الموضة التي صممتها في شيء كثير من الحب والفزع. . فأنا أحب من يقلدني. وفي نفس الوقت أخاف من أن هذه الفتاة سوف تتخلى عني كأنني مرض أو كأنني أعدى أعدائها. . فأنا جعلتها جميلة وهذه الجميلة هي التي سوف تقتلني بعد ذلك!

قال مصمم الأزياء الفرنسي بيير في مؤتمره الصحفي في مينا هاوس: إني في كل مرة أقدم فستاناً جديداً أشعر كأن صاحبة الفستان هي «عروس النيل» الفرعونية. . سوف أجعلها وأزفها للناس. . ثم ألقي بها في النيل. . أنا أعرف أنها سوف تموت. . ولذلك يجب أن أستعد لعروس أخرى، وإلا كان ذلك موتاً لي!

وأحسن ما قيل عن العلاقة بين الفستان وبين مصمم الفستان ما قاله كريستيان ديور قبل وفاته في المحاضرة التي ألقاها في «الجمعية الفلسفية الإيطالية» نشرت ضمن موسوعة «رواد الفكر الحديث» قال ديور: أنا أشعر بعدم الأمان. فالموضة عابرة. ولأنها عابرة فأنا أقدمها وأستعد للموضة التي بعدها. ولأنني لا أعرف كم عمرها، كما إنني لا أعرف كم عمري، فإنني أقدمها وأتلفت ورائي. . ولا أقوى على النظر إلى الذين يشاهدون الموضة فهم جميعاً الجلادون الأعزاء. . بهم نعيش وبهم نموت!

ولكنها شروط لعبة الموضة، وشروط أن تكون مصمماً لها. . ففي هذه الدنيا إثنان يجب أن يفهمها قواعد هذه اللعبة: الكاتب والترزي!

* * *

أذكر أنني كنت أتناول طعام العشاء في مطعم «أرارات» بموسكو. . وأرارات هو اسم جبل على حدود تركيا وأرمينيا وقد رست عليه سفينة

سيدنا نوح عليه السلام. وأعجبني صوت المطرب وكان أرمنيا . . صوت حزين شجي يقطع القلب مثل أصوات أبناء الجنوب في إيطاليا وأصوات أهل البحرين. وطلبت من المرافقة الروسية أن تترجم لي كلام الأغنية . . تقول الأغنية: ليتني شجرة في غابتك، ليتني غصن في شجرتك، ليتني وردة في غصنك، ليتني عطر في أنفك، آه. . ليتني وردة على فستانك إذن لظللت هكذا إلى الأبد . . إلى الأبد . . ليتني . . الله ما أحلى الكلام، وما أكثر سذاجة الشاعر. فهو يتصور أنه إذا كان وردة على فستانها فسوف يظل قريباً منها إلى الأبد. وهو يتصور أنها لن ترتدي إلا فستاناً واحداً حتى الموت. . وهو لا يعلم طبعاً أن الموضة إذا قررت أن تظهر على الفستان جزمة فسوف تخلع الفستان «بوردة» ولو ظل يغني تحت النافذة مدى الحياة! وكما تجيء الموضة من فوق لمجرد التقليد، تجيء أيضاً بسبب الحب والإعجاب والحزن والحرص على إطالة عمر الفقيد، وهذا واضح فيما حدث بعد وفاة السيدة الأولى في الأرجنتين. ماتت القديسة ايفا بيرون يوم خرج الملك فاروق من مصر يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وحنطوا جثمانها. وعرضوه على الشعب. وحدث انقلاب عسكري بعد ثلاث سنوات. فهرب الشعب جثمانها إلى ايطاليا ودفنوها في مدينة ميلانو. ثم طلب زوجها الجنرال بيرون نقل جثمانها إلى مدريد ١٩٧١ ليعود به إلى الأرجنتين. وعاد الجنرال إلى أرض الوطن في ١٩٧٦. وتوفي وحكمت بعده زوجته الثانية ايزابيلا بيرون التي أمرت بإعادة جثمان ايفا إلى الأرجنتين لتدفن إلى جوار زوجها، وفوجئت بأن الزوج قد اختفت جثته ونقلت إلى خارج البلاد. . ثم أعيدت إلى مكانها إلى جوار ايفا بيرون. . وأصرت النساء في الأرجنتين على خلع الموضة الجديدة وارتداء الفستان

الذي ماتت به ايفا بيرون. إنه فستان واسع وله ذيل على الركبة «شانيل» وله أكام ثلاثة أرباع، وخط الرقبة منخفض قليلاً.. أما الوسط فمحدد بحزام واسع وعلى الصدر وردة كبيرة. وفي الأذن قرط على شكل وردة.. وعلى الرأس طرحة محلاة باللؤلؤ كانت قد ارتدتها عندما زارت الفاتيكان.. وكانت أكبر هزيمة للموضة.. وأعظم كساد اقتصادي أصاب الصناعات الفرنسية!

وقد استطاعت المطربة الفرنسية «جوليت جريكو» أن تقف ضد تيار الموضة الفرنسية وحدها، فارتدت البنطلون الأسود والبلوزة السوداء، نهاراً وليلاً. وظهرت بها في كل كباريهات باريس ولندن ونيويورك. وسار وراءها الملايين. وحاولت دور الأزياء أن تغريها بتطوير هذا الزي، ولكنها رفضت.. وعندما جاءت إلى القاهرة والتقت بالأدباء وظهرت تغني في الأوبرج كانت ترتدي بلوزة سوداء بلا أكمام، وجلسنا بعد ذلك حولها لنسألها عن الفلسفة الوجودية التي تحمست لها وعن الأدب الحديث.. ثم عن التغيير الذي طرأ على البلوزة، فضحكت وقالت بسرعة عجيبة: إن نابليون قد حطم أنف أبو الهول.. وأنتم قطعتم أكمام بلوزتي انتقاما لذلك!

فقد كان الجو حارا جدا في يوليو ١٩٥٤.

والموضة تمشي وراء القوى.. ولذلك خرجت من بلاط الملوك. وعندما كانت أسبانيا أقوى دولة في أوروبا، سارت وراءها الموضة. وعندما استعادت بريطانيا قوتها البحرية، اتجهت إليها العيون وسارت وراءها نساء العالم.

ولكن اسبانيا كانت تضع المرأة في مؤخرة كل الصور. واللوحات الفنية.. أي أن المرأة تجيء وراء الرجل. أما في فرنسا فقد تقدمت المرأة كل اللوحات الفنية لأنها تقدمت في البلاط الملكي. ولأن لها دوراً كبيراً ونفوذاً قويا، فتزعمت فرنسا موضة النساء في العالم كله منذ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ حتى اليوم.

* * *

ومع الموضة كانت آداب السلوك واللياقة وحسن التصرف: الأتيكيت. أي آداب الجلوس والوقوف والانحناء والسلام وآداب المائدة.

ولذلك كان الأتيكيت هو محاولة مستمرة للتوفيق بين الأخلاق والذوق.. والموضة أيضاً: محاولة عقد زواج سعيد بين الأخلاقيات العامة والرغبة في المتعة.. أو إخفاء الرغبات الجنسية بصورة جمالية والإنسان البدائي كان يمشي عارياً تماماً. ولا يجد في ذلك خروجاً على الآداب. بل هذا هو الأسلوب اليومي في حياته. أما في أوروبا فلم يكن ممكناً أن تظهر قدم المرأة أو كعبها قبل مائتي سنة.. وإذا حدث ذلك فهو فضيحة كبرى. ويقال إن مدام بومبادور التي كانت تشكو من آلام في مفاصلها لم تكشف عن قدمها للطبيب وإنما هو قد استأذنها في أن يلمس أصابعها من فوق جوربها!

ومع ذلك فالموضة لا تخفي من أعضاء الجسم الإنساني، بقدر ما تبرز ذلك.. وعندما هبط خط الرقبة في فساتين العصور الوسطى، أدى ذلك إلى تأكيد بروز البطن والنهدين.. حتى أن الرسام الألماني ديرر في

لوحته الشهيرة للسيدة العذراء في سنة ١٥١٢ ، قد جعلها ترتدي فستاناً واسع الرقبة. . بل إن خط العنق قد نزل بصورة غير لائقة - ولكنها الموضة في ذلك الوقت!

وظهرت آداب السلوك الاجتماعي الفرنسي مع ظهور «الشوكة» التركية الأصل على مائدة أحد النبلاء. . ورأوا أن شكلها مثل أنياب وحش قد مات منذ وقت طويل ، ولكنها انتشرت بعد ذلك، ابتداء من القرن الرابع عشر.

ومن آداب اللياقة ألا يذكر أحد شيئاً عن دورة المياه، قبل أو بعد الأكل ،فهناك تعبيرات كثيرة للرمز إلى ذلك. . كأن تضع المرأة يدها على أنفها، أو على فمها أو على صدرها. . بما يدل على أنها تشكو من شيء ما. . ويفهم الآخرون أنها تريد أن تذهب إلى الحمام. . أو التواليت. . بيت الأدب. . أو بيت الراحة. . أو غرفة التجميل. . أو غرفة البودرة. . أو أنها ذهبت كما تقول العبارة الفرنسية: لترى وجهاً أجمل - أي وجهها هي.

بينما كانت الحمامات الشعبية من أيام الرومان والإغريق والأتراك مشاعاً للرجال والنساء معاً. . ثم للنساء معاً والرجال وحدهم. . وفي هذه الحمامات التركية التي تستخدم البخار كانت حياة اجتماعية تجارية وسياسية. . وجنسية أيضاً. أما الحمامات الطبية أو «الصونا» الحديثة، فهي للعلاج والرشاقة وليست بها حياة اجتماعية!

* * *

وربما كان الإمبراطور شارلمان في ٨٠٨ هو أول من جدد للطبقات ما يجب أن ترتديه من ملابس ومن مجوهرات . . وفرض عقاباً لكل من يخالف ذلك . . ولكن هذا الإمبراطور لم يدرك أن هناك إمبراطوراً أعظم وأكثر طغياناً هو: الموضة نفسها!

وهو أيضاً أول من أدان تقليد الأجانب. أي تقليد الفرنسيين للألمان ، والعكس. وكان السبب عنده هو كراهية الأجانب. . ولكنه لم يدرك المخاطر الاقتصادية التي تصيب الصناعات المحلية بسبب تدفق السلع الأجنبية والموضة الأجنبية والذوق الأجنبي. إن بريطانيا قد أنعمت بأعلى أوسمتها على الشبان المطربين «الخنافس» لأنهم كسروا احتكار أمريكا للأغنية وللرقص . . ولأن انتشار أغانيهم وموضة ملابسهم وموضة «الميني جيب» قد عاد على بريطانيا بعدة ملايين من السياح جاءوا يشاهدون بأنفسهم هؤلاء الخنافس وبنات بريطانيا وقد ارتدين الميني جيب «والميكرو جيب» فكسبت بريطانيا في عشرة أعوام عشرة آلاف مليون دولار!

وفي القانون الأمريكي قضية اسمها قضية «هانس» تجمع كل هذه المعاني .فقد ذهب شاب إلى المحكمة يشكو والديه ، ويطلب تعويضاً قدره نصف مليون دولار ، لأنهما أساءا تربيته. فلما كان هو ابنهما الوحيد فقد جعلاه يرتدي ملابس الفتيات حتى الثانية عشرة من عمره. ولم يعد الآن يحب ملابس الرجال. وقد تحمس للدفاع عنه محام ناشىء وجد في هذه القضية فرصته للشهرة والظهور في الصحف والتليفزيون. ولكن القاضي قال له: إن أبويك لا يستحقان منك هذا العقوق . . إنك الآن

في الثلاثين من عمرك. رجل طويل عريض ولك شارب. وأراك تملأ العين والنفس بهجة وسعادة.

وقال الابن: إنني أرتدي ملابس الفتيات في غرفة نومي وأتزين بالمجوهرات.. إنني لا أستطيع أن أقاوم الموضة.. وإن كنت رجلاً مكتمل الرجولة. وفي غراميات عديدة. ولكن لا أقوى على رؤية الفتيات وقد ارتدين الملابس العارية. أريد أن أقلدهن تماماً.

وحكم القاضي برفض الدعوى. وطلب أن يخلو بالشاب. وصفعه على وجهه بمنتهى القسوة ثم عاد إلى المنصة وقال للمحلفين والشهود: لقد صفعته على وجهه مرتين. فإن شاء أن يعاقبني فليفعل.. وشجعه المحامي على ذلك. ولكن الشاب أعلن أنه سعيد بذلك، فقد انتظر ثلاثين عاماً أن يضربه أبواه فلم يفعلا. ثم تبرع الشاب بكل ما لديه من فساتين لإحدى الجمعيات الخيرية!

تقول الأديبة الأمريكية سوزان سونتاج: يعجبنا نحن النساء أن في رجولة الرجال شيئاً من الأنوثة، وفي أنوثة النساء شيئاً من الرجولة فالجميع يتزينون بالذهب والأحجار الكريمة!

الحجاب لأسباب دينية . .
والحجاب الأنيق .
لأسباب نفسية

لا نعرف إلا القليل جدا عن السيدة «بوران» زوجة الخليفة المأمون. كانت جميلة. غنية. كريمة. وكانت تغني وحدها وتختار الخادمات جميلات الصوت ـ لا الصورة. ولكن كتاباً عن «حريم السلطان» للأديبة الإيطالية ماتيلدا جالي تتحدث فيه عن الحياة في بغداد وتصف فيه ما الذي كانت ترتديه النساء استناداً إلى ما جاء في «ألف ليلة» وإلى ما جاء في كتاب «الأغاني» من أوصاف المطربات والعشيقات ولكنها تقول إن السيدة بوران زوجة المأمون هي أول من ربط المنديل الحريري حول عنقها.

وليس معروفاً السبب الحقيقي لذلك ولكن من المؤكد أنها « نزوة » .. فكرة خطرت ونفذتها. . ولكن المهم أن ربطة المنديل أصبحت موضة بعد ذلك. . حتى يقال إن الخليفة المأمون وجد مطرباً قد لف منديلاً حريريا أحمر حول عنقه فقال له ما معناه: والله لقد أفسدتك النساء.

ولما ذهب رفاعة رافع الطهطاوي إلى باريس لاحظ أن المرأة الفرنسية تشد صدرها وظهرها. وأنها تضع أعوداً من الحديد بين نهديها. ولم يحاول أن يجد تفسيراً لذلك. و إنما هو قد لاحظ وكتب . ولو ذهب الشيخ الطهطاوي إلى لندن في نهاية القرن التاسع عشر لرأى الملكة فكتوريا قد

شدت ظهرها وصدرها ونفخت البلوزة والفستان وارتدت الملابس الواسعة، والفساتين فوق الفساتين. فكانت موضة عالمية. أما سبب ذلك فهي أنها أرادت إخفاء تقوس في الظهر وتضخم في الصدر.

وهذا هو قانون الموضة إنها تمشي من فوق لتحت: من «نزوات» الملوك إلى النبلاء إلى الأغنياء إلى الشعب.. ومن البلاط الملكي القوي إلى الأسرة المالكة الأضعف، ومن عاصمة إلى عاصمة.

وإذا كانت الثورة الفرنسية ١٧٨٩ قد جعلت الموضة هي ملابس الشعب الخشنة البسيطة، فإن تولي نابليون الأول عرش فرنسا، أعاد الأبهة والفخامة إلى كل البيوت.. وأعاد الصور والساحات الواسعة والتماثيل الضخمة وعدل الدستور القديم الذي كان يجعل المرأة تابعة للرجل. ويحرمها من حقها في أن تبيع وأن تشتري. وفي سنوات حروب نابليون انقطعت الموضة عن بقية العواصم الأوروبية. ولكن عندما سقط نابليون، اتصلت العواصم بعضها ببعض وتقدمتها باريس. ولا تزال حتى اليوم.. وعلى عكس ما يحدث في عالم الحيوان والطيور، فإن الرجل أقل حفاوة بمظهره. ففي عالم الطيور تجد أن الذكور أكبر حجماً وأطول ريشاً وأكثر ألواناً: تجد الديك له تاج من اللحم فوق رأسه إلى جانب الألوان الجميلة في الذيل والعنق.. وتجد الأسد أكبر حجماً. وله رأس ضخم، وحول الرأس «معرفة».. إلا في عالم الإنسان فالرجل أقل اهتماماً بمظهره.

ولذلك أسباب كثيرة.. منها أن الرجل يريد أن تكون المرأة هي المغرية وهي المثيرة.. وعليها هي أن تدور حوله وأن ينتظر وأن يكون هذا هو دور المرأة. وبذلك يعرضها لسخط رجال الدين. الذين قالوا مع

ظهور الديانة المسيحية: إن المرأة هي باب الشيطان وأن احتقارها وعذابها وإذلالها واجب على كل رجل!

وإذا تظاهر الرجل بطاعة الدين، فإنهم حريصون على أن تبدو المرأة متمردة عاصية. مع أن عصيانها وتمردها من صنعه هو وإرضاء لشهواته.

ولكن حدث في العصور الوسطى، مع الشعور العام باليأس والضيق بالحياة، أن فرض رجال الدين «زيا قاتماً» على كل الناس. فارتدوا الثوب الأسود والبني القاتم أو الأبيض. وجعلوا القماش خشناً من الكتان أو التيل أو الصوف أو الوبر - زهداً في الحياة وتعذيباً للجسد، وبعداً عن الإغراء.

وفي الحروب الصليبية حدث تغير هام. فقد عاد المحاربون من الشرق وقد عرفوا الملابس الحريرية وعرفوا العطور ووضعوا العقود والأقراط والأساور. واستحضروا معهم الدهون والمنشطات من خلاصة الحيوان والأعشاب الشرقية.

ولكن التحولات الاجتماعية التي دفعت بالمرأة الأوربية خارج البيت، قد جعلتها تتخفف من ملابسها ومن قيودها أيضاً. فوجدنا الفساتين قد اتسعت. فخط الوسط قد ضاق قليلاً. وذيل الفستان قد ارتفع. ولم تعد المرأة ترى من الضروري أن ترتدي أكثر من فستان واحد. كما أن أحد عباقرة الأزياء قد أطال كعب الجزمة، مما جعل المرأة تدب على الأرض وفي نفس الوقت ترفع رأسها وصدرها وتهتز.

وبدأ الرجال يدخلون في منافسة علنية للأناقة والاستعراض. ولم

يعرف التاريخ رجلاً مثل الإنجليزي «بو» بروميل «١٧٧٨ - ١٨٤٠» فهو الأنيق الأول في التاريخ. كان يفصل الجاكتة عند ترزي والبنطلون عند ترزي آخر والصديري عند ثالث. . أما القمصان فهي من تصميمه هو. . وكذلك الجزمة. وكان ينفق أمواله وأموال أصدقائه من الأمراء على مظهره الفخم. وهو أول من ابتدع الكثير من مصطلحات الأناقة. فقد كان من الضروري أن يترك مذكرة لخادمه لكي يعد له ملابسه قبل أن ينهض من نومه. وكان الخادم يسهر الليل كله يحاول أن يوفق بين الملابس التي يريد أن يرتديها سيده. . وكان عليه أن يلاحق الخياطين في كل مكان وأن يبيع أثاث البيت ليدفع لهم الأجور. . وأن يقترض. وفي أحد الأيام وجد «بو» بروميل خادمه قد انتحر لأنه لم يعد قادراً على خدمة سيده. . أما سيده نفسه فقد هرب من الدائنين ومات منتحراً وقد فرش الغرفة بمئات من الجاكتات والبنطلونات و «البوشيرت» أي «قميص بو» الذي نرتديه الآن سمي كذلك نسبة إلى «بو» بروميل.

وهذا الرجل نموذج للرجل «العايق» أو «المعجباني» أو «الرجل الذئب» الذي نشاهده في الأفلام وقد ارتدى الروب فوق القميص والبنطلون أو على اللحم وقد سوى شعره وتعطر و وقف وراء الباب في انتظار الضحية الجميلة.

وقد أدى اختراع المواد الكيماوية الجديدة إلى خلق الخيوط الصناعية والنايلون والحرير الصناعي و إلى ابتداع صبغات جديدة. . كل ذلك انتقل بسرعة إلى فساتين المرأة. وبسبب الحساسية للمواد الكيماوية المستخدمة في الملابس الجديدة، عادت المصانع تضيف القطن إلى الحرير الصناعي، وعادت تخفف من الصبغة الكاوية للبشرة. فبعد أن اعتادت

المرأة على الفحم والشحم رجعت إلى الحرير. فالمصانع تدور ولا بد أن تبيع، والرجال قد استراحوا والنساء أيضاً، ولا بد من أن يكافئ الإنسان نفسه بعد هذا العناء من الحربين.

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية بعد خراب الدنيا وموت ثلاثين مليوناً، وتوقف المصانع، انتاب الناس شعوران متضادان: الضيق بالحياة وبالإنسان والكفر بالمثل العليا. ثم الإقبال على الحياة والملذات بعد أن حرموا منها.. ولذلك كانت الفساتين تمشي في اتجاهين متضادين: التخفف الشديد والتكدس الشديد.. فساتين قصيرة مختصرة خفيفة في المدن، وفساتين فوق فساتين في الريف.. الفساتين الخفيفة دليل على الحرية والانطلاق.. والفساتين المكدسة دليل على عدم الشعور بالأمان..

وقد وصفت السيدة عصمت ارتطان في كتابها «جميلات محمد علي» ما الذي كانت تعانيه الملكة نازلي من الحساسية الشديدة بسبب بعض الأقمشة. وتقول المؤلفة إن الملكة نازلي هي رابع امرأة في التاريخ كانت تستحم في اللبن.. الأولى هي بلقيس ملكة سبأ والثانية كليوبترا ملكة مصر والثالثة راقصة الباليه الأمريكية ايزادوره دنكان.

وبو- بروميل هو الذي ابتدع القبعة العالية وانتشرت.

ولكن لماذا يضع الإنسان القبعة ويخلعها عند التحية.. ولماذا يضع الباروكة إذا كان قاضياً أو إذا كان ملكاً؟

الجواب: أن الإنسان يخلع القبعة كنوع من التواضع، لأن القبعة تضيف بضعة سنتيمترات إلى طول الإنسان. فإذا خلعها نقص طوله، أي

أصبح أقصر قليلاً. . فهذا مظهر من مظاهر التواضع أمام الغير. . وكذلك إذا انحنى فالانحناء معناه: أن ينقص طوله. . وأن يكون أقل. . ومعنى ذلك: إنني احتراما لك، فإنني أنزل عن بعض طولي وأنظر إلى الأرض أمامك، بدلاً من أن أنظر إليك: خشوعاً وخوفاً وتذللاً!

وكذلك فإننا أمام الكبار «نزرر» الجاكتة. . أي لنكون أقل «عرضاً» أي أصغر قليلاً. . إذن أنت تحني رأسك وتزرر الجاكتة. . وهكذا تكون أنقص طولاً وعرضاً.

أما ارتداء الباروكة فقديم جدا، الفراعنة كانوا يفعلون ذلك. وكانت الباروكة للوقاية من الشمس، كأنها طاقية أو برنيطة. . وكان الرجل الأصلع يتغطى بها أيضاً. والملكة حتشبسوت وضعت الباروكة لكي تبدو وقوراً كما لو كانت رجلاً. والملك لويس الثالث عشر كان أصلع، وقد فرض الباروكة على الآخرين حتى الذين عندهم شعر، كان يحكم عليهم أن يقصروه ليضعوا الباروكة!

وتطورت صناعة الباروكة، فكانت أولاً من شعور الأسيويات فبنات الصين وأندونيسيا يقمن بتطويل الشعر ثم قصه وبيعه وتصديره إلى أوروبا لتعاد صباغته باللون الذهبي. . وبعد ذلك ظهرت الشعور الصناعية: الباروكة الطويلة والقصيرة. . و «البوستيش» أي «الخصلة» التي توضع تحت الشعر الطبيعي. . وذلك حماية لشعر المرأة من أدوات التسريحات الحديثة التي إذ لابد من استخدام «سشوار» أي مجفف ساخن للشعر المغسول بالزيوت حتى يتخذ الشكل المطلوب.

وكما أن القوة تفرض الموضة. . قوة الأسرة المالكة أو الطبقة المالكة أو

الأغنياء. . أو قوة الدولة نفسها، فكذلك الظروف القوية أو الأحداث القاهرة، تفرض أسلوباً في الحياة والتفكير أيضاً. .

فماذا حدث حتى انتشرت موضة الفساتين «الميني» في أوروبا في الستينات. . والزي الموحد للرجال والنساء في السبعينات. . ثم ظهور الحجاب في الشرق الأوسط؟

الأسباب واحدة. . وإن كانت النتائج مختلفة. . فبعد الحرب العالمية الثانية كان هناك نوع من الكفر السياسي والإلحاد الاجتماعي والقرف من الإنسان. . فكل الصروح العلمية والمذاهب السياسية قد انهارات. . أي انهار الإنسان أمام الإنسان. . واجتاحت الإنسان موجات من اليأس والتشاؤم والرغبة في الموت. . ثم تحول التشاؤم إلى نوع من الغضب، وتحول الغضب إلى سخط، والسخط إلى تمرد. . والتمرد إلى عصيان مدني ضد الدولة ورجال الدين ورجال الحرب والأب والأم والمدرس. فرأينا في أوروبا الشبان يفعلون بالضبط عكس الذي اعتادوا عليه. . لا يذهبون إلى المدرسة والكنيسة ويطيلون أظافرهم ولا يحلقون رءوسهم ولا يعودون إلى البيت وإنما ينامون على الأرصفة وفي الحدائق. . ويعايشون الفتيات بلا زواج ويكون لهم أولاد. . ولا تكون لهم وظيفة. . ثم يهجرون البيت والمدينة إلى الجبال والكهوف. . ثم يغيبون عن الحياة بتعاطي المخدرات والإسراف في الجنس،وإذا حاول الآباء أو السلطة أو الكنيسة أن تستردهم طالبوها بالثمن. . بأن يدفعوا مقابلاً ماليا لذلك. فيدفع الآباء، إشفاقاً على الشبان الصغار. ويعود الشبان إلى المدرسة ولكنهم لا ينامون في البيت. . ثم يهاجرون سرا إلى بلاد أخرى، ويهربون من الجيش. .

ويرفضون أن يحاربوا تحت أي لواء لا يفهمونه. . وتطبيقاً لأية نظرية لا يصدقونها فقد كذب كل الرجال على كل الأطفال والشبان. . ولم يعد هناك سبب مقبول لأن يموتوا من أجل ما لا يفهمون وما لا يحبون وما لا يصدقون.

وكان ذلك واضحاً في الأزياء التي هي قلب لكل المألوف. وقد قلدت نساء العالم موضات لندن ولكن أحداً لا يعرف السبب الحقيقي الذي دفع الشباب الساخط إلى ذلك. فالموضة انتشرت، لأن الموضة قوة ذاتية لا يقوى أحد على مقاومتها.

وظهور الحجاب في الشرق الإسلامي له نفس السبب. ففي إيران مثلاً كان السخط شديداً على محاولة «التغريب» أو «الفرنجة» التي فرضها شاه إيران بالقوة على الشعب. ولكن الشعب وجد هذا التيار ضد الدين. . يخفي وراءه أهدافاً تجارية. . وتتولى التجارة أفراد الأسرة المالكة. فكانت الأسرة المالكة في إيران تبيع الشعب لتكسب ولو أدى ذلك إلى هدم الأسرة والقيم الدينية.

وليس معنى ذلك أن التمسك بالدين حديث جدا. ولا الاحتشام يرجع إلى عشر سنوات فقط. ولكن الاحتشام والتمسك بالقيم الأخلاقية قديم جداً. والحرص على الأسرة وعلى البيت وعلى الزوجة والأولاد يرجع إلى حياة الإنسان في الكهف. أي عندما قال الإنسان هذا لي. . وهذا لك. . هذه حدود مملكتي، وتلك حدود مملكتك.

ولكن حدث في الشرق الأوسط في أعقاب الحروب المتوالية والهزائم المتكررة أن أصبح اليأس عميقاً، وهذا اليأس سببه أن المذاهب السياسية

والفكرية والاقتصادية قد عجزت عن تحقيق السلام النفسي والاجتماعي وعجزت أيضاً أن تحقق العدل بين الناس فكان الغضب عاماً والسخط غامراً. ومن مظاهر ذلك العودة إلى الدين. .

ولما كثرت القواعد والقوانين والكتب، كان لا بد من العودة إلى الكتاب الواحد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والقانون السماوي الواضح الصادق. أي لا بد من التمسك بكتاب الله والدين والله. وأوضح صورة لذلك أن ترتدي الفتاة الملابس المحتشمة. . وأن تخفي شعرها وملامح جسمها. فلا تلفت العيون إليها. . ويكون هذا الزي مميزاً لها عن غيرها ويكون عرضاً بارزاً لوجهة نظرها لأن لها رأياً دينيا وأن هذا الرأي يحتج على الأوضاع القائمة. . وأنها حريصة على أن تؤكد ذلك. . وازدياد عدد المحجبات هو تعبئة عامة ، صامتة وتنظيم لصفوف المعترضين والمحتجين والساخطين والمتربصين.

ونحن لا نعرف بوضوح كيف كان زي المرأة المسلمة على أيام الرسول عليه السلام. ولذلك فالزي الذي ترتديه المرأة المحجبة اليوم هو أقرب إلى زي الراهبات المسيحيات. ولكن أحداً لا يشعر بحرج من ذلك. . بل إن هناك نوعاً من الارتياح لهذا المعنى. .فكانت الفتيات المسلمات قد أضفن إلى صفوفهن راهبات مسيحيات وكلهن في معسكر واحد ساخط على الحياة الحديثة البعيدة عن الدين.

وكانت دور الأزياء أكثر ذكاء وأسرع إلى الاستجابة إلى هذه الرغبة الخفية عند الفتيات المحجبات، فأقامت عروضاً لأزياء المحجبات وقدمت فساتين جميلة الألوان ومختلفة الخطوط. . ومعنى ذلك أن

المرأة بدأت تتفنن في تجميل هذا الزي المحتشم. . فهي تهرب من إحساسها بأن الزي قد أصبح «يونيفورم»- أي زي موحد - ولذلك فهي تحرص على الخطوط الطويلة الواسعة. . ولكنها في نفس الوقت تريد أن تضيف إليه لمسات من ذوقها ومن إحساسها بالجمال ومن لفت العيون إليها أيضاً!

وهذا يدل على أنها خففت قبضتها على نفسها. فليس الدين ثوباً طويلاً ولا هو إخفاء للشعر وإظهار للعينين والشفتين والكفين. وإنما الدين في القلب، بينك وبين الله وفي نفس الوقت هو الاحتشام العاقل والوقار اللطيف.

قد كان التحجب لأسباب دينية، أما التحجب الأنيق فلأسباب نفسية. . ومن الطبيعي أن يكون لهذا التحجب الأنيق رد فعل عنيف قريباً. . بأن يظهر حجاب غير أنيق. حجاب جاف يؤدي إلى ارتداء ملابس لا تكشف شيئاً. وبذلك تتميز نوعية جديدة من الفتيات المتشددات عن الفتيات اللاتي هن أقل تشدداً.

حتى هذا السلوك يتمشى تماماً مع قوانين الموضة. وهي أن الموضة تنتشر تمهيداً لأن تنكمش أي تعيش واسعة النطاق استعداداً لأن تموت - لأسباب جمالية أو اجتماعية أو دينية أو عسكرية أو علمية. . أو تجارية!

القانون يحرم إحراق موضة
الرئيس الأمريكي نيكسون

شيء غريب ذلك القرار الذي اتخذه شاب في العشرين من عمره لا يملك إلا قطعة قماش تصلح لأن تكون خيمة. فهاجر ومعه هذا القماش من ألمانيا إلى أمريكا. عرض القماش للبيع. فلم يشتره أحد. ذهب إلى مناجم الذهب. ليرى الذهب الذي يحلم بأن يكون واحداً من الذين يملكون منه الملايين. لم يلفت نظره الذهب. ولكن لفت نظره أن هناك علاقة بين عمال المناجم وبين القماش الذي معه. فالعمال في حاجة إلى بنطلونات متينة ثقيلة. هنا فقط أدرك «ليفي اشتراوس» الألماني اليهودي، أن هذا هو القماش الذي يناسبهم. وفتح دكاناً لبيع البنطلونات المتينة القماش. والقماش من نوع «دنيم» الفرنسي - نسبة إلى مدينة «نيم».. وأقبل العمال يشترون البنطلونات بالمئات.. وبالألوف.. واتسع الدكان وانتقل البنطلون «الجينز» الأزرق من العمال إلى الموظفين، وكان ذلك في سنة ١٨٥٣.

وانتقل ليفي إلى الشاطىء الآخر من أمريكا وفتح محلاً أكبر حطمته وأحرقته الزلازل.. وتوفي ليفي اشتراوس سنة ١٩٠٢. وتولى إخوته وأولادهم تسويق البنطلون الذي انتشر في أمريكا كلها.. وفي

سنة ١٩٣٠ ارتدت المرأة الأمريكية البنطلون الجينز. وظل هذا البنطلون بشكله وقماشه مخلوطاً بخيوط النحاس إلى يومنا هذا. أي أنه أطول موضة عرفها الإنسان ـ ١٣٣ عاماً!

ربما كان زي الحرس البابوي أطول عمراً. فالحرس السويسري الذي يحرس الباب يرتدي زيا من تصميم الفنان العظيم ميكل أنجلو. فلم يتغير هذا الزي ٤٥٠ عاماً. فقط سنة ١٩٧٥ أدخلت بعض التعديلات على هذا الزي ليتمكن الحارس من وضع القنابل اليدوية في جيب البنطلون أو في جيب الجاكتة!

ولكن زي الحرس البابوي لا يوصف بأنه موضة ـ وإنما هي موضة محدودة يراها الناس ولا ينقلونها. لأنها تشترط لمن يرتديها وظيفة خاصة. ولذلك بقيت هذه الموضة محصورة بين جدران الفاتيكان ـ للمشاهدة وليست للتقليد!

ولكن الذي يساعد على انتشار الموضة «سيولة المجتمع». فالمجتمع تنساب طبقاته بعضها في بعض. فقد سقطت الحواجز بين الطبقات والفواصل بين الفئات.. وانفتحت العواصم على المدن والمدن على القرى، والطبقة العاملة على الطبقة الكاتبة على الطبقة الحاكمة في أماكن العمل واللعب والسياحة.. ورأى الناس بعضهم بعضاً عن قرب.. وعرفوا بوضوح ماذا يرتدون ويأكلون ويفكرون. ولذلك كان الالتقاء بينهم على أشياء كثيرة. وانتقلت الموضات من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى ـ وهذا هو أكثر انتشاراً. فظهور الطبقة العاملة القوية جعل الموضة ترتفع من أعلى إلى أسفل.. وانتشار البنطلون «البلو جينز»

أكبر وأطول وأعمق دليل على ذلك. وانتشار القمصان بلا ياقات، والياقات بلا كرافتات، دليل آخر.

وبسبب تحديد ساعات العمل أصبح لدى الناس وقت للفسحة، والفسحة لا تكون بالجلوس في البيت، وإنما بالخروج إلى الشوارع الأندية والجلوس في المقاهي. والشوارع هي أكبر فرصة لعرض الأزياء. والنساء عندما يقفن يتفرجن على الفترينات، فهن عارضات أزياء، يتفرجن على عارضات الأزياء. ولذلك فدور الأزياء تطلق المانيكانات في الشوارع يعرضن ويستعرضن، والنساء يتفرجن على العارضات، والرجال يجلسون في المقاهي يتفرجون على النساء اللائي يتفرجن على عارضات الأزياء. وتقوم التليفونات بما يتبقى من دعاية للموضة الجديدة. فكل سيدة تمسك التليفون وتتحدث عن الذي رأت وبكل دقة. وهكذا في ليلة واحدة تكون العاصمة قد عرفت آخر خطوط الموضة، دون مجهود تبذله دور الأزياء!

وقد أدى انتشار الكهرباء بعد الحرب العالمية الأولى إلى نشر الموضة.. ففي عروض الأزياء وتحت الأضواء ترى المرأة بمنتهى الدقة تفاصيل الموضة. وقد تبدو هذه العبارة عادية الآن. ولكنها لم تكن كذلك قبل الحرب العالمية الأولى. فكانت الأضواء قليلة. والمصابيح أقل انتشاراً.. ولم نعرف معنى الاضاءة وخطورتها إلا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان من الضروري إطفاء الأنوار أثناء الغارات الجوية. والموضة لم تتوقف حتى أثناء الحرب. ولكن كان انتشارها ضيقاً، لأن أحداً لايرى أحداً.. فالدنيا مظلمة وفرص الاستعراض ضيقة. مثلاً:

أثناء العرض العسكري للمجندات بالقرب من لندن انتشرت موضة ربط المنديل حول المعصم. ولم يكن ذلك مقصوداً. فقد فوجئت إحدى المجندات بأن جاكتها بلا جيوب فلم تجد مكاناً تضع فيه منديلها فربطته حول معصمها. وفي اليوم التالي ظهرت إحدى أميرات الأسرة المالكة وقد ربطت منديلاً ورديا حريرياً حول معصمها. . واستغرقت هذه الموضة ثلاث سنوات في ظلام لندن لكي تنتشر بين الناس بعد ذلك!

والطبقة العاملة القوية رأت من حقها أن تكون لها موضة خاصة. هذه الموضة تفرض نفسها على بقية الطبقات. فظهر البنطلون أبو حمالة، بشرط أن تكون الحمالة عريضة غليظة لا تتمشى مع الرقة والنعومة التي تفضلها الطبقة المتوسطة تقليداً للطبقة الغنية.

وعلى الرغم من قوة الطبقة العاملة، إلا أنها نموذج للطبقة المترددة في اتباع الموضة. فهي حديثة العهد بالقيادة. ولذلك لجأ مصممو الأزياء إلى أن يجعلوا الموضة صارخة الألوان جريئة الخطوط. ففي مواجهة التردد لا بد من الحسم. فجاء الحسم من مصممي الأزياء. وفي مواجهة هذا القرار الفاضح لا بد من الطاعة. وانتقلت الموضات الشاذة بين الطبقة العاملة إلى الطبقة المتوسطة. وتولى نشر مثل هذه الموضة أبناء العمال من الشبان. فكانت الجماعات الجريئة: الخنافس والقمصان السوداء والضعفاء ونصف الأقوياء والبنكس والشعور الزرقاء وهامش الطريق، وكلها أسماء جماعات ترتاد شوارع العواصم الأوروبية.

ووسائل الإعلام هي إحدى قوى الضغط الاجتماعي على كل الناس ففي الصحف مساحات للأزياء،والمرأة عادة أكثر تحركاً نحو الموضة من

الرجل. والمرأة دون الثلاثين تتمسك بخطوط اليوم، ودون الخمسين تتمسك بخطوط الأمس، وفوق الخمسين تحرص على خطوط أمس الأول.

وتنتقل الموضة أيضاً محاكاة للنجوم، نجوم السينما والمسرح ونجوم المجتمع - أي زوجات الأغنياء والأقوياء. وفي ثلاثينات هذا القرن كانت الممثلة المعروفة جريتا جاربو المثل الأعلى لكل امرأة أنيقة. كما كانت حلم كل رجل. فشعرها القصير. وساقاها، وذيل فستانها، وفتحة الصدر، و«شق القمر» على كتفيها. . وحاجبها الرفيع وعقدها الملفوف ثلاثاً حول عنقها.

وفي الخمسينات كانت بريجيت باردو نجمة السينما الفرنسية هي الموضة: شعرها الطويل وشفتاها الغليظتان وقوامها النحيف وجلوسها حافية القدمين وركوب سيارتها بدون حذاء، وفستانها الذي يتدلى بلا كسرات في الوسط وقميص نومها الذي يشبه العباءة، والكحل الثقيل حول عينيها.

وقد استخدمت الصحف والتليفزيون نجوم السينما في الدعاية للعطور والصابون والمشروبات والمأكولات. ولأن الناس لديهم إعجاب جاهز لهؤلاء النجوم فما يفعلونه تقلده الملايين بلا تفكير.

مثلاً الرئيس الكوبي «فيديل كاسترو» كان من أحلامه أن يكون ممثلاً - ومعظم الزعماء ممثلون استعراضيون، وهم يتجهون عادة إلى الجماهير يؤثرون فيها، ويقودونها، فظهر كاسترو في فيلم «السابحات الفاتنات» بطولة ملكة الاستعراض المائي استير وليامز. وكان دوره متواضعاً جدا.

هو أن يقترب من حمام السباحة ويساعد أحد الممثلين على خلع الجاكتة والبنطلون ثم يلقي به في الماء ـ انتهى دور كاسترو. وبدأت المرارة النفسية عنده. وكان ذلك آخر مرة ظهر فيها على الشاشة. ولكنه عاد إلى بلاده وفي خياله صورة البدلة التي كان مرغماً على أن ينزعها من فوق أحد الممثلين. . فاختارها لنفسه وفرضها على الشعب الكوبي زيا رسميا!

فالذي لم يحققه سينمائيا، حققه بالسياسة. . أي أنه إذا لم يتمكن من أن يفرض هذا الزي على الناس إعجاباً به كممثل، جعله زياً شعبياً لأهل كوبا، إعجاباً به كزعيم سياسي!!

ومن المؤكد أن الغرض من الأناقة هو لفت النظر. لفت نظر الرجل إلى المرأة والمرأة إلى الرجل. أي الجاذبية الجنسية، جنس يجتذب جنساً آخر. ولذلك لم تسترح المرأة في أن يكون لها «يونيفورم» أي زي موحد. . لأن الزي الموحد معناه أنه لا فرق بين واحدة وأخرى. لا فرق بين الجميلة والقبيحة، الرشيقة والبدينة. وفي استطاعتك أن تلاحظ ذلك عند طالبات المدارس الثانوية. ففي هذه المرحلة تكون الفتاة أنثى صغيرة فهي تحتال على أن تبرز هي من تحت «المريلة»فتجعل المريلة قصيرة ليظهر فستانها من تحتها أو تجعل فتحة الرقبة واسعة، أو أنها تضع عقداً يتدلى على صدرها ـ وكلها حيل لكي تبدو هي تحت اليونيفورم. . أو أنها ترتدي الكعب العالي، أو تضع وردة في شعرها أو تضع الماكياج. والمعنى أنها تريد أن تقول إنها كأنثى تستطيع أن تتسلل من تحت اليونيفورم. أي أنها ترفض هذا الزي، وإن كانت غير قادرة على خلعه نهائيا.

ورفضت كثير من العاملات أن يكون لهن زي موحد. ورفضت

طالبات الجامعة أن يرتدين زيا موحداً. لأن ذلك قيد على حريتها، وعلى شخصيتها وحرصها على أن تكون «فردية» متميزة عن غيرها

ولا شيء استطاع أن يقرب المسافات بين النساء، في كل العصور مثل: الماكياج.

والماكياج ـ أي أدوات التجميل ـ هي أعظم صناعة في العالم، والمرأة تشتري بعشرات ألوف ملايين الجنيهات.. كل سنة: العطور والأحمر والأبيض والأزرق والكريمات وغيرها. وهذا الماكياج هو الذي غير معالم الوجه.

وكان الماكياج في متناول القادرين أما الآن فهو في حقيبة كل سيدة من أية طبقة.. حتى المرأة التي اختارت الحجاب، لم تستطع أن تمتنع عن استخدام الماكياج.. وسبب ذلك أنه لما انتشر الحجاب، أصبح نوعاً من اليونيفورم ـ أي الزي الموحد ـ فكان من الضروري أن تشق هي هذا الحجاب. وأن تبرز هي من ورائه ذات وجه متميز وخطوط بارزة، فكان الماكياج.. بل إن الراهبات يستخدمن الماكياج الخفيف وبتصريح بابوي!

فالمرأة هي المرأة، والمرأة لا تستطيع إلا أن تكون أنثى، وإلا أن تكون «غازية» لقلوب الرجال حتى لو شنقوها ـ كذلك فعلت كليوباترة قبل أن تموت بسم الأفعى ـ وكذلك فعلت ماري أنطوانيت قبل شنقها، وكذلك كل الملكات قبل عرض جثمانهن على الناس.. أي أن المرأة تريد أن تبدو جميلة لآخر لحظة ويكون أثرها في عيون الناس، إطالة لعمرها بضع لحظات.

وقد أدت الحروب الأمريكية في آسيا إلى انتقال الخطوط الاسيوية إلى أمريكا وأوروبا. فالقوات الأمريكية عندما ذهبت إلى كوريا الجنوبية، وعاد الجنود بخطوط الجاكتات والياقات إلى ملابس الرجال والنساء.. كما انتشرت بدلة «تسي تونج» موضة عند الجنود، وعند المدنيين في أمريكا أيضاً ـ أي الجاكتة المزررة دائماً والبنطلون الأسطواني المنفوخ ـ.. بل إن بعض الأمريكيات كن يستخدمن الماكياج الذي يجعل الوجه شاحباً كالصينيات ـ أو شاحباً كأنه الحب والعشق. قد قتلهن عذاباً على غياب المحبوب الذي يحارب بعيداً عن الوطن!

أما المرأة اليابانية فسارعت إلى ارتداء الفساتين القصيرة وفتحت الصدر. وصبغت الشعر ذهبيا، ثم انتشرت عمليات تجميل العين الآسيوية المنحرفة، لتكون قريبة الشبه من عيون الأمريكان.

وكذلك عمليات التجميل في الأنف والشفتين والأذنين. وقد أصبح طب التجميل من أكثر فنون الطب رواجاً في الشرق والغرب.

وقد نشر بعض العلماء في اليابان أنه من الممكن تغيير لون البشرة الصفراء لتكون شقراء، والسوداء فتكون بيضاء. وأن اللون ليس سجناً أبديا لا يمكن الخروج منه، وأن هناك محاولات لتغيير في تكوين الخلية يؤدي إلى أن يكون للإنسان اللون الذي يريده. وأن هذا اليوم قريب. ومعنى ذلك أن اللون مشكلة.. وأن هذه المشكلة لها حل. فالأصفر يريد أن يكون أبيض، والأسود كذلك، وهكذا يمكن رفع هذا الظلم عن ذوي الألوان غير البيضاء. وحينئذ تعتدل الموازين الاجتماعية.. فاللون عقدة. وهذه العقدة مسئولة عن كل مظاهر العنف والعدوان بين العناصر..

مثلاً في عالم الحيوان: إذا ظهر ديك فجأة بين أنـواع من الـديوك مختلفة عنه في الفصيلة،أي في اللون والحجم، فإن الديوك تلتف حول الديك الغريب وتضربه بقصد أن تطرده، لأنـه غريب شاذ. . غريب الحجم. . وشاذ الألوان. . ولا تزال الديوك تتكاثـر عليه حتـى يهـرب الديك الشاذ. . وكذلك الكلاب والقطط والذئاب والثعالب. لماذا لأن هذا الحيوان غريب عنها وغرابته واضحة في لون ريشه أو في لون شعره أو في رائحته. . ولذلك يجب أن يتلاشى لأنه شاذ!

ولـكن الماكياج وعمليات التجميل قادرة على جعـل الشـاذ عاديا. فالماكياج يقرب المسافات ويزيل الفوارق، وكذلك عمليات التجميل.

وإن كانت الموضة عكس ذلك تماماً. فالشـاذ هو بداية الموضـة. وبدلاً من أن تطرد الأغلبية هذا الشاذ، فإنها تقلده وتحاكيه، فلا يكون شاذا، وإنما يكون مثل كل الناس، أو على الأصـح يكون كل النـاس مثله!

ومن النوادر التي يرددها مؤرخو الأزياء ما جاء في كتاب د. ألبرت روتشاو بعنوان «الدلالة النفسية والاجتماعية للموضة» أن ما فعله الرئيس الأمريكي ريتشـارد نيكسـون في البيت الأبيض هو أكبـر دليل على أن الموضة ليست بالأمر. . وإنما الأمر يجيء من فهم سليم ودقيق لسيولة المجتمع، وتحركاته وتقلباته. وما فعله نيكسون يدل على غرابته وشذوذه هو. فقد أصدر قراراً بتغيير أزياء الحرس - بتغيير لون القماش والحزام والزراير. ولـم يكد نيكسون يختفي من البيت الأبيض حتى تكدست هذه الملابس في المخازن. وتجمعت بها الحشرات. وليس في استطاعة أحد أن

يشعل النار فيها، لأن القانون الأميركي يحرم حرق ممتلكات الدولة، لأي سبب.

ويقول د. روتشاو إن فكرة تغيير ملابس الحرس في البيت الأبيض لم تخطر على بال رجل آخر مثل الرئيس فورد، الذي عمل أول حياته «مانيكان» للمصورين والمجلات الرياضية لإعلانات عن الأزياء والكريمات.. وبعض المؤرخين يقول: إن هذه الملابس التي صممها الرئيس نيكسون تشبه ملابس أحد ملوك ألبانيا ـ ومن المعروف أن الرئيس نيكسون ينحدر من الأسرة المالكة الألبانية ـ. وكان من الممكن أن تنتشر هذه الموضة الألبانية في البيت الأبيض، لو أن هناك ما يبرر ذلك كما حاولت جاكلين كنيدي الفرنسية الأصل، فقد جعلت أثاث البيت الأبيض فرنسيا يرجع إلى عصر الأمبراطور نابليون الأول.. ولكن، دون فهم لمعنى الموضة ومقدماتها وانتشارها وظروف استمرارها، كان قرار الرئيس الأمريكي.. الذي لم يعش ثلاث سنوات ـ هو والموضة ـ!

الوجـوديـة :
احتجاجاً على
دكتاتورية الموضة؟

السيدة هاجر الفرعونية زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام لها مأساة. كانت خادمة لزوجته سارة. وكانت سارة لا تنجب فنصحت زوجها أن يتزوج الخادمة. وتزوجها. وحملت. وخافت من سيدتها فهربت بطفلها. ولكن قبل أن تهرب أقسمت سارة أن تمزق جسدها وأن تغرس الحديد في بطنها أربع مرات. ويقال خمس مرات. وخشي إبراهيم عليه السلام أن تفعل ذلك. فهي امرأة قوية. وهي في نفس الوقت في حالة غضب وغيرة ـ وليس أكثر شراسة من امرأة تغار. وأقنعها ابراهيم عليه السلام أن تكتفي بغرس مسمار من الحديد في أذنيها: مرتين هنا ومرتين في الأذن الأخرى.. فوضعت هاجر قرطين في كل أذن.. فكانت أول من ثقبت أذنيها في التاريخ. وأول من وضع قرطين في الأذن الواحدة ـ وهي موضة هذه الأيام.. ولما وضعت الأقراط في أذنيها ازدادت جمالاً. وازدادت سارة غيظاً. وأقسمت أن تقطع أذنيها. ولكن هاجر هربت.

وينشغل مؤرخو الأزياء عن هذه القصة الحزينة، بما كانت ترتديه السيدة هاجر والسيدة سارة. فكانت هاجر أول من لف خيوط الصوف حول ذراعيها وساقيها.. وكات سارة أول من جعلت من أوراق الشجر

حبالاً تلفها حول ذراعيها وساقيها أيضاً ـ وقد أصبحت موضة بعد ذلك في خمسينات وستينات هذا القرن. وإن كان الإغريق أثناء الحروب قد فعلوا ذلك أيضاً. إقتباسا من الفرس والهنود.. ويوم ذهب الإسكندر الأكبر إلى بلاد الفرس، لم يكن الرجال والنساء في أوروبا قد عرفوا الملابس الداخلية. فقد رأى الإسكندر كاهناً يربي عدداً من الكلاب في أعلى الجبل. وكانت الكلاب قد ارتدت ملابس لوقايتها من البرد. ويقال إنه بعث لأستاذه الفيلسوف العظيم أرسطو بهذه الملاحظة. فكان الفيلسوف أرسطو هو أول من أوصى بأن يكون للإنسان ما للكلاب من ملابس داخلية. وكانت ملابس الكلاب والرهبان من الحرير الطبيعي. وعرفت أوروبا الحرير الطبيعي.

وانفتح بذلك الطريق الشهير جدا: طريق الحرير. وهو الذي يبدأ من الصين إلى أوروبا. وعرفت أوروبا خيوط حرير دودة القز. وانتقل الحرير إلى الغرب بينما انتقل الصوف إلى الشرق. ومع الصوف العملات الفضية والذهبية والديانة البوذية والمسيحية.. وظل العالم الغربي يشتري الحرير ويقايض على الصوف أكثر من ألفى سنة.. ولكنه انتشر في أوروبا كلها عن طريق ايطاليا وإسبانيا إبتداء من القرن الحادي عشر.

وأوروبا عرفت الأنوال اليدوية التي اخترعها الفراعنة. وعرفت المكوك الطائر بعد ذلك مع قيام الثورة الصناعية.

وفي سنة ١٨١٦ ظهر النول المعروف باسم «جاكار» فأدى إلى انقلاب في صناعة الغزل والنسيج.

واخترع بيجر الأقمشة المسامية ـ وجعلها للملابس الداخلية. وكان

ذلك انقلاباً جديداً في صناعة الملابس الداخلية والخارجية.

وفي سنة ١٨٩١ اخترع الفرنسيون الحرير الصناعي، للاستغناء عن الحرير الطبيعي. لأن ما تنتجه آسيا من حرير دودة القز لم يعد يكفي لاحتياجات النساء في أوروبا وأمريكا. ولكن الحرير الصناعي، لا يرقى إلى مستوى الحرير الطبيعي الناعم اللين والذي يتشكل مع الجسم، ويغطيه ويكشفه برقة ورفق ـ على عكس الخيوط الصناعية التي ترفع درجة حرارة الجسم وتعريه أيضاً!

وفي سنة ١٩٢٤ اتخذ الحرير الصناعي اسم «ريون» ـ وهو مأخوذ من ألياف النبات ومن قشور البذور. وظهرت أسماء تجارية كثيرة للخيوط الصناعية. ومع ظهور هذه الخيوط والآلات المتطورة عرفت الإنسانية «الملابس الجاهزة» بالملايين. وأصبحت في متناول كل الناس.

وكما هي العادة: فإن الشباب هم أكثر الناس إقبالاً على الجديد في القماش وفي الخيوط والألوان. ولذلك اتجهت شركات الأقمشة إلى الرياضيين ليكونوا أول من يظهر بالخيوط الجديدة. وتحولت ملاعب كرة القدم وكرة الماء والتنس إلى أكبر عروض للأزياء.. فاتجهت العيون إلى اللاعبين.. وإلى المتفرجين أيضاً.

والشباب رمز الحيوية والصحة والمستقبل والشجاعة. ولذلك اتسمت الأزياء بحيوية الألوان. وبخفتها التي لا تضغط على الجسم ولا تكتم حرارته، وإلى عدم المبالاة بما يقال عنها.

فكانت مثلاً «سوزان لانجلان» بطلة التنس الفرنسية أول من ارتدت الشورت أثناء اللعب.. وظل الشورت يتناقص شبراً شبراً حتى

كان الجيب التي تراها في ملاعب التنس ـ فلا هي ينطلون ولا هي جيب، ولا هي شيء اخر!

وفي نهاية الأربعينات ظهر المايوه «البكينى» أي المايوه من قطعتين التي ترتديه المرأة في الشواطىء المغلقة عندنا، وفي كل الشواطىء والشوارع في بلاد أخرى. وبكيني ـ بالباء الخفيفة ـ مجموعة جزر في المحيط الهادي استخدمها الأمريكان للتجارب الذرية سنة ١٩٤٦ فألقوا القنبلة الذرية الرابعة والخامسة فارتفع مليون طن ماء إلى ١٥٠٠ متر. . ثم ألقوا عليها ٢٣ قنبلة ذرية أخرى. . وقد أدت هذه المياه إلى شطر الجزر نصفين. . بين هذين النصفين تجويف مائي كبير. . هذا التجويف هو الذي أوحى إلى مصممي الأزياء باختراع المايوه من قطعتين بينهما هذا التجويف من اللحم البرونزي على شواطىء بحار العالم. . واتخذ مايوه الرجل قطعة واحدة. حتى هذه القطعة أخذت تصغر وتضيق حتى أصبحت غطاء فقط. . ويقابلها ضيق في مايوهات المرأة حتى أصبحت خيوطاً من الألوان ـ كالخيوط النباتية الملونة التي استخدمتها السيدتان هاجر وسارة قبل أربعة آلاف سنة!

ومن الغريب أن الفلسفة الوجودية لها دخل في الموضة ـ أو في الخروج على الموضة ـ حتى كان الخروج على الموضة موضة جديدة!

والفلسفة الوجودية ظهرت في أوروبا كاحتجاج واعتراض على فلسفات أخرى من بينها: المثالية المتطرفة عند الفيلسوف الألماني هيجل، والمادية المتطرفة عند الفيلسوف الألماني كارل ماركس.

فالوجودية تؤكد معنى الإنسان. حرية الإنسان. فردية الإنسان

مأساة هذه الحياة. فالإنسان قد ولد ليموت. هذه هي الحقيقة المؤكدة الوحيدة في حياته.

والفيلسوف الوجودي الفرنسي سارتر هو الذي قال: إذا أنت وقفت إلى سرير طفل قد ولد حالاً فأنت لا تستطيع أن تتنبأ بأنه سوف يكون غنيا أو فقيراً، وزيراً أوخفيراً،قصير العمر أو طويل العمر. ولكن أنت على يقين من أنه سوف يموت ـ وأنت أيضاً.

ثم إنك لا تنظر إلى حياتك بيقين، وإنما بقلق وفزع، فالحرب العالمية الأولى والثانية وقبلهما الحرب السبعينية وعشرات المئات من الحروب في العالم تؤكد أن السلام ليس إلا ضيفاً غريباً على هذه الأرض وبين الناس، وأن القتل والقتال والموت هو صاحب البيت، وليس الضيف الذي يدق الباب من حين إلى حين. كما أن المذاهب الدينية والسياسية التي حاولت أن تساعد الإنسان على فهم الإنسان والحياة والمستقبل، قد قيدت حريته وكبلت شخصيته وأضافت عبء الجهل بهذه الحياة، عبء السلاسل التي التفت حول عقله وقلبه من أجل أن يفهم وأن يرى أوضح.. تماماً كما يضع الإنسان لنفسه منظاراً يزن طنا لكي يرى أوضح.. قد يرى أوضح، ولكن من المؤكد أن المنظار سوف يكسر عنقه ويهشم رأسه وأصابعه أيضاً.

فالفلسفة الوجودية التي ظهرت في فرنسا ترفض قيود المذهب الديني والسياسي، ترفض أيضاً قيود الأزياء وقوانين الموضة وطقوس عروض الأزياء.. واستطاعت فتاة واحدة فقط أن تقف في وجه طوفان الموضة. تماماً كما استطاع طفل هولندي أن يضع أصبعه في ثقب بأحد السدود

فتنجو بلادة من الغرق. الفتاة أوقفت الطوفان وحولت مسار الخيوط والخطوط والألوان لتمشي وراءها الملايين. إنها المطربة الفرنسية: جوليت جريكو.

ومن الغريب أن الفيلسوف الوجودي جيريل مارسيل قد ذهب يلقي محاضرة في مصيف دوفيل بشمال فرنسا، فوجئ بأن الحاضرين يرتدون المايوه ـ الرجال في مايوه من قطعة واحدة والفتيات في قطعتين.. وفي قطعة واحدة ـ أي أن صدورهن عارية (توبلس).. ووضع المنظار على أنفه ومسح وتأكد من هذا الذي رأى. وخرج قبل أن يكمل المحاضرة، استنكاراً لهذا الاستخفاف به. ولكن الجمهور ظن أن الذي فعله هو جزء مما تتنادى به الفلسفة الوجودية: الحرية الشخصية في المجيء وعدم المجيء في ارتداء الملابس القصيرة أو المجيء بملابس النوم. إنهم أحرار ـ وهذا ما تنادي به الوجودية.

ولكنهم لم يعرفوا أنه لا توجد حرية مطلقة. وإنما الحرية أحد الاختيارات. فأنا حر في أن أستمع إلى المحاضرة أو لا أستمع. أذهب بملابس أو عارياً. ولكن الذي يكسبني الاحترام، الذي أنا حريص عليه، هو أن أذهب كما يذهب الناس الجادون المحترمون. ولذلك فأنا أرتدي ملابس الخروج، وليس ملابس النوم!

وكان هذا الذي فعله المستمعون حلقة من سلسلة طويلة من الأخطاء التي ارتكبت باسم الحرية الشخصية ـ أو باسم الوجودية التي لم يحسنوا فهمها. فهي فلسفة جادة شاقة أيضاً.

ولذلك عندما خرجت جوليت جريكو على الموضة، كان هذا

الاحتجاج على الموضة. موضة جديدة. فماذا فعلت؟

منذ القرن السابع عشر في أوروبا. ومصممو الأزياء الملكية في حيرة. مصدر هذه الحيرة أن الأميرات يردن من خط الرقبة أن ينزل إلى أقصى درجة. ولكن الرجال ينظرون إلى ذلك بإعجاب. ورجال الدين ينظرون بغضب، وتحيرت الخطوط، حيرة السلطة بين رجال الدين ورجال الدنيا.

ففي القرن الثامن عشر، ظهر في فرنسا مدام ريكامييه، ارتدت قميص النوم على اللحم. واندهش كل الأمراء والنبلاء. حتى أن السياسي المعروف تاليران التفت إلى جارته يقول: لم أر شيئاً كهذا منذ كنت رضيعاً آكل وأنام على صدر أمي.

ويبدو أن مدام ريكامييه قد سمعته. فأخذته من يده وأشارت إلى لوحة على الحائط لعشيقة الملك شارل السابع: عارية الصدر تماماً. وقالت وهي تغمز بعينيها: سيدي حدث ذلك من مائة عام، وأنت لا ترفع عينيك عن أقدام النساء!

وكان تاليران يرى أن جمال المرأة يبدأ ويتوقف طويلاً عند أصابع قدميها! والفراعنة أسبق إلى كل ذلك. فعندنا لوحة العازفات الثلاث، وهي من أشهر اللوحات الفرعونية. الثلاث يرتدين فساتين شفافة تماماً، وتحت هذه الفساتين يوجد ما يمكن أن يوصف بأنه مايوه قطعة واحدة. ولكن الذي يجعل هذا الزي محترماً أو ليس مقصوداً به الإثارة أن العازفات جادات الملامح وأنهن ينفخن في الناي.. إذن هذه الملابس ليس مقصوداً بها الإثارة. وإنما هي ضرورة التخفف بسبب حرارة الجوا

وعلى «الضفة اليسرى» لنهر السين ظهرت هذه الفتاة جوليت جريكو ترتدي البلوزة السوداء والبنطلون الأسود. وبلا ماكياج ولا مجوهرات. تغني وترقص وترتاد الأندية الأدبية والرياضية. فهي احتجاج منفرد على موجة الموضة التي تجتاح الناس وتصبغهم بلون واحد. وتكبح ذوقهم، وتسلسل أذواقهم وأفكارهم. وقد اختارت اللون الأسود، لأن العالم كله حزين على ما أصاب الحضارة الإنسانية. فالإنسان بعقله وعلمه لم يحقق السعادة للفرد والأسرة. وإذا كان هناك ضحك في هذه الدنيا، فهو الضحك الأسود أو الكوميديا السوداء. لأن شر المصائب ما يضحك. ولم تعرف الإنسانية مصيبة أكبر من أن تنهار كل صروحها الحضارية في الحرب العالمية الثانية.. فيموت خمسون مليون نسمة.. يموتون بلا قضية!

وعندما التف مئات الألوف حول جوليت جريكو في الخمسينات كانت قد ظهرت موضة «نيولوك» ذات الفستان تحت الركبة بشبرين.. هذه الموضة من تصميم «كريستيان ديور».. وكريستيان ديور هذا من اختراع البليونير الفرنسي بوساك الذي أراد بالفساتين الطويلة والأقمشة الكثيرة انتعاش الصناعات الفرنسية في مدينة ليون. وراحت جوليت جريكو تخطب في الكباريهات وتقول: لأن رجلاً غنيا أراد أن يزداد غنى، وذلك بتشغيل مصانعه كان على جميع نساء العالم أن يرتدين فساتين طويلة.. ومهما كان عجزهن عن شراء ذلك.. ومهما كان هذا الطول لا مبرر له. ولكنه هو أراد ووجد من يعمم له رغبته. وأن يفرقها على كل النساء. فتفقد المرأة حريتها أمام هذه الرغبة السامية!

فخرجت جوليت جريكو على الموضة.. بموضة «اللاموضة».

وفي باريس وفي لندن وسان فرانسيسكو خرج الشبان يرتدون أي قماش من أي لون من أي طول: البنطلونات الضيقة. . والبنطلونات المرقعة. . وأطالوا أظافرهم. وأطالوا شعورهم ـ أليس الآباء والأمهات يطلبون قص الأظافر وقص الشعر أيضاً؟!

ثم إن الشبان في الجامعات والمصانع رفضوا ملابس المديرين: الياقات البيضاء والقمصان والبنطلونات والجاكتات «المكوية». . فلا كرافتات ولا دبابيس في الياقات. . ولا خواتم في الأصابع ولا أساور في الأيدي. . ولا أقراط ولا عقود. . فالشباب مختلفون. ويجب أن يختلفوا عن الأكبر سناً. . وشعارهم: لا تصدق رجلاً أكبر من ثلاثين عاماً!

وإذا كانت الأزياء على الأضواء الباهرة، لكي يرى الناس كل خطوطها بدقة، فإن الشباب الرافض لدكتاتورية الموضة وأي طغيان آخر، قد اتخذ الشوارع المظلمة والغابات والكباريهات والاصطبلاء مكاناً «لحياته وسهراته». وإذا كان لابد للإنسان الحديث أن يفتح عينيه بقوة الأضواء، فإنهم قد أغلقوا عيونهم بالنوم أو بالمخدرات أو بالخمور. فقد فتح الإنسان عينيه بالمصالح وفي أضواء المدافع والقنابل وظل يفعل ويتفنن في ذلك حتى هدم الحضارة الإنسانية بالحروب المتوالية.

واعترض الشباب أيضاً على المدرسة والجامعة والمدرسين. وعلى الحرب وعلى القتال. . واعترض على المذاهب الرسمية للإدارة الحكومية، والإدارة الكنسية أيضاً.

وظهر الشباب الخنافس في بريطانيا والشبان الصاخبون في أمريكا. . وشباب «الضفة اليسرى» لنهر السين في باريس «والشباب الذئاب التي

لا تعوي» في روما، وشباب بركان فوجي الذي لا يقذف الحمم في طوكيو ـ وهم جميعاً من الغاضبين الساخطين الذي يرفضون الموضة تماماً مثل فتاة باريس جوليت جريكو.

واتخذت الحياة طعماً مائعاً بل إن «اللغة» التي يتكلمها الناس لم تعد مفهومة. . لم يعد أحد يدري ماذا يقول الآخرون. . الكلام مكرر والصحف مملة وكذلك التليفزيون والإذاعة والسياسة والأدباء ورجال الدين. فليس بين الناس إلا سوء فهم ينتهي إلى سوء قصد ومن سيئ إلى أسوأ إلى الأسوأ. .لذلك عرفت مسارح باريس مسرحاً جديداً اسمه «مسرح العبث» أو « مسرح اللامعقول » احتجاجاً على المألوف المعقول في المسرح الكلاسيكي القديم وعلى الفكر الكلاسيكي. . وعلى الموضة الكلاسيكية ـ أي الموضة التي تتغير دائماً، ورغم ذلك فإنها مقبولة ومطاعة كأنها قواعد دينية راسخة من مئات السنين.

شيء جديد أدى إلى تصفية الطبقة الغنية نهائيا: ظهور المجوهرات المزيفة أي المجوهرات الصناعية. فالزجاج والكريستال بدلاً من الماس.

ومثل ذلك: اللؤلؤ المزروع بدلاً من اللؤلؤ الطبيعي. . فقد قام اليابانيون بتطوير أحجام وألوان اللؤلؤ المزروع، بحيث لم يعد للؤلؤ الطبيعي وجود، وإذا وجد فلا قيمة له. ثم قفز اليابانيون بهذا اللؤلؤ المزروع فجعلوه مسحوقاً. ومن هذا المسحوق اللامع صنعوا المجوهرات الغالية الثمن. ولكن مهما فعلوا فقد اختفى اللؤلؤ الطبيعي النادر وظهر «اللؤلؤ الجاهز» الذي هو في متناول ملايين النساء. فلم يعد اللؤلؤ احتكار لطبقة غنية أو طبقة نبيلة.

أما الماس فقد ظهرت أنواع من الكريستال متقنة لدرجة يصعب التفرقة بينها وبين الماس الجديد ـ الذي هو شديد البياض وشديد اللمعان. ومع ظهور عصابات السطو على الأغنياء في العالم، أودعت السيدات الغنيات مجوهراتها في البنوك ووضعن بدلاً منها مجوهرات مزيفة ـ كأنهن لا يملكن مجوهرات حقيقية. وهكذا تساوت الغنية بالفقيرة فكلتاهما تضع مجوهرات زائفة!

ورأينا الشبان الساخطين يبيعون منتجاتهم على الأرصفة: السلاسل الحديدية والنحاسية والزجاج والبلاستيك.. فلم تعد هناك قيمة لمادة المجوهرات، وإنما المهم هو الشكل.. والمهم أن الذين كانوا يستهلكون هذه المجوهرات، هم يصنعونها ويفرضونها احتجاجاً على المجوهرات إياها ـ ذات القيمة الفادحة. وأصبحت هذه الموضة المتواضعة، أو الموضة الساخطة على الموضة، على صدور القادرات أيضاً. كأنهن يردن المساواة مع غير القادرات. ومسايرة السخط العام والغضب العام.. وفي نفس الوقت تريد القادرات أن يشتركن في هذه المظاهرة، كأنهن لسن مقصودات بذلك.

فتاة واحدة فعلت ذلك أيضاً وصدقها الفقراء والأغنياء. ولو كانت تعيش في بلد غير بريطانيا لجعلوها رئيسة للجمهورية: إنها الأميرة ديانا التي ارتدت البلوزة الواسعة والبنطلون الجينز ولأنها أميرة أخيراً جداً. وملكة غداً.. ورغم الأبهة التي حولها فهي أقرب إلى الشعب منها إلى الأسرة المالكة.. وهي قاومت وعارضت.. وكانت موضاتها ليست إلا استمراراً للاحتجاج لا على الحشمة ولكن على قيود الحياة في القصور

الملكية ـ وذلك عندما نزلت بخط الرقبة عميقاً، وعندما هبطت بخط الظهر إلى ما دون الخصر. . وعندما أنقصت وزنها كثيراً. من أجل ذلك أحست الملايين أنها «جوليت جريكو» على أرفع وأعظم المستويات.

«الأسطى المدير»
الموسيقى المحفوظة!

المشتغلون بالسحر فقط هم الذين يعرفون «الطاروط» - وهي كوتشينة كانت من ٢٢ ورقة في القرن الرابع عشر، وهي الآن في فرنسا وسويسرا وأمريكا من ٧٨ ورقة .ويقال إن اليهود هم الذين طوروها لتتفق مع الذي جاء في كتب السحر الأسود. وعلى كل ورقة توجد شخصية ترمز لمعنى للعدل والامبراطور والدنيا والحب والكراهية والعشق والشيطان والموت. ومنذ خمس سنوات تنبأت قارئة الطاروط الإسرائيلية «مريام مائير» باغتيال الرئيس السادات وذلك عندما وجدت صورة «الامبراطور» قد جاءتها بعدها صورة العربة مقلوبة - أي أن عربة انقلبت به فمات في منتصف الطريق . .

وقد دخلت أوراق الطاروط تاريخ الأزياء في القرن التاسع عشر عندما ابتكر أحد الرسامين الفرنسيين لوحة خرافية للعدالة . . لقد جعل لها فستاناً من لونين: لون للظهر ولون للوجه . . أي أنه فستان ذو وجهين، يمكن ارتداؤه معدولاً ومقلوباً . . وقصد الرسام أن العدالة ذات وجهين . . وقصد أيضاً أنه لا شيء يبطل فعل السحر إلا الملابس المقلوبة .

ثم عاد الرسام وجعل للعدالة فستاناً «موصولاً» ـ أي يمكن تقصيره وتطويله حسب الطلب. . وهو أيضاً يقصد نفس المعنى ونفس السخرية من العدالة والقانون. . ولكن تجار الأقمشة والخياطات والترزية التقطوا معنى آخر وهو كيف يمكن تصميم فستان اقتصادي يلبس على الوجه وعلى الظهر. . وكيف يمكن تطويل الفستان وتقصيره. . وأصبح ذلك موضة!

وكما هي العادة انتشرت هذه الموضة عند الطبقة العاملة. ولم ترتفع إلى الطبقة الغنية. ولكن في نهاية القرن التاسع عشر في أوروبا وأمريكا انتشرت الفلسفة الماركسية التى ترى أن الطبقة الغنية سوف تزداد غنى والطبقة الفقيرة سوف تزداد فقراً. . وفي نفس الوقت سوف تزداد قوة، حتى تصبح الطبقة القادرة على فرض إرادتها وذوقها على الطبقة الغنية التي هي طبقة الأقلية الحاكمة. . ولكن ما توقعته «الماركسية» لم يحدث. فالطبقة العاملة أصبحت قوية، ولكنها لم تصبح الطبقة الحاكمة. فلا تزال الطبقة التي تملك الأرض والمصانع والشركات هي الطبقة الحاكمة.

ولكن ظهرت طبقة أخرى هي «الطبقة المتوسطة». وهذه الطبقة هي ناقلة ميكروب الموضة، وإليها تتطلع الطبقة العاملة، والطبقة الغنية أيضاً.

ولأن الطبقة العاملة ليست قادرة على الابداع، فإنها تمشي وراء الطبقة المتوسطة وترى فيها مثلها الأعلى. وتضم الطبقة المتوسطة العامل الماهر والأسطى ومساعد المهندس والمهندس والمديرين

ولذلك فالعامل يرتدي نفس القميص والبنطلون الذي يرتديه المدير والسيد رئيس مجلس الادارة. والعامل حريص على مظهره أكثر من حرصه على طعامه وشرابه. . وهو من أجل المظهر يبدد أكثر الذي يكسبه.

وظهرت في أوروبا وأمريكا موضة «الأسطى المدير» ـ أي الأسطى الذي له مظهر المدير. . وحتى الملابس الجاهزة التي انتشرت لم تعد هي التي تحبها الطبقة الوسطى. فالطبقة الوسطى الصاعدة لم تعد مشكلتها أن ترتدي أحسن الملابس وأغلاها. . ولكن أن يكون لها ذوق خاص، ولذلك انتعشت الخياطة والترزي، وانتشرت الأزياء الراقية. فبعد أن كان تفصيل الأزياء والخطوط الراقية من معالم الطبقة الغنية القادرة الأرستقراطية البورجوازية طبقة النبلاء والحكام، أصبحت من المعالم العادية جدا للطبقة الغنية الجديدة ـ أغنياء الحرب. . حرب الطبقات. . ولذلك كانت المرأة التي لا تعرف القراءة والكتابة هي التي تشتري أهم معروضات شوارع الشواربي وسليمان باشا وقصر النيل، وهي نفسها التي تسافر إلى لندن وباريس لشراء ما تحتاجه من الخطوط الراقية. . وهي أيضاً التى تزاحم عند الخياطات وتدفع الألف في تفصيل الفستان الواحد والألفين للعروس!

وأصبحت هذه الطبقة المتوسطة ذات أثر قوي على كل وجوه الاستهلاك. فلم يعد الطعام من أجل ملء المعدة هو الهدف، فالطعام متوافر، ولكن تذوق الطعام في المطعم الأنيق. فكما ظهرت الملابس الجاهزة ظهرت الأطعمة المحفوظة ـ كل شيء في العلب والأكياس

النايلون. ولكن الطبقة المتوسطة التي تتعاظم وتتسع تريد أن يكون للضروريات مذاق خاص. ولذلك كان تناول الغداء والعشاء خارج البيت.. والكل يرتدي أحسن الملابس، ويركب أكبر السيارات، ذهاباً وإياباً للمطاعم في الفنادق الكبرى.

أي أن هذه الطبقة لم تعد مشغولة بأي طعام، ولكن بطعام خاص في جو خاص. ولم تعد حريصة على أي ملابس جاهزة، وإنما على أحسن التفصيلات عند أغلى الخياطات وبإمضاء أشهر البيوتات.

مثلاً: عندما ذهب الرحالة الايطالي ماركوبولو إلى بلاد الصين نقل بعض الأطعمة.. من بينها «المكرونة» ولم تكن معروفة في أوروبا. وأصبحت المكرونة من أهم الأطباق الايطالية. وتفنن الايطاليون في تشكيل هذه العجينة فهي «الاسباجتي» - أي الخطوط الصغيرة.. وهي - أي الديدان الصغيرة.. وهي «لانشيتي» - أي السهام الصغيرة.. وهي «دتيشوليني» - أي الفيونكات الصغيرة.. وهي «فرافالوني» - أي الفراشات الكبيرة. فالمستهلك الايطالي والأوروبي أيضاً، لم يعد يبحث عن المكرونة وإنما عن أنواع مختلفة وعن جو شاعري لكي يذوق طعم الحياة والسعادة الاجتماعية.

مثلاً: عندما ذهب الرحالة الاسباني أوريني مادرياجا إلى طنجة المغربية في القرن الثامن عشر وجدهم لا يقدمون طعام الكسكسي في البيوت الكبيرة. وإنما الفقراء فقط. وعرف أن الأغنياء كانوا قادرين على استيراد الأرز. أما الفقراء فليس أمامهم إلا القمح. ومن القمح ابتدعوا الكسكسي بديلاً عن الأرز. ولكن الأغنياء تحولوا إلى

الكسكسي وأضافوا إليه ما يعجز عنه الفقراء. . وضعوا اللحوم والخضروات ووضعوا الفستق والبندق والسكر. . وابتدعوا طعاماً آخر اسمه «البستيلة» وهي من لحم الدجاج والسكر والدقيق ـ أي أنها مرة أخرى طعام الكسكسي ولكن بصورة متطورة مقتدرة.

وهذا تطور جمالي ـ أي تطوير للذوق ولشكل الطعام ومادته والجو الذي يجتمع فيه الناس. . ومع الاتجاه إلى عامة المستهلكين، وهم مساحة عريضة من المجتمع، ظهرت مع الأطعمة المحفوظة الأغاني المحفوظة والموسيقى المحفوظة والأفلام المحفوظة. فقد انتشرت الكاسنات التي تضم الأغاني والألحان غيرالرسمية،فلم يعد أحد في حاجة إلى أن يذهب إلى المسارح أو الأوبرا ليشاهد الفرق الموسيقية. وإنما الموسيقى تجيء إليه في كاستات أو في أسطوانات. وكذلك انتشرت صناعة الفيديو وعلى الفيديو كل الأفلام غير الرسمية. فلم يعد الراديو الحكومي والتليفزيون الرسمي، هو المصدر الوحيد للتذوق الموسيقي والغنائي والاستعراضي، ولم يعد الإنسان مضطراً إلى ذلك. فهو بفلوسه حر في أن يستمع إلى الأغنية والموسيقى ويشاهد الفن الذي يعجبه.وقد تطورت وتضخمت صناعة الكاستات في العالم كله. . تماماً كما أدى اختراع المطبعة إلى نشر الثقافة وتطوير صناعة الكتاب والصحف والمجلات.

وقبل أن يذهب الإمام الخوميني إلى طهران، فإنه كان يبعث إلى إيران بالكاستات الثورية. . وكانت هذه أسلحته السرية القوية التي أسقطت الإمبراطور !

ولما أصبحت الطبقة العاملة هي الغنية واحتلت مكان الطبقة المتوسطة كان حرصها على تحديد ساعات العمل، فكانت الإجازة ضرورية. ويرى المؤرخ العظيم توينبي أن ما حدث في مدينة نيويورك من ثلاثين عاماً يعتبر نقطة تحول في التاريخ الحديث. فقد رفضت السكرتيرات أن يعملن يومي السبت والأحد، رغم الإغراءات المادية أي أنهن اخترن الإجازة، وأصبحت حقا مكتسباً. وكذلك فعل كل الموظفين والإداريين والعمال في كل العالم. واتخذت الإجازة الأسبوعية صورة مقدسة. وهذه الإجازة أدت إلى قيام صناعة هامة جدا: هي صناعة الراحة بالجملة.. أو الراحة الجاهزة.. فكانت الفنادق والسفن والطائرات والمكاتب السياحية.. والأطعمة التي يمكن حملها في الأيدي وكانت السيارات والخيام، واليخوت في الأنهار والبحار.. واتجهت المرأة إلى المطاعم وسط المدينة، حيث يمكنها أن تستعرض نفسها وتستعرض الفترينات أيضاً.

أذكر أنني عرفت مليونيراً صينيا دعاني إلى بيته في جزيرة هونج كونج. وذهبت وركبنا معاً زورقاً جميلاً فخماً لننتقل من مكتبه إلى قصره. ولما نزلنا إلى الشاطئ وجدت أننا قمنا بجولة حول الجزيرة استغرقت ساعة. ثم عدنا إلى نفس المكان. فقال لي الرجل: إنني أختار أجمل الطرق إلى البيت.. فالمكتب في جانب من القصر.. ولكن أريد أن أستمتع بالطريق الطويل إلى البيت!

وعرفت شيئاً من مثل ذلك يحدث في بورسعيد الميناء الحر بلد الألف مليونير. فكثير من أصحاب المتاجر لهم بيوت في مواجهة

دكاكينهم. . وأمام الدكان «توجد سيارة كبيرة» وهـو ـ عـادة ـ لا يعبـر الشارع لكي يصل إلى البيت. وإنما يركب السيارة ويدور بهـا علـى الكورنيش وبعد ذلك يتجه إلى البيت!

ومع تغيـرحجم الطبقة المتوسطة ابتداء من القرن التاسع عشرحتى اليوم، تغيرت الأزياء والموضات. وتغيرت أنماط الطعام والشراب. . وتغير لون وطول الشعر عند الرجال والنساء وانخفض وارتفـع كعـب الجزمة عند الجنسين ـ والمرأة أسبق إلى «الموضة». . والفتاة الصغيرة أسرع من أمها. ولذلك تتصارع دور الأناقة على الفتـاة. وعـن طريق الفتاة إلى الفتى. أذكر أنني عندما ذهبت إلى مدينة «طوبا» باليابان حيث توجد جزيرة بيكوموتو، الذي اخترع اللؤلؤ المزروع وجدت أكثر الزوار من تلميذات المدارس وطالبـات المعاهـد. وقـال لي رجـل العلاقـات العامة: نحن مشغولون بالمرأة الصغيرة. هي الزبون الأول. وعليها هي أن تقنع الرجل، فهو الزبون الثاني!

كما تغير أيضـاً الـديكور في البيوت. . وصناعـة الأثـاث وأدوات المطبخ. بل تغيرت العمارة كلها. . فلم تعد القصور هي المثل الأعلى للبيوت. ولكن الشقق الصغيرة. شقق العرسان. وتغيرت أحجام قطع الأثاث لتناسـب الشقـق الصغـيرة. . وتغـيرت أدوات الطبـخ والغسل وتطورت صناعة البلاستيك التي لا تقبل الكسر، واتخذت الشـركات المصانع «التقسيط» سياسة عامة لكي تبيع وتحرك مصانعها. . واتجهت الشركات الكبرى إلى أن تتولى دفع الأثـاث وتجهيز البيوت وتخصـم أثمانها من الموظفين. . بل إن الشركات اليابانية الكبرى هي التي تقوم

بتزويج العمال من العاملات. وتقوم بالإنفاق في شهر العسل توفيراً لوقت العمال وتوفيقاً لرغباتهم.

وليس من قبيل الصدفة أن تتجه الإعلانات كلها إلى الفتيات فكل إعلانات التليفزيون تقوم بها فتيات صغيرات شقراوات ذوات عيون زرقاء ـ ومعنى ذلك أن الجميلات الشقراوات يقمن بهذه الدعوة والدعاية. مع أن الجميلات لسن في حاجة إلى أدوات التجميل التي يغنين ويرقصن من أجلها ليلاً ونهاراً. ولكن الفتاة هي السلاح الأشقر الخطير إلى قلوب وجيوب العالم كله!

وأمام الطبقة المتوسطة الصاعدة نجد مشكلة اجتماعية أخلاقية تربوية. ففي بعض مسلسلات التليفزيون نواجه هذه المشكلة: على الفتاة أن تختار إما زميلاً جامعيا فقيراً، وإما أسطى غنياً يمثل الطبقة العاملة الصاعدة. وفي المسلسلات نجد الأبوين يختاران للفتاة من يستطيع أن يشتري الشقة والثلاجة والفيديو والسيارة ـ أما التفاهم والثقافة والحب فلا تهم!

ولكن الأسئلة التي تدوّخ الشبان المشاهدين، فالمسلسلات والإعلانات لا ترد عليها. مثلاً: ما قيمة التعليم إذا كانت النتيجة أن الفتاة تتزوج الشاب الذي يختاره الأبوان، وهما يختارانه لأنه أقدر من الشاب المتعلم؟ ما قيمة التعليم الذي يلقن الشبان حرية الاختيار وحق تقرير المصير، وتجيء المسلسلات في تليفزيون الدولة تقضي على التعليم والحرية وتفرض إحتقارا عاماً لكل ذلك؟ وإذا كانت المسلسلات تدعو إلى الهجرة من مصر، فمن الذي سوف يبني

مستقبلها؟ وإذا كان العمال والفلاحون قد هجروا حقولهم إلى المدينة، وهجروا المدينة إلى الخارج، وارتفع أجر العامل والفلاح وبقي مرتب خريج الجامعة كما هو، أليس معنى ذلك تأكيد عجز المتعلم أمام الطبقة غير المتعلمة من الفلاحين والعمال والأسطوات؟ أليس الزواج من عامل غني تحريراً للفتاة من الفستان الواحد والحذاء الواحد؟ . . أليس معنى ذلك أن الفتاة تفقد حريتها بالزواج، ثم تسترد حريتها بالأزياء. . أي تفقد حريتها كإنسان، وتسترد حريتها كعارضة أزياء؟ أليس في ذلك دعوة لأن تهتم الفتاة بمظهرها فقط تدفن في فساتينها إنسانيتها وثقافتها؟ أليس معنى ذلك أن نقدم الفتيات المتعلمات فريسة لدور الأزياء والخياطات والترزية والحلاقين والجواهرجية؟

إذن لقد ضاعفنا عدد المستهلكات وأنقصنا عدد المتحررات، ضحايا الإعلانات شقراء الوجوه زرقاء العيون الراقصات المغنيات سارقات الحرية والجيوب أيضاً؟!

* * *

ثم انتقل العالم كله من يوم «العطلة المقدسة» التي تحدثت عنها التوراة حيث لا يوقد اليهود عود كبريت ولا يطبخون. وإنما يجلسون بلا عمل في صمت أو في حالة من الامتناع عن العمل، إلى أن تشكلت هيئات تفكر لهم في كيفية قضاء هذه الإجازة، ولذلك تطورت صناعة الراحة، وصناعة الخدمات بالجملة: المطاعم والفنادق والكباريهات والأندية الرياضية والاجتماعية والبلاجات، ومع الراحة وقبلها ظهرت

الأزياء: أزياء الشواطئ والسباحة والرياضة.. وظهرت أدوات صباغة البشرة والشعر والكريمات والفيتامينات.. وأمراض الصيف وعقاقير الصيف.. والكباين والشاليهات والزوارق والشقق المفروشة والأسواق الموسمية في المصايف.

وظهرت حقيقة جديدة: إذا كان أكثر الناس يسافرون ويتمددون على الشواطئ وكل مرافق الدولة تعمل كما كانت تعمل قبل موسم الإجازات، أليس معنى ذلك أن الدولة والمؤسسات والشركات تستطيع أن تعمل بعدد أقل من الناس وبساعات أقل أيضاً؟ إذن لماذا لا تتضاعف أيام الإجازات.. يومين بدلاً من واحد وثلاثة بدلاً من اثنين؟

ومع هذه الحقيقة والرغبة في مزيد من الصحة والجمال ظهر «الطب الطبيعي» أو «الطب البديل» أي الطب الذي هو بديل عن طب العقاقير. هذا الطب البديلي يعتمد على علاج الإنسان لنفسه عن طريق الراحة والمشي والرياضة والتدليك والأعشاب والفواكه، وذلك بالاتجاه إلى الطبيعة: الحقول والحدائق والشواطئ والابتعاد عن العقاقير المنومة والعقاقير المنبهة والذهاب إلى الطبيب.. أي الابتعاد عن النوم بالقوة واليقظة بالقوة ومواجهة الميكروب بإطلاق القذائف الكيمائية عليه. وهذه القذائف الكيمائية تقتل بعض الميكروب ولكن تحطم الخلايا وتضعف الوظائف.. وتحيل إلى المعاش كل القوى الكامنة في جسم الإنسان.. فالعقاقير الطبية ليست إلا جيوشاً مرتزقة نستخدمها في حضور الجيش الطبيعي الاحتياطي الموجود في خلايانا.

وظهرت اليوجا و«الزن» الياباني و«التأمل المتعالي» ـ كلها نظريات

يطبقها الإنسان إذا أراد الصحة والجمال دون حاجة إلى طبيب.

وفي أمريكا ظهر الطبيب العالمي جايلورد هاوزر. ودخلت مؤلفاته مئات الملايين من البيوت. وله فلسفة شعارها: تناول طعاماً لتكون جميلاً.. اضحك ترقص معدتك.. ما بعد المائة: شباب جديد.. اصبغي خديك بالطماطم وشفتيك بالتفاح.

وفلسفة هاوزر هذه تدعو إلى التردد المستمر على «صيدلية الله» أي الحقول والحدائق والخضروات الطازجة والفواكه وعسل النحل.

* * *

وكان علماء النفس ينظرون إلى الطبقة العاملة مع نهاية القرن التاسع عشر على أنها الطبقة التي تقوى وتشتد ولكنها في نفس الوقت مترددة: تنظر وراءها وأمامها وتدور حول نفسها. ووصفوها بأنها مثل الإله «يانوس» ـ ذلك الإله الذى له وجهان ينظران فى اتجاهين متضاربين. وكان الإغريق يضعونه على أبوابهم، أي ليحرس الداخل والخارج. وعلى الموانئ ليحرس من يقترب منها ومن يبتعد عنها.

ومن معاني هذا الإله أنه رمز لسوء الظن والشك والتردد. والطبقة العاملة كانت كذلك. تنظر إلى نفسها وإلى الطبقة الغنية. ولكنها لا تحلم بأن تكون غنية. فجاءت الطبقة المتوسطة واختارت هذا الإله معبوداً لها: فهي تنظر إلى الطبقة الغنية بحقد، وإلى الطبقة العاملة باحتقار. أما الآن فقد أصبح للتمثال وجه واحد ووجهة واحدة: أن تكون غنية.. أن تكون الغنية وأن تكون «مانيكان» الأزياء الجسمية.

والأزياء العقلية. . وأن تكون نزواتهـا «أوامـر» لكل الشـركات الاستهلاكية في العالم. . ولذلك تسلطنت على عرش الأزياء والأذواق منذ أكثر من مائة سنة مضت، ولمئات السنوات القادمة!

بيوت الأزياء ودور السينما صناعتها الحريم والسلطان!

عندما تهبط الطائرة تجد في انتظارها سيارة صغيرة هي التي تسبقها إلى المكان الذي يجب أن تتوقف عنده. . على هذه السيارة بالإنجليزية هذه الكلمة: اتبعني. . هذه الكلمة كانت منقوشة على أحذية غانيات أثينا. . لكي يمشي وراءها كل من يريدها. . ثم انتقلت هذه الكلمة إلى المشرفة على «حريم السلطان» فكانت تضع الكلمة على جزمتها وأحياناً على أطراف فستانها لكي تمشي وراءها الفتيات الصغيرات التي جئن إلى حريم السلطان. . والفتيات يبعن في الأسواق أو يقعن في الأسر. . وأكثر السلاطين أمهاتهن من الحريم. . !

وعندما جاء المؤرخ الإغريقي هيرودوت إلى مصر، أدهشه أنه وجد في مدينة الفيوم النساء يمشين بحرية في الأسواق والشوارع. . الذراعان عاريتان والعنق والصدر أيضاً. . وإذا نظرن إلى الرجال فإن الواحدة تملأ عينيها تماماً من الرجل. وأدهشه أكثر أن الرجال يعرفون الحياء الذي لم تعرفه المرأة. . وهيرودوت هو الذي قال: لو عرف الرجال ماذا يقوله النساء إذا جلسن معاً، فإن أحداً لن يتزوج!

وكلمة «حريم» في اللغة الفرعونية القديمة بمعنى: السجن. . أو

المكان الذي لا يقترب منه أحد. . أي المكان المحرم. وهو مكان به عدد كبير من النساء الملحقات بالقصور الملكية أو قصور النبلاء.

وفي اللغة العربية: الحـريم. . هو المكان المحـرم في البيت أو في المسجد. . والحريم أيضاً: هو الملابس التي كان يخلعها العرب عندما يطوفون بالكعبة، فهم يرون أنهم قد ارتكبوا ذنوباً عندما ارتـدوا هذه الملابس ، ولذلك كان من الضرورى أن يؤكدها .

وكانت النساء تطفن عاريات إلا من قطعة من القماش. . ولـذلك نزلت الآية الكريمة: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ ويقال «حريم» البئر أي المنطقة المحرمة من البئر وحولها. وقد حددها رسول الله عليه السلام بأربعين ذراعاً ـ أي البئر والطين الذي خرج منها وألقى حولها. فهذه منطقة محرمة على الآخرين!

وفي الحضارة البابلية والفارسية والصينية والهندية ـ عرفـوا أشـكالاً وألواناً من الحريم. ولكن حريم السلاطين العثمانيين أشهرها جميعاً.

ومنذ أيام كنت أتفرج على حريم السلطان في قصر «طـوب فابـي» بإستانبول. وهو جانب من أعظم القصور مخصص لحريم السلطان. . وقد بلغ عدد الحريم في القرن الخامس عشر سبعمائة وفي القرن السادس عشر ألفـاً وفي القـرن الثامـن عشر ألفين ـ وفي القـرن التاسـع عشر خمسمائة.

وفي حريم السلطان أو السجن الذهبي للمرأة في العصر العثماني، تعلمت النساء الكثير من فنون الحب. . وأهم من ذلك: المؤامرات. . فكل المؤامـرات على السلطـة وعلى العــرش، قد رسمــت في حريم

السلطان. فالغيرة تجعل الفتيات يقتلن بعضهن البعض. . والسيدة التي تدرب الفتيات تتقاضى منهن أجوراً عالية وهدايا ثمينة. . فإذا أصبحت واحدة منهن أما لولي العهد، تغيرت مكانتها وحياتها، وتحول مئات الفتيات من الحريم لخدمتها. وفي نفس الوقت، راحت أم الأمير هذه تتخلص منهن جميعاً حتى لا تزوغ عين السلطان كما زاغت من قبل. . ولذلك تفضل أم الأمير، أن يكون خدامها من الرجال «الخصيان» ـ أي الأغوات.

امرأة واحدة من مئات السنين استطاعت أن تحكم الإمبراطورية . . إنها من أصل روسي. دخلت الحريم مربوطة في حبل لأنها «رقيق» ـ أي إنها ضعيفة. . وفي نفس الوقت قادرة بفتنتها وذكائها على أن يكون الرجل ضعيفاً أمامها أيضاً. وقد جاء بها «النخاس» ـ وهو الرجل الذي يبيع الحيوانات في الأسواق وينخسها أي يغرز مسماراً في جسدها لكي تتحرك. . فهو بائع الحيوانات وبائع العبيد من الفتيات أيضاً. وقد ربطوها بالحبال لأنها في غاية الحيوية، إلى جانب جمالها وذكائها. اسمها روكسلانة. واستطاعت أن تتسلل إلى سرير السلطان وإلى قلبه وإلى عرشه أيضاً. ولذلك لم يفلح السلطان سليم في أن يتزوج أو يقترب من امرأة غيرها. واستطاعت أن تجعل ابنها الوحيد سلطاناً أيضاً. وهذه الفتاة الروسية قتلت وخنقت والقت في البحر ووضعت السم لعشرات من حريم السلطان. وإغتالت الأمراء وعزلت السلطان عن كل الناس إلا الذين يمرون ببابها ويقبلون عتبتها وقدميها.

ويسجل التاريخ هذا الحوار بينها وبين زوجها السلطان سليم . .

يقول السلطان لها: جعلتك ملكة وقد كنت خادمة. هل تنسين ذلك!

تقول هي: جعلتك إنساناً يحترم امرأة واحدة.. وكنت حيواناً لا تعرف ماذا تأكل وماذا تشرب وماذا تلبس.. وكنت تزحف إلى العرش فوق جثث النساء اللاتي يلعن السلطان والقصور والهوان..

قال: ولكنك كنت واحدة من كل هؤلاء فما الذي تغير فيك؟

تقول: كنت كذلك بعض الوقت. ولكن ما أن دخلت الحريم، حتى أحسست أنني خلقت لغير ذلك.. وأنك أيضاً خلقت لأن تكون ملكاً متحضراً..

قال: ولكنك قتلت وذبحت وألقيت في البحر عشرات من بنات جنسك.

قالت: دفاعاً عن عرشك.. لقد كنت الوحيدة التي تحميك.. إن خارج القصر مئات الرجال كلهم ساهرون على راحتك.. ولكنهم لا يضمنون لك نوماً هادئاً وسط مئات العبيد الذين يتربصون بك.. أنت لا تعرف ما الذي يدور بين نساء الحريم.. الناعمات السجينات المعذبات الحاقدات على السادة والأحرار.

فكل سلطان يعلم أن أمه من العبيد.. ويضايقه ذلك.. فهو يحتقر الشجرة التي أزهرته، والزهرة التي أثمرته والأم التي حملته وأرضعته وولدته ـ منتهى العقوق لهن. ولذلك كانت لديهن رغبة في شرب دم السلاطين جميعاً. كل ذلك منعته عنك!

وكما هي العادة تصفق روكسلانة، فيجيء عشر فتيات يغسلن قدميها بالعطور. . ثم ينحنين لأن السلطان قد جاء يقبل هاتين القدمين، حباً و امتناناً لأذكى وأعنف امرأة خرجت من الحريم وخرجت عليه أيضاً!

وكانت روكسلانة هي الأخرى تحتقر أصلها، وتحتقر كل اللاتي كن مثل حالها. . ولذلك كانت إذا جلست تنتظر الحريم. . مدت ساقيها فوق أحد المقاعد وجاءت الفتيات يمرغن الخدود في نعليها. . وكان النبلاء يتبارون في الانحناء والخشوع لها. . فكان بعضهم يفضل أن يمر بحذائها فيقبله الرجال أو يضعونه على رءوسهم ـ لأنهم أحقر من أن يلمسوا قدميها!

فالحريم ليس فقط مكاناً تعيش فيها النساء في قصر السلطان. ولكنه أسلوب حياة. وأسلوب في التفكير أيضاً. فالرجل الذي ينظر إلى المرأة على أنها حريم هو الذي يرى أن المرأة خادم له. تابع له تنتظر أوامره. وتنتظر رغباته. ثم أنها ليست أكثر من جسم جميل وزي أنيق. . أو أنها الوسيلة الوحيدة ليكون عنده أولاد.

والمرأة التي تفضل أن تكون حريماً، هي التي تحب «السجن» من أجل الرجل بشرط أن يكون هذا الرجل لها وحدها. فهي ترفض الحرية إذا كانت هناك نساء أخريات. وتدفع الحرية ثمناً لأن تنفرد بالرجل. والمرأة تفضل أن يضعها الرجل في سجن. ويغلقه بإحكام ويجيء إليها من حين إلى حين. ويسعدها السجن والظلم والظلام. . إذا كانت تفوز برجلها في النهاية!

وفي خمسينات هذا القرن قام العالم الأمريكي «كنسي» ومعه آخرون

بدراسة السلوك الجنسي عند المرأة الأمريكية. ووجد أن ٧٪ من النساء المتعلمات يفضلن حياة الحريم، على هذه الحياة «السافاري» ـ أي الحياة التي تشبه حدائق الحيوانات المفتوحة تختلطبها الذئاب بالكلاب بالأسود بالخلباء بالفيلة. . فالمرأة الأمريكية بعد أن ذاقت الحرية وضاقت بها، عادت تفضل أقفاص حدائق الحيوان المغلقة على الذكر والأنثى والصغار. . أي إنها تفضل أن يكون لها بيت من حديد، قفص عائلي. على أن تفتح لها الشوارع والنوادي والبارات. فتجد كل الناس إلا زوجها، وكل الأطفال إلا أولادها، وكل البيوت إلا عشها!

وعندما أكمل العالم الأمريكي كنسي دراسته عن سلوك الرجل وجد أن عدداً كبيراً من الرجال يفضلون الزوجة الشرقية. أو الزوجة اليابانية. . التي تنظر إلى الرجل على أنه سيدها. . السيد. . سي السيد. . وأن الكلمة كلمته، والشخطة شخطته، وأن الصقر يقف على شاربه، والأسد يقف على كتفيه. . ولكن المرأة الأمريكية لا تجد عند زوجها كل هذه الصفات. ولا ترى أنها ضرورية. . ثم أنها متوافرة مثل كل الأطعمة في السوبر ماركت والأندية والشواطئ..

إذن هذه الدراسة التي زلزلت خمسينات هذا القرن في أمريكا وأوروبا: تؤكد أن الرجل يتمنى أن يكون سلطاناً له حريم، والحريم امرأة واحدة أو كل النساء. والمرأة تفضل أن يكون لها سلطان، وأن يكون لهذا السلطان سجن معطر دافئ هو مسكنها. . لأنها هي الحريم.

وليس صحيحاً أن الحريم قد إختفى وإنما ظهر في أماكن أخرى. .

فلما اختفى السلطان نفسه، أحس كل رجل أنه سلطان. ولما اختفت القصور، قامت الكباريهات بديلاً عنها. وفي الكباريهات: حريم لأي سلطان.. وهن بالملايين حول الأرض وفي كل ساعات الليل والنهار.. وقد استطعن أن يقفزن إلى أعلى السلطة فكن زوجات للوزراء ولرؤساء الجمهوريات أيضاً ولأغنى الأغنياء.

وصناعة السينما هي أكبر داعية لحريم السلطان ـ والسلطان هو المتفرج.. مئات الملايين في العالم كله. فالسينما هي تجارة الرقيق الحديثة. إنها تقدم الجميلات وتبيع فيهن وتشتري.. فالسينما هي تجارة اللحوم الشقراء.. وهذه التجارة تؤكد كل هذه المعاني عند الرجل وعند المرأة أيضاً.. فالمرأة تريد أن تثير وتبهر. والرجل يبحث عن هذه الإثارة.. فهو السلطان، وشركات السينما هي مصانع لتوريد حريم السلطان.. وهذه المصانع قادرة بوسائلها العبقرية على نشر النظريات والمعاني وتعميقها سنوات طويلة.. فهي التي تقدم الجمال الجسدي، وتقدم الأناقة وهي التي تشعل الألوان في أعصاب الجميع.. وهي التي تفرض الذوق بالقوة على مئات الملايين.. تقدم الصدور والسيقان والألوان والشفاه والعيون والطويلة والقصيرة والنحيفة.. كل ذلك تنشره فيلماً بعد فيلم.. وقصة بعد قصة.

وهي بذلك تثبت معنى واحداً عند الملايين: أن الزبون على حق.. والزبون هو السلطان، والسلطان حيوان، وتقدم له الحريم من كل حجم ومن كل لون.. وهو تحت تأثير الشاشة يطبق ما يرى وما يسمع على حياته الخاصة والعامة.

ودور الأزياء هي التي تقوم بزفة العروس إلى السلطان. . وهي قادرة على أن تجعل البوصة عروسة. وهي أيضاً إستطاعت أن تجعل المرأة تؤمن بأن بشرتها هي فستانها، وأن صناعتها الأولى هي: الإغراء. وأن الرجل ضحيتها. . أو أنها ضحية الرجل. . أي أن العلاقة بينها وبين الرجل: قاتل وقتيل، إنها معركة. حرب من حريم السلطان من أجل الوصول إلى حضن السلطان وعرش السلطان ـ أي سلطان!

وعندما هاجم النقاد أمير الشعراء شوقي بسبب مسرحيته الشعرية علي بك الكبير، لم يجد الشاعر العظيم ما يقوله دفاعاً عن نفسه.

فقد استنكروا أن يتحدث عن تجارة الرقيق. . وأن يعترف السلطان بأنه هو الآخر واحد من الرقيق، محتقرلهم ولنفسه، حريص على تحريرهم وتحرير نفسه من عقدة الذل والهوان. .

يقول بائع الحريم في السوق:

تعالي أيها الشقرا
وهاتي شعرك التبرى
هلمي اقتربي مني
وألقي رأسك في حجري
فغدا يأخذك الشاري
وما تدرين من يشري

ويقول البائع وهو يقدم واحدة اسمها «أمال»:

تعالي أيها السمرا

فإن الخير في السمر

أشعر ذاك أمال

أم الليل إذا يسرى

قضاك الله للوالي

أو للحاكم في مصر

وينادي على فتاة ثالثة:

وأنت يا ضخمة يا بدينة

يا محملا يخطر بالمدينة

قومي إلي أقبلي للزينة

رزقت عمدة بلا مدينة

ثروته في داره دفينة

يطلب مني امرأة سمينة

ويقول علي بك الكبير لهذه الحسناء أمال التي يعرضها عليه النخاس ـ وكان النخاس أباها:

أنا أيضاً مررت بالسوق يا أمال

حالي يا بنت مثل حالك

قد وقفنا بهذه السوق نبكي

دولاً من ورائها وممالك

وقديماً كانت سبيل المعالي

للمماليك أو سبيل المهالك

ولم يطرأ أي تغيير على البائع والمشتري والسوق ـ تغيرت الأسماء فقط.

* * *

وفي العشرين مقالاً السابقة ما يصيب الجسم الإنساني، تحت الجلد وفوق الجلد، ووجدت أن الناس جميعاً سواء تحت الجلد، فكل الدماء حمراء ولكنهم يختلفون في لون البشرة وفي معالم الوجه. وفي إحساسهم بهذه الملامح وفي تغيرها وتشكيلها، وفقاً لمعتقداتهم الوثنية والدينية والاجتماعية.

وجاءت أدوات التجميل تباعد بين الطبقات وتقرب بينها أيضاً.. . أما الأزياء فهي ما فوق الجلد. . أي هي البشرة الثانية وهي المسكن الذي منه نطل على الدنيا. . ومن اللون الذي يختار والطول والقصر، والحرير والقطن، ومن المجوهرات التي نضعها هنا وهناك، يتحدد بالضبط مكاننا في المجتمع وبين الناس.

وللموضة قوانين أخرى غير قوانين المجتمع والدين. . وهي قوانين صارخة. ولا تملك المرأة إلا أن تطيعها. وإلا أن تدفع دون مناقشة. . ففي حضور الطغاة لا يوجد إلا الطاعة. . والموضة طاغية وأدوات الزينة طاغية. . والحلاق والترزي وهم جميعاً يتآمرون على أن يجعلوا المرأة

جسماً جميلاً . . وأن يكون كل النساء حريماً للسلطان . . أي يقدسون ذلك، ولو لم يكن هناك سلطان . . إذن بحثاً عن السلطان . . ويؤكدون للرجل أيضاً. أنه لابد أن يقوم بدور السلطان ما دام قد اختار الحريم نصفاً لحياته في البيت وفي الشارع وعلى الشاشة.

وهكذا فجسمك لا يكذب لو تركته وحده، ولكننا لأسباب كثيرة علمناه كيف يكذب علينا . . وكيف نصدق أكاذيبه التي هي من صنعنا أيضاً!

شارح ومشروح
وبينهما: تافه!

من كل الذي فعله اللورد ساندوتش لبلاده في الاكتشافات البحرية في القرن ١٨ لم يبق إلا اسمه على شكل من أشكال الطعام: الرغيف الذي به فول أو لحم. فقد كان اللورد غارقاً في القمار ولا يريد أن يترك مكانه ليتناول طعامه فطلب من خادمه أن يأتي بقطعة من اللحم بين قطعتين من الخبز.. السندويتش هو الوجبة السريعة الخاطفة لمن ليس عنده وقت.. ولذلك فأنت تتناوله صباحاً ومساء في الشارع في المكتب في مدرجات الكلية.

وأصبح السندويتش مثلاً أعلى لأشياء كثيرة: فالكافتيريا والفيتامينات والبلو جينز و «برشام» الامتحانات والكتب المدرسية، لها معنى واحد: ضيق الوقت والبحث عن شيء سريع للأكل أو للزي أو لتحصيل المعلومات!

وفي العام الماضي عندما التقى أكبر علماء أمريكا يبحثون عن سبب «الخيبة» الأمريكية والسطحية في العلوم والصناعة أصدروا تقريراً قدموه للرئيس الأمريكي. التقرير اسمه «أمة في خطر». والأمة هي أمريكا التي هي أقوى وأغنى دولة في العالم. والخطر هو أن أمريكا تخلفت في سباق

العلوم وفي صناعة السيارات والألكترونيات وأن العباقرة الأمريكان أصبحوا نادرين. لماذا؟

لأن الثقافة الأمريكية هي ثقافة «السندويتش» و «الكافتيريا». . فالطالب يخطف المعلومات. ولم يعد لديه صبر على القراءة الطويلة والبحث المتأني. ثم إن أحداً لا يشجعه على ذلك. ولا أحداً يشجعه لأن المدرسين قد أفسدت نفوسهم ماديا وأدبياً. إذن لا بد من إصلاح حال المدرسين ابتداء من تعليمهم وترقيتهم وراحة عائلاتهم. ولأن الندوات الثقافية عند الطلبة قد انعدمت، فهم إذا اجتمعوا ففي الكافتيريا. وفي هذا المكان يكون لكل شيء شكل «السندويتش» واللبان الشيكلس والبنطلون الجينز الذي ترتديه الطالبة والطالب ويجيء به إلى الكلية وينام به ويرقص ويذهب إلى الكنيسة ـ إن ذهب. وفي الكافتيريا يجلس الطلبة يأكلون ويشربون ويدخنون. ويتحول الحوار إلى خناقة، والخناقة إلى ملاكمة، والملاكمة إلى مذبحة. وفي الليل يلتقي هؤلاء الشباب في حانات الخمر والحشيش والجنس، وينسون بعنف، ما ارتكبوه بعنف. ومن عنف الذكريات والنسيان العنيف يتبقى للطالب طاقة خامدة لكي يذاكر ويتسلح لمستقبل أفضل! كيف؟!

هذا التقرير الخطير قدمه أحد المفكرين المصريين إلى الرئيس حسني مبارك. الذي عكف على قراءته. ثم بعث به إلى د. مصطفى كمال حلمي الذي قرأه ودرسه وحلله ونشره بعد ذلك. ثم بعث به إلى كل الهيئات العلمية في مصر. وهذا التقرير في حقيبة كل أساتذة مصر.

والمعنى كيف نستفيد منه في إصلاح التعليم والتربية في مصر ـ إن كان ذلك ضروريا!

وظهرت في أمريكا تقارير أخرى أخطر. ولها جميعاً هدف واحد: كيف يمكن إنقاذ أمريكا، حتى لا تنهار فتكون دولة من الدرجة الثانية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانياواليابان. ووجد هؤلاء العلماء أيضاً إلى جانب سياسة الخطف الثقافي، إن هناك تحللاً في الأسرة الأمريكية. فالأب والأم لا سلطان لهما على الإبن الذي ينادي أباه باسمه الصغير، والبنت التي تطلب أمها في التليفون وتقول لها إنها أنجبت بنتاً جميلة مثلها. ولا تجرؤ الأم أن تندهش لذلك، فهي لم تكن تعلم أن ابنتها قد تزوجت. . أو أنها أنجبت هذه الطفلة بلا زواج!

وهذا التقرير الذي كتبه علماء النفس والتربية والاجتماع والسياسة والدين إلى الرئيس ريجان أخطر من تقرير آخر بعث به العالم الكبير أينشتين وعدد من علماء الذرة إلى الرئيس ترومان. وتقرير ترومان يدعو إلى عدم استخدام القنبلة الذرية. فاستخدامها يفتح الباب على نكسة إنسانية، وعودة إلى الوحشية. . أي إنه خوف من أن يؤدي الاستخدام الشرير للعلم، إلى وحشية وسفالة إنسانية تقوم بها أكبر دول العالم. . أما تقرير ريجان فهو يدعو إلى التربية والأخلاق حتى تنهض أمريكا علميا وتمضي في سباقها وتفوقها على الأرض وبين الكواكب. فالتقرير الأول هو خوف من العلم أن يؤدي إلى انعدام القيم الاخلاقية والإنسانية. والتقرير الثاني دعوة إلى الأخلاق لتستطيع أمريكا أن تتفوق في التعليم والتربية والاختراع !

وأنت وأنا نعرف جيداً أين نحن من كل ذلك. إننا نشكو من الجوع والجهل. أو من نقص الطعام وارتفاع أسعار الحياة، ونشكو أيضاً من الجهل والانحراف الأخلاقي.. ونظرة إلى الثلاثين عاماً الماضية.. نجد أننا بعد النكسة أدركنا أنه الجهل وأنه الغرور الذي ألقى بنا في هوة الهزيمة والعار القومي.. ولذلك طالبنا أنفسنا بالعلم ومواجهة عيوبنا بصراحة، ومطالبة الحاكم بأن يكشف أوراقه. فثورة يوليو ولدت من هزيمة الحرب الشاملة ضد إسرائيل. والوحدة مع سوريا ولدت من النصر السياسي والشعبي على العدوان الثلاثي الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي.. ونكسة يونيو كانت بسبب الرغبة القوية في الانتقام من فشل الوحدة مع سوريا. وكان الهدف من حرب ٦٧ هو اكتساح إسرائيل وتركيع سوريا فتجيء صاغرة تطلب العفو والصفح والوحدة الاندماجية مع مصر وليبيا والسودان والعراق واليمن ودول أخرى لم يتمكن الرئيس عبد الناصر من ضمها إلى مصر.. وبعد انتصارات سنة ١٩٧٣ كان المطلب الشعبي «مزيداً» من الحرية والديمقراطية. خوفاً من أن يحاسبنا الرئيس السادات على هذا الانتصارالعظيم، بثمن من حريتنا وتعدد آرائنا.. وحتى لا يتوهم الحاكم المنتصر أنه أعطانا الحرية ووهبنا الديمقراطية. وأنه لذلك العاطي الوهاب.. فكانت الأحزاب وحرية الصحافة والانفتاح الاقتصادي..

وفي عهد الرئيس حسني مبارك حيث تلتقي بثور النكسة وزهور النصر وثمرات الانفتاح الاقتصادي كان لابد من التمسك بالطهارة والنظافة والاعتدال ـ أي بالقيم الأخلاقية.. فليس غريباً أن تنهض

بسرعة جماعات دينية تعلن أنها أقدر على ذلك. . وخاصة بعد أن اهتز الميزان في يد العدالة. وتطاير الوحل بين المتهمين والمدالسين، والقضاة. حتى تراءى لنا أن تمثال العدالة الذي هو فتاة عصبت عينيها بمنديل محلاوي حتى لا ترى، وأمكست ميزاناً بيدها، هذه الفتاة قد نقلت المنديل إلى خصرها وراحت ترقص على أي إيقاع. . إيقاع سيف المعز وذهبه، فإذا رفعت العدالة فلا غرابة أن تقوم أجهزة الأمن بجمع «النقطة» من رواد المحاكم!

ومعذورون الشبان الذين يرون أن القوانين كثرت وأصبحت بعدد الاتهامات وأن القوانين أصبحت مثل السهام التي تحدث عنها الشاعر المتنبي حين قال:

فكانت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

ولا شيء يدل على اضطراب المجتمع وأجهزة الحكم مثل كثرة القوانين والقوانين المضادة حتى أصبح القاضي يحكم بعلمه ولا يعلم بحكمه!!

وإذا كانت القيم الأخلاقية هي ما نطالب به التلميذ الذي يغش والمدرس الذي يبيع الأسئلة والأستاذ الذي يفرض الدروس الخصوصية التي هي غش مستتر أو هي علاوات دورية ـ يعاقب بها أولياء أمور الطلبة بموافقة الدولة وسعادتها. فمن يكون المثل الأعلى؟

ثم إن أجهزة الإعلام كلها تدعو إلى الإيمان ويتولى هذه الدعوة التربوية من أجل الطهارة الاجتماعية والأمانة العلمية، رجال من علماء

الدين. علماء النصوص القرآنية وخبراء التخويف والتهويل من عذاب القبر ويوم القيامة وفي نفس أجهزة الإعلام هذه إعلانات راقصة وسهرات حمراء.. ومسلسلات تدعو إلى احتقار التعليم والثقافة، ووضع العراقيل والعقد أمام الطالب المستقيم الذي يريد أن يعيش فاضلاً، فالمسلسلات تخير الفتاة المتعلمة بين أن تعيش في شقة على النيل مع تاجر إنفتاحي، وبين أن تظل عالة على أمها وأبيها ومعها زوجها زميلها الذي تعلم واستقام ولكن ليس لديه مال. وتنتصر المسلسلات عادة للتاجر الغني.. وفي ذلك احتقار للأخلاق وامتهان للعلم.. وبذلك تضع أجهزة الإعلام مزيداً من الكراهية والسخط في حساب الشباب في بنوك الدين.

فهم شباب: هذه ميزة.. وهم مندفعون: هذه طبيعة. وهم لاجئون إلى المساجد: إلى الله.. ويتوارون وراء لحاهم: هذا زي موحد!

ويدهشنا كثيراً، أنهم كثيرون وأنهم متعلمون. وأنه من السهل أن يتفاهموا. وأنهم جماعات ليس لها زعيم ولا مرشد عام. ولكن هذه الجماعات مثل مجموعة من الفرق الموسيقية تحفظ لحناً واحداً.. وتؤديه في أوقات وأماكن مختلفة. وليس أسهل من أن يقف واحد يشير بعصاه لنجد هذه الفرق قد تعالت حناجرها وسواعدها بنشيد الغضب النبيل والسخط الكريم. والضمير الحي. فما أخطر الطريق إلى كل ذلك، وما أقساه على مصر كلها إذا كنا لا ندري فداحة كل ذلك!!

ومن أخطائنا أننا ننظر إليهم على أنهم يتظاهرون ويعطلون المرور.

إنها نظرة أمن عام. وهـذه إحـدى وجهـات النظـر، وليسـت الوجهـة الوحيدة. . فليسوا مجموعة من النشالين يطالبون بتـوسيع الأتوبيسـات ليتمكنوا من الحركة داخلها .ولا هم يطالبون بنقابة مثل نقابات أصحاب المهن الأخرى التي تسرق أقوات الشعب وتحتمي في قانون حماية الشعب من لصوص الأمن القومي والأمن الغذائي.

ويضايقنا أن يتسلط هؤلاء الشبـان على الاتحـادات الجـامعية وعلى النقابات ونكتفي بتسجيل هذه الملاحظة. ثم لا نذهـب إلى أبعـد من ذلك. فلا نقترب ولا نسمع منهم وعنهـم. ولا أن نحاورهـم. وإنمـا نتركهـم وحدهـم يتـزايدون وتتعاظـم آلامهـم وشعورهـم بالغربـة في بلادهم، والشذوذ عن أهلهم، وإهمال الجميع والاحتقار لهم ـ احتقار مستقبل مصر والعالم العربي.

ويوم أحرقـت إيران دور السينما في عهـد الشـاه، كانـت عنـاوين الصحف: عمل همجي لآية الله خوميني. . ولكن هذا العمل الصغير كان إشارة إلى القوة الكامنة في البلاد التي أحرقـت عرش ملك الملـوك وأسرته وحاشيته.

ويوم حطم الرئيس نميري زجاجات الويسكي وألقى بها في النيل، لا يهم أن بعض الناس انتهزوا الفرصة واختزنوا بعضها ليبيعوها من وراء ظهر الحكومة. أو بالاتفاق معها. كان ذلك رمزاً. ولكن الرئيس نميري لم يكن جادا في ذلك فقد أجلس الدكتور الترابي إلى جواره والمليونـير عدنان خاشقجي وراءه!

وذهب النميري وبقي التطلع إلى نهر النيل، مقبرة للخمور والفجور.. اليوم وغداً!

والرئيس القذافي عندما أحرق الأدوات الموسيقية في طرابلس، كان يشعل الاحتجاج على الثقافة الغربية.. وعلى الرغم من أن الموسيقى التي تدخل البيت ليست هي وحدها التي يعرفها الليبيون.. ففي كل بيت ليبي جميع إذاعات العالم وتليفزيونات تونس وايطاليا ومالطة ومصر. ولكن هذه الحريقة الصغيرة رمز كبير..

ويوم أحرقت مصر ألف ليلة وليلة لم يكن ذلك إلا رمزاً..ويوم حكمت المحكمة ببراءة مئات من الشبان الذين قتلوا مائة من المدنيين ورجال الأمن، كانت قد أطلقت مئات من المتطرفين ومعهم فيلسوف التنظيم.. وهم لا يمتنون للدولة التي بها قضاء عادل، وإنما هم غاضبون على الدولة التي حبستهم بلا وجه حق، وأعدمت زملاء لهم أيضاً.

ولم يحدث في التاريخ الحديث أن أدانت محكمة نظاماً من أوله لآخره، إلا هذه المرة. وليس ذلك إلا رمزاً أيضاً!.

ونخطئ مرة أخرى إذا ارتضينا لأنفسنا أن نقول إن هذا الذي يحدث في مصر هو فوضى أخلاقية واضطراب ديني فقط، وإنما هناك متاعب اقتصادية وخلخلة اجتماعية وفراغ تربوي وتفاهة علمية. فالانفتاح التعليمي مثل الانفتاح التجاري قد أدخل الجامعة وأخرج منها، مئات الألوف من أنصاف وأرباع المثقفين والتوسع في التعليم مثل التوسع الزراعي: أفقي.. سطحي.. ويحدث في الزراعة ما يحدث في

التعليم والتجارة أيضاً: سرقة أرض الدولة.. مخالفة قوانينها.. زحف المباني على الأرض الزراعية بعلم الدولة وحماية القانون.. وتجريف التربة وتبوير الأرض الزراعية.. وتصحير الأرض المزروعة.. وذلك بأن نتركها دون أن نحصدها لنقص الأيدي العاملة وارتفاع تكاليفها.. والنتيجة نقص في العمالة والانتاج وضعف المحصولات.

وبعد ذلك تستطيع أن تراهن نفسك وتكسب الرهان في كل مرة إذا أنت فهمت تفسيراً واحداً لكل ذلك. فهناك ألوف التعليلات الرسمية المدعمة بالأرقام وهناك طريقتان مؤكدتان للكذب: أن تكذب وأن تؤيد ذلك بالأرقام.

امسك ورقة وقلماً واكتب صادرات مصر المتزايدة وفائض إنتاجها في الزراعة والصناعة ثم اذهب إلى الأسواق لترى نفسك إن كانت الأسعار قد تزحزحت إلى تحت مليماً واحداً فكيف إذن؟

في مصر صناعة واحدة متطورة جدا ومن مئات السنين ولكي أكون أميناً أقول إنها صناعة عربية أيضاً. هي صناعة المسامير لمخترعها خوجة نصر الدين الشهير بجحا. فلا يخلو بيت واحد من مسمار جحا. ولا عقل ولا مدرسة ولا مصنع ولا إدارة ولا حزب.. فهذه المسامير التي هي الأعذار الجاهزة موجودة في كل مكان. وعلى طريقتنا في مصر يجب أن يكون كل شيء نابعاً من ذاتنا: اشتراكيتنا نابعة من ذاتنا واقتصادنا نابع من أحلامنا وصناعتنا نابعة من احتياجتنا، فكذلك هذه المسامير.

إننا لم نعد في حاجة إلى مصانع جحا. فهذه المسامير تنفر كالأظافر

في أيدينا. وكالشعر على أجسادنا. . ولذلك ظهرت طبقة «الزمبجية» - وهي كلمة تركية معناها الذي يدق المسامير والخوازيق والأسافين أيضاً.

فإذا كان هذا الذي نقرأ عنه ونسمعه جادا. فاللهم وفقنا جميعاً إلى إصلاح التعليم والتربية في بلادنا، التي هي أقل تقدماً وتطوراً من الولايات المتحدة، وهي أشد حاجة إلى مئات الألوف من هذا التقرير. فإذا كنا مخلصين في هذه الرحلة إلى الشاطئ الآخر فما أحوجنا إلى شراع، وإن كنا جادين في التوجه إلى الله، فما أحوجنا إلى القبلة، ويجب ألا ننسى أننا البلد الذي أطلق صاروخين: القاهر والظافر ولم يكن لواحد منهما عقل الكتروني يوجهه فقد أتينا بالعلماء الألمان ليصنعوا هذه الأجيال من الصواريخ، ونسينا أو قررنا أن تكون بلا وعي. أي نطلقها هائجة غاضبة إلى الفضاء الخارجي، ولا يهم أن تسقط!

فلسنا في حاجة إلى صواريخ بلا عقل، إلى حماس بلا هدف، إلى غضب بلا قضية، إلى قضية بلا حل، إلى حل ليس ممكناً!

وقد ينظر أحد إلى حالنا في مصر ويمط شفتيه ويهز كتفيه: لا أمل. . إعتمادا على حوادث العنف: قاتل والديه وقاتل أولاده وزوجته وجدته. مع إنها حوادث عادية مألوفة في المجتمعات الكبيرة مثل حوادث الزحام وتصادم السيارات. فمن نتائج الزحام أن يدوس الناس بعضهم البعض، ولا يجدون مبرراً للاعتذار من ذلك. . إنه الزحام في الأتوبيس وعلى المحطات وأمام المجمعات وفي المكاتب وفي العيادات والمساجد والكنائس ولجان الامتحان والقنصليات من أجل السفر إلى الخارج. فالعنف الفردي طبيعي. ولكن المشكلة هي العنف الجماعي.

هذه هي القضية العلمية التربـوية الاخـلاقية الاقتصـادية السياسية الإعلامية.

حتى الذي قتل والديه وقف أمام القاضي يطلب الرحمة، لأنه أصبح يتيماً!! هو الآخر لديه مسمار جحا اسمه «الوجـودية» - أي إن دراسته للفلسفة الوجودية هي التي أغرته بقتل والديه. مع أن الوجودية لا تدعو إلى ذلك. وإن كان لابد من جريمة قتل فليقتل الإنسان نفسه بيديه - فهذا القرار هو قمة المثالية البائسة. أن يبدأ الإنسان بنفسه فيكون العامل القتيل!

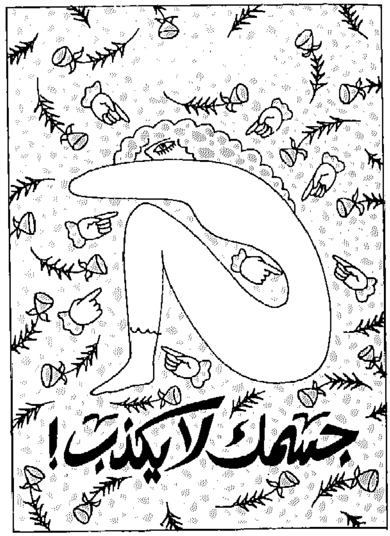
أمريكا قررت أن تبدأ بالكتـاب، أي بالمؤلف والمدرسـة والمدرس والأب والأم والطالب. وألا يكون الكتاب «سندويتشاً»: شاطر ومشطور وبينهما طازج. أي شارح ومشروح وبينهما: تافه!

إلا إذا كان لأحد رأي آخر!

المحتويات

رقم الإيداع : ٨٩/٣٨٩٩
الترقيم الدولى : × ـ ٣١٧ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



نحن نتشابه فى كل شىء : أفكارنا وعاداتنا ولغتنا .. وطعامنا وشرابنا .. وملابسنا الجاهزة وملابسنا التفصيل .

ولكننا نختلف فى أجسامنا .. فأجسامنا هى الشىء الشخصى الوحيد .. فكل واحد له جسم مختلف عن الآخر .. وللجسد معالم متميزة . وجسمى هو وسيلتى الوحيدة إلى معرفة العالم والتأثير فيه .. هو المرض .. هو المعمل .. هو الأرشيف وهو الملعب وهو المقبرة أيضاً ..

الغلاف للفنان حلمى التونى

قرش جنيه
٧/٠٠

دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣